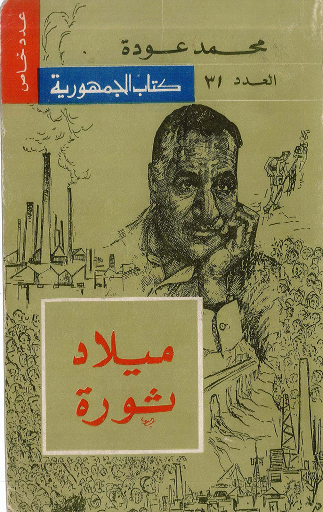

عدد خاص
محمد عودة
كتاب الجمهورية
العدد ٣١
ميلاد
ثورة

ميلاد ثورة

محمد عودة



الثورة

كانت الأعوام الثمانية عشر الأخيرة ــ من عمر الثورة ــ هي أهــم السنين التى مرت بتاريخ مصر كله ، ولكى نستطيـع أن نستمر بالثورة لا بد ان نستعيد احداث هذه السنين ، ونحاول ــ بعد ان عشناها ــ أن نراها مرة أخرى بموضوعية وبعمق . وقد كانت جذور هذه السنين الاولى فى تاريخ مصر الحديث كله ، ولكنها كانت خاصة فى بضع السنين التى سبقتها منذ نهــاية الحرب العالمية الثانية ، وكانت سنى الحمــل والمخاض الأليـم والبحث المتصل .

كانت مصر منذ نهاية الحرب مثقلة « الحمـل » بالثورة ، ولكنها كانت ثورة تجاوزت كل التنظيمات والقيادات القائمة .

لقد كان القائد الطبيعى للثـورة هو حـزب الكفـاح الوطنى والاغلبية الذى ساد حياة مصر السياسية والوطنية منذ قيـامه بعد الحرب العالمية الاولى واندلاع ثورة ١٩١٩ ، ولكن حزب الوفد كان موزعا وربما مشتتا بين جناح او أغلبية تقليدية بدأ العصر الحـديث يتجاوزها ، وبدأ خـوفها يزداد من تطور الثورة او من امتدادها الى ثورة اجتماعية طبقية ، ودفعـهـا هذا الى البحث

من صيغة تعايش الا تهاون مع القوى التى حاربتها طول حياتها ، بل التى قامت لمحاربتها . وقد كان الوفد على حسب الاصطلاح السياسى المعاصر هو حزب البورجوازية الوطنية ، وقد بدأ القلق والصراع فى داخلها وخاصة بعد ان سرى « التطرف » الى داخل الوفد نفسه ، وقام فيه جناح يسارى جديد من القيادات الشابة يطالب باستمرار الثورة والمضى فيها .

وهذا الجناح اليسارى ــ وان لم يكن جناحا كبيرا او قويا أو ذا برنامج واضح او مفصل او ذا تأثير كبير على القيادة او على القواعد ــ اشعل الصراع الداخلى ، واذكى التردد الحاد داخل الوفد نفسه .

وقد الغى الوفد معاهدة ١٩٣٦ ، وكان هذا عمله المجيد الأخير « باسم مصر وقعها وباسم مصر الغاها » ، ولكن الوفد اعلن يوم الغائها ان الكفاح السلمى الدستورى المشروع لاستخلاص حقوق مصر وبحسب برنامجه قد فشل ، وان الكلمة للشعب ، وكان هذا يعنى ان الكفاح لا مناص من ان يكون كفاحا شعبيا مسلحا ، وكان يعنى أيضا ان على الوفد وهو القائد الأول للكفاح ان يتحول الى حزب ثورى حقيقى ، وأن يقود حرب تحرير شعبية مثل الحروب التى كانت تعم آسـيا فى ذلك الوقت فى الهنـد الصـينية واندونيسيا وبورما وغيرها .

ولكن لم يفعل الوفد هذا بل كان اعجز من ان يفعل وهو منذ قضت الادارة البريطانية على تنظيماته واجهزته السرية المسلحة سنة ١٩٢٤ بعد قضية السردار اصبح لا يملك قوة ضاربة اكثر من منظمى المظاهرات الشعبية .. الموسمية .

وقد انتهى الوفد تماما يوم عرض عليه ضـبـاط الجيش الأحرار فى اوج الازمة الاشتراك معهم ، وخلع الملـك وتحويل المعركة الى حرب وطنية ، والاستمرار بالثورة . ولكنه انتحر بيديه حينما اعلن الاحكام العرفية يوم ٢٦ يناير ، واكد ولاءه للنظام

الملكى الدستورى والشرعية القائمة ، واعتقل كتائب المقاومة ، واستقال وبارك الوزارة الجديدة التى جاءت بعد المؤامرة ، ثم سافر رئيس الوفد وسكرتيره الى أوروبا ، لتمضية الصيف .

وكان هذا يعنى ان الوفد قد انفصل بعيدا عن الواقع الشعبى ، وان القيادة لا تدرك ان هناك ثورة لا بد ان تستمر وان تتحقق ..

وكانت التنظيمات الأخرى المؤهلة نظريا للقيادة لا تقل عجزا ! كانت التنظيمات الماركسية هناك ، وكان الواقع المصرى نموذجيا لحدة المشكلة الاجتماعية ولالتحامها بالمشاكل القومية .

والتنظيمات الماركسية قديمة فى مصر ، وقد بدأت بعد ثورة اكتوبر فى روسيا ، ولكنها يضيق افق قادتها وسذاجتهم يومئذ اصطدمت هى والوفد ولم تستطع ان تتعايش معه او ان تنضوى تحته ، وان تدرك حقائق تلك المرحلة وضروراتها .. ظلت التنظيمات الماركسية كثيرة ومنفصلة ومتمادية ، وكانت تضم الكثير من الاجانب ومن تستطيع ضمه من اليهود ومن المتمصرين ، ولا تستطيع ان تنفذ الى صميم المجتمع المصرى والواقع المصرى ، ولم يكن هناك لينين أو ماوتسى تونج أو هوتشى منه مصرى لكى يمصرها ويبصرها فى الواقع ، ولكى يربطها بكل التراث والكفاح المصرى الطويل ، وربما كان السبب الاهم فى عجزها ان الوفد كان ما زال قائما مهيمنا ، والحركة الوطنية المصرية كانت لا تزال مطردة تكافح ولم تخل أو تنتكس . وقد كان الوفد جبهة عريضة تضم كل الطبقات وكل الاتجاهات الوطنية : اقطاعيين وفلاحين ، وعمالا وراسماليين ، ومثقفين ، ويسارا ويمينا ، وكانت مبررات الحلف قائمة ، ولم تسقط بعد .

وقد انتصرت الماركسية فى الصين مثلا ، لان تشيانج كاى تشيك انتكس وخان القضية الوطنية ، ولأن ماوتسى تونج

« صون » الماركسية (جعلها صينية) وصهرها فى تراث الصين وحياتهم . ولم يتحقق نجاح « مماثل » فى الهند ، لأن حزب المؤتمر بقيادة غاندى ونهرو واصل الكفاح والتطور ، ولأن الحزب الشيوعى الهندى لم يفلح فى تهنيد النظرية أو تطبيقها على الواقع الهندى الشديد التعقيد .

وقد حملت هذه التنظيمات فكرا ثوريا وعلميا جديدا للحياة السياسية والفكرية فى مصر ، فقد فسرت الاحداث الجديدة فى العالم ومعنى انتصار الاتحاد السوفيتى ومغزى ظهوره كقوة عالمية رئيسية ، وقامت بدور فى اذكاء الصراع الفكرى والسياسى الذى اضطرم بحيوية فى مصر وخاصة خلال العامين الأخيرين قبل الثورة ، وطرحت كل المشاكل المصرية والدولية من زوايا جديدة ، ولكنها مع ذلك ظلت اسيرة عيوبها ، ولم تستطع التقدم، وكانت ابعد ما تكون عن القدرة على قيادة الثورة .

وكان الاخوان المسلمون قوة أخرى ، وقد قامت هذه الحركة مستغلة عمق الشعور الدينى للمصريين وركود الحياة السياسية خلال الثلاثينيات ، وتطلع الشباب الى قضايا ومثل وطنية وروحية ، ثم تطلع الشعوب المهزومة عادة الى الماضى المجيد وتشبثها به وحلمها باستعادته ، وقد حققت الحركة نجاحا بدا فى بعض الأحيان كبيرا وواسعا ، ولكنه كان غالبا بين اشد الفئات تخلفا سواء فى القرية أو فى المدينة .

ولكن الاخوان المسلمين تخبطوا منذ البداية ، ولم يقدموا تطبيقا او تفسيرا اسلاميا لمشاكل العصر واحداثه ، ولم يقدموا برنامجا واضحا ومفصلا للعمل الوطنى والاجتماعى الثورى وفق مبادىء الاسلام ، ولم يستمروا بالثورة التى بداها المفكرون والمصلحون المسلمون الأوائل ، كالافغانى والكواكبى وغيرهما .

وكان سبب فشلهم الاول تخبطهم السياسى واستغلال كل القوى من السراى الى حكومات الأقلية الى البريطانيين لهم فى

محاربة القوى الشعبية الرئيسية وهى الوفد ، وفى الحرب الجديدة التى اعلنت ضد الشيوعية على النطاق المحلى والدولى .

وبهذا كان الاخوان قوة متعصبة ومتخلفة ومتعثرة فكريا وسياسيا وقد نفرت غالبية الشعب المصرى الذى رسخ فيه التسامح الدينى والسياسى بتعصبها ومجافاتها لروح العصر ولجوئها للارهاب فى غير محله .. ولتخاذلها فى تأييد الكفاح المسلح حينما اصبح واجبا وضرورة قومية ..

وكانت القوة الرابعة هى الحزب « الديمقراطى الاشتراكى » وكان حزبا جديدا وقديما ايضا فقد كان الحزب استمرارا للحزب القديم « مصر الفتاة » الذى كان امتدادا وانعكاسا لازدهار الفاشية والنازية فى اوربا ، وكان لهذه الحركات صداها فى مصر لا ايمانا بالفاشية والنازية ، ولكن لما كان لالمانيا من رصيد بسبب عدائها التقليدى لبريطانيا ــ والامبراطورية البريطانية .

وبعد الحرب تحول الحزب الى الاشتراكية الديمقراطية متأثرا بحزب العمال البريطانى وبنجاحه الساحق فى الانتخابات ، وقد أعلن الحزب يومئذ انه سوف يقود ثورة اشتراكية ديمقراطية فى أوربا ، بل فى كل بلاد الامبراطورية .

ولكن الحزب الاشتراكى المصرى كان حزب اثارة اكثر مما كان قوة سياسية منظمة ، وهو بالطبع لم يكن يملك التنظيم النقابى أو التنظيم التعاونى او التنظيم الحزبى أو الجمعية الفابية التى كان يملكها حزب العمال البريطانى ، ولكنه حمل لفحة هواء قوية ومثيرة للمعركة السياسية فى مصر ، وطرح الاشتراكية كقضية وشعار شعبى واسع الانتشار ، وقدم حلولا اشتراكية قومية وديمقراطية لمشاكل كثيرة ، ولكن الحزب كان يتكون اساسا من شخصية زعيمه وبعض المريدين ، وكانت رواسبه القديمة

ما زالت واضحة فى اسلوب عمله ، ولم تكن تؤهله لقيادة الانعطاف التاريخى الكبير القادم .

وكان يوم ٢٦ يناير هو الامتحان الحاسم لكل القوى . فى ذلك اليوم احرقت القاهرة ، ولم يثبت بعد بالدليل القاطع من المسئول ، ولكن اثبتت جرائم الاستعمار واجهزة المخابرات الغربية بعدئذ ، وقبل ذلك ايضا ، ان مثل هذه العمليات المنظمة الدقيقة الارهابية من صنع تنظيمات تتكون من العناصر المنحلة والمنحطة واللامنتمية ؛ وخاصة فى المستعمرات وبلدان العالم الثالث ، تقوم بأى شىء يطلب منها .

وقد كان « اخوان الحرية » نموذجا لهذه التنظيمات . وهم بلا شك ، وبكل « الفوائد » التى جنيت ، اول المشبوهين . كانوا « حزبا » كونته المخابرات والدعاية البريطانية خلال الحرب من كل العناصر الضائعة والساقطة فى المجتمع ومن كل الطبقات .

وفى رواية مشهورة عن الاستعمار البريطانى يقول الحاكم العام للحاكم الشاب الجديد : « اذا عجزت تماما عن اخماد ثورة يقومون بها فاشعل حريقا كبيرا يلتهم اثمن ما لديهم ، ويشغلهم لوقت طويل ينسون خلاله الثورة ! » وهى رواية « القنصل عند غروب الشمس » لجيرالد هينلى .

ولم يكن بين القوى والقيادات القائمة فى ذلك الحين من يستطيع ان يواجه المؤامرة او يعبىء الشعب ، ويحول المأساة الى ثورة والى حرب تحرير مسلحة ، وخاصة ان الجيش كان متململا وانضمت عناصر منه وانخرطت قوات من البوليس بالفعل فى قلب الثورة ..

.. كان الفشل اشهارا تاريخيا لافلاس كل هذه المنظمات ونهايتها على المسرح السياسى .. ولكنه لم يكن بالطبع نهاية الثورة .

كانت الثورة المصرية قد دخلت طورا جديدا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تعد ثورة « الاستقلال التام او الموت الزؤام » ولكن نمت وتطورت قوى وطنيـــة وثورية جـــديدة ذات مثل وشعارات جديدة « الجلاء بالدماء » و « الغذاء والكساء » .

وخلال الحرب وبعدها اكتمل جيل جديد مثقف هو الذى تلا ثورة ١٩١٩ ، وشهد انحسارها ، وخلال الحرب والعمـــل فى المعسكرات ، ونمو الكثير من الصناعات المحلية ، نمت قوة الطبقة العاملة ، وتفتح وعى هذه القوى النامية على المتناقضات الشاسعة فى المجتمع المصرى ، وطحن ارتفاع الاسعار وانغلاق الاسواق امام القطن ومطالب الحرب الريف والفلاح المصرى مرة أخرى كما حدث فى الحرب العالمية الاولى ..

واستمع المثقفون لمواثيق الحرب ومبادئها وشـعاراتها التى كانت تبذل بسخاء من كل جانب ، وبالطبع صمموا الا تتكرر خديعة آبائهم بعد الحرب الأولى .

وبعد الحرب أيضا خرج عالم آخر جديد تضعضعت فيـه قوى الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية ، وقام الاتحاد السوفيتى كدولة أعظم أعلنت منذ البداية أنها ضد الاستعمار والاستغلال .. وأصبحت الولايات المتحدة الدولة الأولى ، وخرجت من عزلتها لتتحمل مسئوليتها امام العالم ، وكانت مبادىء روزفلت لا تزال قائمة او صداها على الأقل .. وقامت منظمة دولية جديدة تتدارك كل أخطاء عصبة الأمم المتحدة ، ثم اشتعلت ثورات الشعوب ضد الاستعمار للتحرر النهائى .

وقد انعكست الثورة فى مصر .. فى طوفان المظاهرات التى شملت مصر كلها بعد نهاية الحرب وخلال عام ١٩٤٦ وخاصة فى

سلسلة الاضرابات العمالية التى لم تنقطع والتى كانت اعلانا عن وجود قوة ذات مطالب ابعد من مجرد المطالب الوطنية ، وانعكست ايضا فى الظاهرة التى حدثت لاول مرة وهى انتفاضات الفلاحين فى بعض القرى وضد الاقطاع الكبير والمطالبة بالارض واعلان العصيان والكفاح بالعنف من اجلها .. وكانت نذيرا بنفاذ الثورة حتى ذلك العمق ..

ولكن اهم الظواهر التى لم يلتفت اليها احد فى ذلك الحين كانت نمو قوى جديدة فى الجيش المصرى .. كان الجيش بعيدا عن تصور الثوار وتفكيرهم بل محسوبا فى قائمة الاعداء !..

والجيش المصرى جيش عريق ذو تقاليد وتراث .. لم يكن قط جيشا محترفا ، منفصلا عن حياة الشعب ومصير البلاد الا فى فترة الاحتلال ..

وقد كان الجيش المصرى الأول « جيش محمد على » اعلانا بميلاد القوة العسكرية المصرية وتبديدا لخرافة أن المصريين غير مقاتلين ، وهو ما بهر العالم يومئذ ، وتجمعت أوربا كلها للقضاء عليه بعد أن وصل الى أبواب القسطنطينية ، وقررت الا يزيد عدده على بضعة آلاف والا يتجاوز حدود مصر !

ولقد كان ذلك الجيش من أبناء الشعب الذين قاموا بثورات القاهرة ضد نابليون ، ثم بالثورة الكبرى ضد السلطان ولتولية محمد على ، وكان ضباطه من المثقفين الذين تعلموا فى الاكاديميات الاوربية المصرية ، وكان يضم عددا كبيرا من ضباط نابليون ممن تشربوا بمبادىء الثورة الفرنسية ، وعددا ايضا من اللاجئين السياسيين الأوربيين ، وكان هدف الجيش اقامة المملكة العربية المصرية وتحويل الامبراطورية العثمانية المريضة الى قوة أكبر تقف فى وجه أوربا .

ولهذا تجمعت كل اوربا للقضاء عليه ، وبرغم كل الضمانات التى اقامتها بعدئذ ظل الروح باقيا كامنا فى الجيش المصرى ..

وبعد هزيمة ساحقة منى بها الجيش المصرى فى الحبشة خلال عصر اسماعيل سرت روح السخط وخاصة بين الضباط المصريين ، ولكنها اخذت شكلا مختلفا اكثـــر عصرية .. وقرر الضباط المصريون تنظيم انفسهم داخـل الجيش تنظيمـا سريا يعمل على الاستيلاء على الجيش وتسخيره فى تحرير البلاد ، وقام أول تنظيم للضباط الأحرار بقصد الثورة .

وتطور برنامج الضباط حتى اقامة الجمهورية الديمقراطية .. والتقى تنظيم الضباط الاحرار وتنظيم سياسى قام به بعض الباشوات والاعيان الوطنيين هو الحزب « الوطنى » الذى بدأ البحث فى تحرير البلاد من ربقة الاجانب ـ وكانت الراسـمالية الاوربية قد اجتاحت مصر عن طريق القروض تمهيدا للاستيلاء عليها ، واندمج الضباط الراديكاليون والباشوات الليبراليـون فى حزب واحد وحركة واحدة بقيادة الأول .. وقد هزمت الثـورة لان الاستعماريين ادركوا مغزى نجاحها ، وكان من اهم أسباب هزيمتها كما يرى بعض المؤرخين هو التنـاقض بين الضـباط الراديكاليين الذين كانوا يريدون ثورة واصـــلاحات جذرية ، والباشوات الليبراليين الذين تخاذلوا ، ولم يكونوا يريدون سوى اصلاحات فى اطار النظام القائم .

وقد نفى البريطانيون واعدموا وشردوا ضباط هذا الجيش وقواته ، ثم ابادوا ما بقى منه عن آخره فى حملة على السودان ، ولكن برغم ذلك ظلت الروح كامنة . واقام البريطانيون جيشا استعماريا يقوده ضباط انجليز « عظام » ، وحرصوا على ان يكون الضباط المصريون من ابناء العائلات الاقطاعية والموالية تماما ، ولكن الجيش لم يستسلم ولم يعدم المواقف البطولية والوطنية ، وكان ابرزها الموقف عند ارغام مصر على اخـلاء السودان سنة ١٩٢٤ ..

وبعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ رأى البريطانيون ـ مهادنة الوطنية المصرية وفي نفس الوقت استعدادا للحرب التي كانت قادمة لا محالة ـ السماح بتعزيز الجيش المصري كقوة محلية ملحقة بالجيوش البريطانية وخدمتها خلال الحرب ..

ودخل لاول مرة وبعد غيبة طويلة ابناء الشعب ، ليصبحوا ضباطا في الجيش المصري ، وليحملوا السلاح وليتعلموا فنون الحرب الحديثة .. وليعيشوا بعدئذ احداث الحـــرب العالمية الثانية وتقلباتها ، وان يكن ذلك على هامشها ..

وفي سنة ١٩٤٨ اشترك الجيش في حرب فلسطين ، وكان احد الاهداف الرئيسية من تلك الحرب هو استهلاك القـــوى الوطنية العربية وخاصة القوى المصرية . و نحتاج الى هـزيمة مصرية ساحقة تضع أنوف المصريين في الرغام ، كما قال مسئول بريطاني للصحفي اليهودي جون كميش في ذلك الحين ..!

وكما حدث منذ تاريخ بعيد ادرك الضباط اسباب الهزيمة ؛ ونظمـوا انفسهم داخـل الجيش للاستيلاء عليه وتحـويله الى اداة للثورة لا للخدمة الثورة المضادة .

وقد عاد الضباط من فلسطين ليعيشوا كل الصراع السياسي والفكري الذي اضطرم وازدادت حدته في مصر خلال العامين الحاسمين اللذين سبقا العاصفة .

وكان يتزعمهم ضابط شاب هو بلا شك الحفيد التاريخي للضابط الآخر الذي حول الجيش الى صف الشعب ولتحقيق الثورة ولكي ، لا نستعبد بعد اليوم ، .

وقرر أن يثأر لهزيمته ولكل هزيمة ..



الجيش

ولد الجيش المصرى الحديث ولادة ثورية وعصرية ، وكان انعكاسا للثورة التى تلت جـــلاء الفرنسيين عن مصر ، والتى تسلمها وقادها محمد على .

« كانت هنـاك قـوة رابعة ظهرت على المسرح السـياسى ، واخذت تنمو وبشتد ساعدها . دون ان تأبه لها تلك القوات الثلاث ــ الاتراك والمماليك والانجليز ــ وتلك هى قوة الشعب المصرى » .

.. « رات الامة من الحوادث والانقلابات ما فتح اعينها وهز اعصابها : رات نابليون بونابرت يخطب ودها وبشـيد بعظمتها ، ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها فى ان تحكم نفسها بنفسها » .

« ورات خلاصة علماء فرنسا واطبائها ومهندسيها يعرضـون عليها آثار علمهم وتجاربهم » .

.. « ورات ديوانا للحكم مؤلفا من صفوة ابنائها بعد ان كان الديوان القديم مقصورا على المماليك » .. .

.. « ولهذا ازدهرت هذه الروح حتى قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش .. كانت ثورة الامة المصرية التى ظلت

سنين طويلة رازحة تحت نير الاستبداد ، ولكن لم تفقد مواهبها القديمة التي ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد يعلوها الصدا ، وما ان صدمتها الحملة الفرنسية حتى اخذت تبدو للعيان كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها في لهب النار » .

وقد رات الامة العسكرية الحديثة في جيش نابليون وجيش فرنسا الثورة . وكان ذلك الجيش هو بداية العسكرية المصرية الاوربية ، وكان بداية الانتقال من فرق الامراء والملوك والفرسان اى الجيوش الاقطاعية والمرتزقة الى الجيوش النظامية القومية « البورجوازية » ، وانتقلت الجيوش من الاسلحة القديمة التقليدية الى الاسلحة التكنولوجية التى تمخضت عنها الثورة الصناعية الأوربية . كانت عسكرية تختلف تماما عن عسكرية المماليك مهما تكن فروسيتهم وشجاعتهم ، وكانت تختلف عن عسكرية الأراك وفرق جيوشهم المختلطة الهمجية ! ولا شك ان هذه الصورة رسبت عميقة في خيال الامة وفي خيال محمد علي .

وكان أول درس وعاه محمد على هو ان بناء الدولة الحديثة لا بد ان يعتمد على بناء عسكرية حديثة ، ولهذا « اصبحت المصالح العسكرية الجليلة أهم من كل امورنا وشئوننا » .

وقد بدات العسكرية الجديدة من صميم مصر وكان أول تأسيس للنظام العسكرى « ان صدر امر الباشا الى احمد طاهر باشا بأنه لضرورة اعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد ، استصوب جمع اربعة آلاف مصرى من الوجه القبلى لينضموا الى محمد بك لاظ اوغلى ناظر النظام العسكرى ، ومن يجمع يرسل الى سليمان بك اغا الفرنسى معلم الجنود باسوان ليعلمهم حب النظام الجديد » .

وحرص محمد على في رسالة أخرى ان يؤكد « أنه لما لم يكن من عادة الفلاح أن يقبل هذا الوضع فلا يمكن ثمة ما يجب ارغامه

عليه ولا معـاملته بالعنف فيه ، بل كان يلزم تحـرير الفـلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم اليه ، وذلك بتفهيمهم تدريجا أنه أمر منطو على خير ، ولا تعتبر كمـــائل الســخرة وتعالج كيفمـا اتفق ، داعيا الى اباء الفلاح واقتناعه » .

وكلف الشيخ العروسى شيخ الازهر الشيخ خليل الرجبى ان يكتب فصلا عن محاسن النظام الجهادى الجديد وموافقته للشرع الحنيف .

وتقرر فى نظام التجـنيد « ان يستخـدموا ثلاث سنين ، ويعطوا لحما وأرزا مفلفلا مرتين فى الاسبوع ، ومرتبـا قدره ثمانية قروش ، والكسوة اللازمة لهم » .

وتولى تدريب هذا الجيش ضـــباط أوربيون عصريون كان معظمهم فرنسيين من ضباط نابليون الذين تشتتوا بعد سقوطه ، وكان هناك ايضا ضباط أوربيون آخرون منهم لاجئون سياسيون شردتهم ثورات أوربا القومية خلال القرن الماضى .

وتولى قيادة الجيش ضـباط مصريون تعلموا فى المعـارك او فى المعاهد العسكرية الفرنسية والاوربية الشهيرة ، وكان بين هؤلاء ايضا ضـباط لم يكونوا مصريين فى الاصل . كما يدل على ذلك قول بعضهم :

« قدمنا الى مصر ، ولم تكن نتجاوز سن الطفولة ، ولذلك لم نعد اتراكا قط ، ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب ، واننا الآن ننتسب الى شعب أنبل وأكثر تنورا وسبق أوربا فى مضمار الحضارة ، ننتمى الى الشعب العربى » كما قال مختـــار بك باور ابراهيم .

وكانت الجهادية الجديدة بداية وأساس الدولة والحيـاة الجـديدة .

« ان مؤسسة الجهادية عمرها الله لهى فى ذاتها نعمة جليلة وقد وصلت ليلى بنهارى مضحيا بنومى وراحتى حتى بلغت ولله الحمد مرامى » .

« واود مخلصا ان تكون قد تخلصنا من الشموخة والولاية والغفلة ، والرخاوة ، وبدانا عهدا يقوم على اساس الانصاف والانسانية وعلى اسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف المدنية الراقية » .

وحينما استغزت رؤية العسكر الفلاحين بقايا العصبية التركية قمعها محمد على « وحينما زار آلاى حسين بك مدينة دمياط ، واستقبل بحفاوة بالغة اغتاظ على اغا الترلى ناظر السلخانة وقال فى حفل الاستقبال : « صار الفلاحون العمى عساكر ومهما كانوا فانهم لن يكونوا مثل عساكرنا الترك » .. وامر محمد على بضربه مائة نبوت على اليته وينفى وان عاد يصلب » .. وقد وجد الجيش المصرى بطله فى ابراهيم الذى كانت له قدوة خارقة فى استثارة حماسة الجنود ، وكان لا يرضى ان يممل احقر رجل فى جيشه ما لا تطيق نفسه هو عمله ، وكان يطيعه الجميع ويخشونه أكثر من سواه . التفت حوله القلوب ، وكان دائم اليقظة كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، وكان يدهش الافراد بسرعة تنقلاته ، وكثيرا ما كان ينام على الثلج فى العراء ليضرب القدوة .

« وكان اسمه الشائع بينهم هو (أبو خليل) ، وكان يمشى دواما امامهم على الامة التى أنجبتهم حتى صاروا يعتبرونه درعا يحتمون بها من بعض ضباطهم الترك .

ولم يكن ابراهيم مجرد جندى عظيم ، ولكنه كان ثائرا ذا رؤية تاريخية شاملة .

كان نابليون خلال وجوده فى مصر يقول : ان العرب امة ، ولكنها تنتظر رجل الاقدار . وكان ابراهيم هو ذلك الرجل . كان

يرغب باخلاص فى اقامة دولة عربية واحياء نهضـة عربية على اساس راسخ ، هو احياء الشعب العربى ، وكان ابراهيم اول مسلم ذى مقام فى العصر الحديث يحلم بحركة وطنية عربيـة ويصمم على تحقيقها » .

ولهذا تحالفت اوربا كلها بقيادة بريطانيا حتى تقضى على ابراهيم والجيش المصرى والحلم العربى .

وفى لندن سنة ١٨٤٠ ، اتفق عظمة السلطان مع اصحـاب الجلالة : ١ ـ ملك بريطانيا ـ ٢ ـ امبراطور النمسا وملـك هنجاريا وبوهيميا ـ ٣ ـ جلالة قيصر روسيا ـ ٤ ـ جلالة ملك بروسيا .. اتفق مع الجميع على ارغام محمد على على قبول شروط الاتفاق الذى اتفقوا عليه » وكان انهاء عهده وحكمه .. !

وخذلته حليفته الوحيدة فرنسا ، وانضمت للحلف ، ولهذا لم يبق مناص من أن يسلم وان كان لا بد ان نذكر له انه قبل التسليم « بدأ يستعد ويتاهب للدفاع والف فى مصر حرسا وطنيا بتجنيد العمال فى الورش وتلامذة المكاتب ، وتقدم من المشايخ السيد العزبى لتاليف آلايين من الرديف والشيخ حسن سرور والشيخ على الجزار لتاليف الايين وانعم عليهم برتبة الاميرالاى ، واستاذنه الشيخ عثمان السفارى بتاليف آلاى من شـبان باب الشعرية والجمالية ، والف الشيخ محمد الابراشى آلايا من قسم السيدة زينب ، وابراهيم عارف من الدرب الاحمر .. وتالف ١٢ آلايا من الحرس الوطنى ، وزعت على الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق وجهات القاهرة .. وكان الآلاى يؤلف من ٣٥٠٠ مقاتل ، وامر محمد على ابراهيم باشا يكن والى اليمن بالمجىء الى مصر مع عسكره المرابطة هناك لينضم لهذا الجيش » ، ولكن كانت المعركة غير متكافئة ، وكان تصميم اوربا حاسما .

وتلا عصر محمد على وابراهيم ، عصر مظلم سيطر فيه النفوذ البريطانى على الوالى ، عباس ، لأول مرة ، وعملا معا على اعداد مصر لتكون مجرد محطة على طريق الهند ولكن لحسن الحظ لم يدم العصر طويلا ، وانتهى بمقتل عباس الاول .

وتولى بعده « سعيد باشا » وكان شخصية من طراز مختلف ، وكان مع كل ضعفه ومتناقضاته يحب مصر حبا عميقا ، ويتحمس للمصريين . روى عرابى فى مذكراته :

« سمعت الخطبة التى القاها سعيد باشا فى مادبة اقامها بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين واعضاء العائلة الحاكمة واعاظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين . وقال مرتجلا :

« ايها الاخوان ، انى نظرت فى احوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الارض ، فقد توالت عليه دول كثيرة كالرعاة والآشوريين والفرس حتى اهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالامويين والعباسيين والفاطميين من العرب ، ومن الترك والاكراد والشركس ، وقد اغارت فرنسا عليها واحتلتها فى اوائل هذا القرن فى زمن برنابرت .. وبما انى اعتبر نفسى مصريا رأيت ان أربى ابناء هذا الشعب واهذبه حتى اجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الاجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

وقال عرابى : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الامراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، واما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، واما انا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس مصر للمصريين » وقد انعكس حب سعيد لمصر فى اهتمامه بالجيش .

وكان أول ما فعله انه : « أعاد له صبغته الوطنية بعد ان كاد يقضى عليها عباس الذى جلب الالبانيين مرة أخرى ، وكون منهم حرسا بلغ عدده ستة آلاف » .

واخـذ يقضى معظم وقتـه مع الجيش « لا يفـارقه فى حله وترحاله فى مدن القطر المختلفة ، وكان يقدم لجنوده أفخر الطعام من مطابخه ، وكان دائما يغير ازياءهم الى أشكال مختلفة ، وقد البسهم افخر الملابس ، وكانت مناظر فرسانه المدرعة والمزركشة تشبه افخر جنود اوربا » .

ولم يكن سعيد يريد فتوحا او اقامة سياسات ، بل حرسا ملكيا ، زاهى الألوان ، ودعمه حبه للمصريين الى ، ان يقرر ترقية العسكرى من تحت السلاح الى ضابط ، وبهذه الطريقة ارتقى عرابى وغيره من ابناء مصر مثله الى مراتب القيادة فى الجيش التى كان يحتلها الاتراك والشراكسة ، وكان ذلك بدء النزاع الذى ادى الى الثورة العرابية » .

وكان سعيد هو الذى اهدى الى عرابى الكتاب الذى غير تاريخه وتاريخ مصر . « ولشدة اعجابه بى اهـدى الى تاريخ نابليون بونابرت طبع بيروت ، وهو بادى الغيظ لأن الفرنساويين تمكنوا من التغلب على البلاد المصرية ، وكان يحرص على وجوب حفظ الوطن من طمع الأجانب » .

ولكن سعيدا « الذى كان يحب الشعب حبا جما لم يعن بتثقيفه وتنويره ، والغى عند توليه الحكم ديوان المدارس ، وكان أول من رحب بالاجانب ، وبالغ فى اكرامهم ، وكانوا يخدعونه ويحصلون على امتيازات ومنـح بلا حصر ، وكما قال نوبار : بدأ التدهور فى عصر سعيد » .

وكان البعث الحقيقى للجيش المصرى فى العصر التالى .. عصر اسماعيل ، واينعت فيه البذور التى بقيت كامنة ، والجذوة التى ظلت متقدة ، ولم تستطع اوربا استئصالها ..

وكان اسماعيل طموحا .. واسع الاحلام ، ويريد اعادة مجد أبيه ابراهيم وجده محمد على ، ولكن فى صورة اخرى لا تستفز اوربا ولا الدولة العلية ، ولهذا اراد ان يبنى مصر دولة عصرية اوروبية ، مصر فى رايه « قطعة من اوربا » ، وان تكون قاعدة اقامة دولة افريقية من الدول الكبرى .. تمتد من مصر حتى أحر منابع النيل التى آن الاوان لاكتشافها .

ولهذا « سلك اسماعيل نفس الطريق الذى سلكه جده فى تكوين جيش قوى وما استلزم هذا العمل من اعادة فتح المدارس والمصانع الحربية التى اغلقت بعد وفاة محمد على وفى عهد عباس وسعيد ، ومن استيراد احدث الاسلحة الحربية التى تنتجها المصانع الاوربية والامريكية » .

واضاف اسماعيل اضافة جديدة مبتكرة اذ استخدم لاول مرة ضباطا امريكيين .

« استقر راى الحكومة على الاستعانة باحدى الدول الاجنبية التى ليست لها مطامع فى مصر والتى لا يربطها بالدول الأخرى محالفات متشابكة ، واتجه الراى صوب امريكا لاستخدام الضباط الامريكيين فى تنظيم جيشه ، لان امريكا فى ذلك الوقت لم يكن لها اى مطمع فى مصر ، هذا فضلا عن تبوئها مركزا ممتازا من الناحية الحربية لتغلبها على الفرنسيين وطردهم من المكسيك ».

وبلغ عدد هؤلاء الضباط ما يقرب من خمسين ضابطا من الرتب الكبيرة والمتوسطة . وفى لقائهم بالخديو قال :

« ان خبرتكم التى تجلت فى الحرب الامريكية الاخيرة وعدم وجود اى مطمع لبلادكم فى مصر كانا من الدوافع التى اوحت الى باستخدام الامريكيين .. وانى اعتمد على اخلاصكم وكتمانكم فى معاونتى على تحقيق استقلال مصر » .

وقد اثار استخدام اسماعيل للضباط الامريكيين احتجاج اوربا .

« وقدمت فرنسا وبريطانيا احتجاجات واعتراضات على هذا الاجـــــراء، عن طريق قنصليهما فى مصر ، وقـد قوبلت هذه الاحتجاجات بالسخرية وعدم الاكتـــــراث من جـــــانب الخديو اسماعيل ، لان كلا من هاتين الدولتين كانت تطمع فى ان يكون هؤلاء الضباط من رجالها ليتسنى لها عن هـــذا الطريق بسط نفوذها على مصر » .

ولكن كان الضباط المصريون هم الرواد الأوائل والمكتشفين الحقيقيين لمنابع النيل ، ولكثير من الاكتشافات التى نسبت الى الاوربيين والبريطانيين ، وكانوا اول من حملوا الحضارة الحديثة بمعناها الصحيح الى قلب افريقيا ، وحاولوا اقامة دولة افريقية متكاملة ويمكن ان تقف فى وجه نهب واقتسام افريقيا .. الذى حدث بعد ذلك بقليل .

وكان الضباط المصريون هم الذين حذروا اســـــماعيل من خطورة استخدام الضباط الاجانب الاوربيين فى افريقيـــا « وقد نبهه جعفر مظهر حكمدار السودان وقت ارسال صمويل بيكر مع حملة مصرية لاكتشاف وضم مناطق خط الاستواء الى خطر اعطاء مهمة كهذه لأجنبى ، ونصحه بتقرير مكتوب ان يرســــل ضباطا من اركان حرب الجيش المصرى .. ولكن اسماعيل اراد مصـــانعة انجلترا ، واستمر فى هـــذا وعين غوردون خلفــا لبيكر فى حكومة خط الاستواء ، ثم عينه حاكما عاما فى السودان » .

وقد عين اسماعيل غوردون بناء على توصية من ولى عهـــد انجلترا البرنس أوف ويلز .. ومن ذلك الحين بدات المتاعب فى السودان .

وكتب الكولونيل لونج الأمريكى رئيس اركان حرب غوردون يقول : « رايت السودان فى حالة رخاء ورفاهية وتركته يتحفز ويتحرك للثورة بسبب ادارة غوردون ، وقد اختارت الحكومة البريطانيـــة غوردون خاصـــة لنشر الاختـــلال والارتباك فى شئون

السودان ، ولأنها تعمل منذ زمن طويل على خلق الحوادث التى حدثت فيما بعد ، وهدفها الاستفادة منها لتكوين امبراطورية انجليزية فى افريقيا » .

وكتب اوروبى هو هنرى بنسا يقول :

« ان عصر الرفاهية الكبرى فى السودان كان عصر الحكام « الضباط » المصريين ، وان مسئولية الادارة الانجليزية من يكر الى غوردون تبين من الحالة التى آل اليها فى آخر عهدهم » !!

ولم تكن لدى اسماعيل اصالة ابيه ولا حنكة جده ، ولهذا وقع فريسة سهلة للانحلال والتخريب الذى مارسته أوربا فى عصره ، وكانت السيطرة على مصر واحتلالها قد اصبحت مقدرة ..

والتهمته الهيدرا ذات الرءوس العشرة . وذات يوم قال هو نفسه ساخرا لضيف امريكى كان يزوره « حاذر باسيدى حين تهبط السلالم ان تنزلق قدمك وتبتلعك الهيدرا النيلية ذات الرءوس العشرة التى ينبت لها راس جديد كلما قطع واحد » .

« ومضى الخديو يعد على أصابعه : القنصل ، والقواد والنصاب ، والصحفى الأجنبى ، والكونت والبارون والمرابى ومزيف النقود واليونانى والأرمنى » .

وبين مشروعاته الافريقية كانت الحملة التى ارسلها الى الحبشة سنة ١٨٧٦ وكانت مؤلفة من ٢٠ الف مقاتل بقيادة راتب باشا الذى اختاره الحزب التركى فى الجيش وقد « ناط اسماعيل القيادة الفعلية فى الحرب بالقائد لورنج الأمريكى واركان حربه » ، ونجمت مشادة قوية فى القيادة العليا بين الاثنين ، وادى الخلاف الى هزيمة الجيش هزيمة منكرة فى « قرع » وكان لها اسوا الوقع فى مصر » .

وكان سبب الهزيمة فى تلك الحملة هو « الروح التركية المشئومة والمنطوية على الجهل والتعصب والجبروت والتى كلفت

الخزينة مليون جنيه ونيفا ، وبذرت في الجيش والشعب بذور الاستياء العام الذي نشأت منه الثورة العرابية » .

كانت تلك الروح وكانت السيطرة التركية الشركسية عامة قد عادت الى الجيش والدولة منذ موت ابراهيم ، وعجز سعيد عن الحد منها ، ولذا تألفت في أوائل حكم اسماعيل « جمعية سرية » في الجيش برياسة على الروبي للدفاع عن مصالح العنصر الوطني ، ثم ازدادت نشاطا بانضمام احمد عرابي اليها بعد حرب الحبشة ، وكان مأمور الحملة في « مصوع » واتهمه الاتراك بالرشوة ظلما ليتخلصوا منه ، واقيل من وظيفته . ومن « هذا الوقت اخذ ينشر الدعوة ضد اعدائه ، وتمكن بجرأته وفصاحته ان يصبح الرئيس الفعلي لهذه الجمعية منذ عام ١٨٧٧ » .

وقد حدث اول صدام واختبار للقوة بين الضباط الوطنيين وبين السلطة بعد ذلك بقليل ، فقد رات وزارة ريفرز ويلسون — وهو وزير المالية البريطاني الذي عينته بريطانيا لتسوية مشكلة الديون — رات انه من باب الاقتصاد رفت ٢٥٠٠ ضابط دون أن يدفع لهم المتاخر ، وكان لا يقل عن مرتبات خمسة عشر شهرا ؛ وهاج الضباط وقاموا بمظاهرة كبيرة في ١٨ من فبراير عام ١٨٧٩ ، وحاصروا نوبار وويلسون أمام وزارة المالية ، واوسعوهما لكما وضربا حتى جاء الخديو بنفسه واخمد الفتنة .

وبعد هذا الحادث اضطر نوبار للاستقالة ، واقترض ريفرز ويلسون ٤٠٠ الف جنيه من بيت روتشيلد دفعت منها متاخرات الجيش .

« وكشفت هذه الحركة الجندية عن قوتها ، وصار الجيش من ذلك الوقت الى جانب المجلس التشريعي احد قوى المعارضة التي يعتد بها » .

وكان الضباط يدركون ان اسماعيل لا يؤيدهم ، ولكن يريد ان يستخدمهم لاغراضه ، وهو قد سكن ثائرة الضباط وطمأنهم ، ولكنه بدأ في تشريد قادتهم ، وبدأ بعرابي الذي نقل مغضوبا عليه الى الاسكندرية ..

وقبل سفره روى : « عقــدنا اجتماعين ، واقترحت فيهمــا ان نقــوم بعزل اسماعيــل ، وكان هذا هو أفضــل الحــلول الممكنة . كان عزل اسماعيل أشرف لو تم على أيدينا وقمنا به وكان في استطاعتنا يومئذ ان نتخلص من أسرة محمد على كلهــا وأن نعلن الجمهورية ، ولم يكن القنــاصل او الدول الاجنبية لتعارض ، وكنا تلافينا كل التعقيدات التى حدثت ، وكنا وفرنا الخمسة عشر مليونا التى اخـذها اســماعيل ، وقد ووفق على اقتراحى ، ولكن لم يكن هناك من يأخذ المبادرة ولهذا لم ينفذ » .

كان هؤلاء هم الضباط الوطنيين الراديكاليين الذين يريدون ثورة تحقق الجمهورية .. ولكن ظهرت هناك قوى أخرى .

وقد تألفت في حلوان « جماعة من الكبراء باســم الحــزب الوطنى من اعضائها شريف باشا وشاهين باشا ناظر الحربية سابقا وعمر باشا لطفى وراغب باشا ، وســلطان باشا ، وارســلوا الى باريس (اديب اسحق) لاصدار جريدة على نفقتهم لتوزع سرا فى مصر .. ووزع الحزب فى نوفمبر ســنة ١٨٧٩ نشرة باللغة الفرنسية وزع منها ٢٠ الف نسخة كانت بيانه ضد النظام ، وجاء فى المنشور أن « الحزب يريد انقاذ مصر من الهوة السحيقة التى تردت فيها تحت ثقل الربا والاستبداد ، وان اكثر من ٦٠ مليون جنيه قد استولى عليها السماسرة ، وأن الحكومة الحالية لا تمت الى مصر بنسب حقيقى ، لأن الدول هى التى أنشأتها ولا دخــل للأمة فيها ، وان مصر تريد أن تتخلص من ديونها بشرط ان تتركها الدول حرة فى تنفيذ الاصلاحات العاجلة »

وتحالف الضباط الوطنيون الراديكاليون ـ عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود سامى ـ مع الباشوات على تنظيم الخطط المشروعة للحزب الوطنى ، وتقرر العمل على ضم المديرين فى المديريات ، وكان المقصود جعل القيادة على اتصال دائم بالمناطق الزراعية .

وقد اصبح عرابى زعيم الحزب والجيش والأمة كلها ، وبعد قليل قرر أن يقود المظاهرة التاريخية فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ الى عابدين لتأكيد قوة « الامة » وتحقيق مطالبها .

« ولما اجتمع الجيش فى عابدين نزل الخديو من السراى وتوسط الساحة ، فمثل بين يديه عرابى ، فخاطبه الخديو قائلا :

ـ ما اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟

ـ جئنا لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة !

ـ وما هذه الطلبات ؟

ـ هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى ، وابلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى امرتم بوضعها .

ـ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما انتم الا عبيد احساناتنا !

ـ لقد خلقنا الله احرارا ... واننا لا نستعبد بعد اليوم !

وخاف الخديو ، واشار عليه المستر كوكس قنصل انجلترا الذى كان يقف معه بالرجوع الى السراى ، وتصدى هو ومعه كولفن المراقب المالى لمخاطبة عرابى بالنيابة عن الخديو .

ـ ان طلب اسقاط الوزارة وطلب تشكيل مجلس نواب من حقوق الامة لا من حقوق الجهادية ، ولا لزوم لطلب زيادة الجيش ، لأن المالية لا تساعد على ذلك .

واجاب عرابى اجابة هى نقطة التحول واكتمال الوعى فى تاريخ مصر السياسى والعسكرى :

ـ « اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لأنهم اقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم واولادهم ، وهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .. »

كان ذلك اول اعلان أن « الجيش للشعب » ، وان القوة العسكرية سلاح الشعب .

وقامت الثورة العرابية ولم يقدر لها النجاح وانتهت بالفشل واحتلال البلاد .. ويرجع بعض المؤرخين اهم اسباب الفشل الى التناقض فى صفوف الثورة وخاصة بين الضباط الذين كانوا يريدون ثورة كاملة جمهورية وطنية ثورية ، والباشوات الذين كانوا يريدون اصلاحا فى ظل خديوية دستورية اصلاحية فحسب ، وقد انقلب بعض هؤلاء على الثورة وخانوها مثل سلطان باشا ، وتولى بعضهم الحكم والسلطة بعد الاحتلال وفى ظله مثل شريف .. ورسب الدرس عميقا فى ضمير مصر !

وقد كان أول عمل حرص الاحتلال البريطانى ان يقوم به بعد فشل الثورة هو تصفية الجيش وابادة آخر ما بقى منه .

وفى ١٩ سبتمبر عام ١٨٨٢ اى بعد خمسة ايام من احتلال العاصمة صدر مرسوم الخديو توفيق بالغاء الجيش المصرى ، وفى ٢٤ اكتوبر صدر مرسوم آخر بتجريد جميع الضباط الذين

اشتركوا فى الثورة العرابية من رتبهم وحرمانهم من أى حق فى المعاش ، أو الاستيداع ، وبدات المحاكمات للكثيرين منهم ..

واختار الخديو توفيق ضابطا بريطانيا السير « فلانتين بيكر » لتنظيم جيش مصرى جديد ، واختار بدوره السير « ايفلين وود » احد قادة جيش الاحتلال ليكون قائدا عاما للجيش المصرى الجديد ..

وتقرر ان ينقص عدد الجيش الى ستة آلاف ، ووكلت القيادات كلها الى ضباط بريطانيين ، ولا يعين ضابط مصرى الا اذا تأكد ولاؤه للاحتلال . وأغلقت أكثر المدارس الحربيه ، ولم يبق سوى مدرسة واحدة ، واغلقت جميع الترسانات التى كانت تقوم بصب المدافع وصنع الذخائر والبنادق فى الاسكندرية، واغلقت المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وعطلت الترسانة البحرية وبيعت السفن الحربية ..

وادخل الاحتلال نظاما جديدا هو نظام « البدل النقدى » للاعفاء من التجنيد ، وادى هذا الى اعتبار الجندية تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة ، وذلك لقتل روح الجندية ، وقرر الاحتلال اخيرا ابادة البقية الباقية من الجيش العرابى فى معركة بالسودان .

ووقعت هذه المعركة فى « كردفان فى ٥ نوفمبر عام ١٨٨٣ ، وكان الجيش المصرى يبلغ ١٣ الفا يقوده ضابط انجليزى الجنرال هيكس » . وتدل كل الظروف والملابسات على ان غرض الانجليز من ارسال هذا الجيش وتعريضه لزحف تعترضه المهالك كان التخلص منه ، لان فيه البقية الباقية من جيش عرابى ، وقد هلك الجيش ولم ينج منه سوى ضابطين برتبة الملازم و ٣٠٠ جندى .. واطمأن الاحتلال بعدئذ » ولكن لم تنطفىء الروح ولم تمت مع هذا .

وفى يناير سنة ١٩٠٠ « حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان ، وكان ذلك اثر صدور أمر نائب الحاكم العام

بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته ، ورفضت الفرقتان اطاعة الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة فى الجيش ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد ، واحيلوا الى مجلس تحقيق لمحاكمتهم ، وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من خدمة الجيش ، واحالة واحد الى المعاش ، وواحد الى الاستيداع وتوبيخ اثنين » ..

كانت الشرارة التى اطلقها ابراهيم والجذوة التى اشعلها احمد عرابى لا تزالان قائمتين . وحينما قامت ثورة ١٩١٩ كان من ابرز قادتها ضابط من الجيش المصرى هو عبد الرحمن فهمى الذى اشترك فى الحملة المصرية بقيادة كتشنر لاعادة فتح السودان . وبعد الحملة اشتغل فى « المعية » الخديوية لعباس الثانى ، وفى عام ١٨٩٦ عين ياورا لوزير الحربية مصطفى فهمى باشا ثم نقل الى خدمة البوليس ثم الى الادارة ..

وكان عبد الرحمن فهمى احد لعمدة التنظيم والتنفيذ والعمل السرى فى الثورة ، وقد اعتمد عبد الرحمن فهمى على المثقفين والعمال فى تكوين التنظيمات التى قامت بسلسلة من بطولات الثورة والتى اصبح كل هم الاستعمار بعدئذ تصفيتها ليتحول الوفد الى حزب سياسى كل عدته المظاهرات الموسمية التى تثور وتخمدها عصا البوليس ... !

وقد حقق الاحتلال هدفه بعد مقتل القائد البريطانى للجيش المصرى السير « لى ستاك » عام ١٩٢٤ . وكان بين المطالب البريطانية فى الانذار الذى قدم للحكومة المصرية فى ذلك الحين اخلاء الجيش المصرى تماما من السودان ..

ولكن عندما صدرت التعليمات من السلطات البريطانية الى وحدات الجيش المصرى بالجلاء عن السودان والانسحاب الى مصر « ابى ضباطه وجنوده أن يغادروا مراكزهم الا اذا تلقوا امرا بذلك من الحكومة المصرية ، ووقفوا موقف مقاومة بقيادة الميرلاى

« احمد رفعت » قائد المدفعية ورفض رفعت بك ومعه الضباط والجنود تنفيذ الأمر ، وحاصر الجنود الانجليز ثكنات انجيش المصرى ، وحاولوا الاستيلاء على ذخيرته ، فردهم الضـــباط والجنود ، واعتصموا فى ثكناتهم رافضين السفر . وارسل الملك رسولا خاصا ابلغ الضباط والجنود ان الملك يأمرهم بالانسحاب ، واذعنوا للامر آسفين محزونين » .

ولكن برغم كل الاسوار التى اقامها الاحتلال والسراى حول الجيش تسرب شىء من روح ثورة ١٩١٩ الى صفوفه ..

وقد حاولت الحكومات الوطنية التى تولت الحكم لفترات قصيرة محدودة ان تنفذ الى الجيش وتغير وتجدد من نظمه ولكن وقف الاحتلال سدا منيعا .

كان الاحتلال يسيطر على الجيش بعزله تماما عن الشعب وبالنظم التى وضعها منذ بداية حكمه وبسيطرة ضباطه وقادته البريطانيين وبقصر العسكرية على الطبقات والاسر الموالية للسراى والاحتلال ، ولم يكن يقبل سوى ابنائها فى المعهد الوحيـد وهو الكلية الحربية ..

ولكن فى منتصف الثلاثينات تغيرت الظروف والأحوال ، اذ كانت الحرب العالمية الثانية وشبكة الوقوع ، وأصبح ضروريا لهذا اعداد الامبراطورية ..

وكانت الحرب العالمية الأولى قد علمت بريطانيا انه لا بد من اقامة قواعد صناعية وعسـكرية محلية وصـغيرة فى ارجـاء الامبراطورية تلافيا لمشاكل المواصـلات ونقـــل المؤن والذخائر والقوات ، وفى ظل هذه الضرورة عقدت بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ ، وارادت بها تهدئة الثورة الوطنيـة فى مصر ، واعـــداد الشرق الاوسط لاحتمالات الحرب القادمة التى سيكون ميدانا رئيسيا لها ..

وسمحت معاهدة ١٩٣٦ لمصر بزيادة عدد الجيش المصرى وتقويته وتجديد اسلحته وهو المطلب الذى كانت تلح عليه وتعجز عن تحقيقه الحركة الوطنية ، كما سمحت المعاهدة ايضا بتمصير هذا الجيش والا يكون لبريطانيا الا بعثة عسكرية استشارية فيه .. وكانت بريطانيا تريد جيشا محليا يلحق بالقوات البريطانية ، ويوفر جهدا وأرواحا بريطانية . واصبح ممكنا ان يلتحق « العنصر الوطنى » من ابناء الطبقات المتوسطة والصغيرة وفى افواج كبيرة بالكلية الحربية ، وان يصبحوا ضباطا فى جيش مصر .. وما دام الامر قد يعنى الحرب والموت فلا ضرر ان يتحملهما هؤلاء !

كان الطلبة الجدد من ابناء الطبقات الصغيرة التى عاشت وعانت مشكلة مصر والتى اشتركت دائما فى ثورات مصر ، ولهذا كان لا بد حين يتعلمون العسكرية ويصبحون ضباطا ان يدب القلق الوطنى فى صفوف هذا الجيش ، وان يشعر بمشـــاكل شعبه ، وان ينتهى الى تصحيح مكانه من حياة الشعب وثورته ..

وقام الجيش المصرى خلال الحرب بدوره المرســـوم له ، وشكره القادة البريطانيون ، العسكريون والسياسيون .

قال تشرشل : « ان مصر قامت بدور مشرف مهم له قيمته لا فى دفاعها عن نفسـها فحسب ، ولكن فى الصراع العالمى » .
وقال ايضا : « قام الجنود المصريون بدورهم خلال الحرب فحافظوا على الامن فى الدلتا ، وحرسوا كثيرا من المراكز والمستودعات ، وساعدوا مجهودنا الحربى بمختلف وسائل المســـاعدة ، وهو المجهود الذى نجح مرة اخرى فى حماية الدلتا من الهجوم » .

وقال الجنرال اوكلنك : « ان المساعدة التى قدمها لنا الجيش المصرى عظيمة ، فقد حرس المرافق الداخلية ، وارسلت حامية مصرية الى واحة سيوة ، وكانت خدمات الجيش المصرى عظيمة :

تولى أعمال المراقبة والأنوار الكاشفة والبطـاريات المضـادة للطائرات ، وخفف بذلك الضغط على قواتنا الى حد كبير ! »

واعترف رئيس البعثة العسكرية البريطانية لدى الجيش المصرى بأنه « على الرغم من أن مصر بناء على نصيحة الحكومة البريطانية لم تعلن الحرب على المحـور الا فى عام ١٩٤٥ فان الجيش المصرى وسلاح الطيران المصرى ساهما باخلاص مع القوات المتحالفة خلال أيام الحرب الحرجة من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٣ وقدما للقوات الحليفة خدمات رئيسية » .

وبذلك قام الجيش المصرى بما قصد من معاهدة عام ١٩٣٦ ، وكان جزءا من الاستراتيجية البريطانية والأهداف الامبراطورية خلال الحرب ، ولكن الجيش المصرى أيضا دافع عن وطنه ، وعاش ضباطه أكبر حـرب عرفها التاريخ ، وتابعوا المعـارك والأسلحة وأساليب القتال الجديدة ، وتابعـوا أيضا الصراعات والسياسات وكل المبادىء والمصالح والمطامع التى تختفى وراء الحرب تطبيقا للمبدأ الألمانى الشهير : « الحرب امتداد للسياسة بشكل آخر » .

وبعد نهاية الحرب انفجر السخط الذى اضطرم طويلا فى نفوس الشعب ، وكان لا بد أن ينفذ الى صفوف الجيش ، فلم يعد ممكنا اقامة الأسوار والأستار الحديدية وعزل الجيش عما يحدث فى البلاد ..

ونقلت اليه الاتجاهات والتيارات التى كانت تتلاطم فى حياة البلاد .

ولـكن لم يرد ذكر الجيش ، ولم يبدأ الوعى بالخطـر لدى السلطة الحاكمة الا بعد أن رجع رئيس الوزراء من نيويورك بعـد فشل عرض قضية مصر فى هيئة الأمم صرح قائلا : سنولى وجهنـا شطر الجيش المصرى سياج الوطن ، فنقويه بزيادة عدده والاستعانة

بالدول الأخرى لجلب عدد من الخبراء والمستشارين له وسندعم الإصلاح الداخلي بكل ما في وسعنا لكيلا نترك لانجلترة فرصة التقول بما لا يليق » .

وقد حاول رئيس الوزراء أن يستعين بخبراء أمريكيين لتقوية الجيش ، ولكن اعتذرت الولايات المتحدة ... كانت لها خططها الخاصة حول مصر ، وجيش مصر !

وادركت بريطانيا مغزى تصريح رئيس الوزراء واحتمالاته ، وبعد أيام تقررت اقالة وزير الحربية ، اللواء احمد عطية ، وكان من السعديين الوطنيين السابقين ، وتعيين وزير يأمنه البريطانيون تماما على الجيش !

وكان الوزير الجديد « محمد حيدر » ، من « أخلص » رجال الاحتلال وتلاميذه المتفانين وقد « صعد نجمه » منذ اشتهر بقسوته في قمع المظاهرات خلال ثورة ١٩١٩ ، اذ كان ضابطا للبوليس ، واحد رجال الحكمدار الانجليزي المشهور « رسل باشا » وتدرج في خدمة الاحتلال حتى أصبح مديرا للسجون.. ثم وزيرا للحربية ..

ولم تغن كل الضمانات والاحتياطات التي اتخذتها « السلطة » في الجيش أو ضد الشعب • وامتد القلق واشتد ولم يعد مقصورا على مصر ، ولكن شمل المنطقة كلها ، وخاصة أهم القواعد بالنسبة للوجود والنفوذ البريطاني •

انفجر العراق في انتفاضة شعبية اسقطت معاهدة عقدها البريطانيون مع رئيس الوزراء صالح جبر .. على طراز المعاهدة التي عقدها صدقي ــ مع بيفين .. واجتاحت العراق مظاهرات واضرابات تحمل نذر ثورة كاملة ..

وتململ السودان بعد هدوء طويل ، ثم اضطرم بسخط جدد كل مطالب السودان •• وخاصة المطلب التاريخي ، وهو الجلاء ووحدة وادي النيل ••

وثارت المشكلة الفلسطينية . واثارت الشرق الأوسط كله .
وكان الـراى الـسـائد فى البـداية ان تعتمـــد الحـــرب على الفلسطينيين اولا ، وان تساعدهم الدول العربيـة لكى يحرروا انفسهم ، وان تسلحهم وتمولهم ، وتسمح للمتطوعين العـــرب وتجهزهم ، وبذلك تقوم حرب ثورية ، شعبية ، طويلة المـدى يمكن أن تستمر وتواجه الصهيونيين بنفس أساليبهم .

وقد خافت بريطانيا أن تؤدى ، مثل هذه الحرب الى تلاحـم كل القوى الوطنية والثورية العربية ، والى ان تشب النار فى كل المنطقة .

وكان خوف الانظمة العربية لا يقل عن خوف بريطانيا .
ولهذا تقررت الحرب النظامية ، وأن تدخل الجيوش العربية النظامية وان تحسم الأمر ..

كانت بريطانيا تعتمد على القوات « الهاشمية » فى العراق والأردن لكى تظل الحـــرب الفلسطينية فى اطار الأهــــداف والاستراتيجية البريطانية فى المنطقة ولا تتخطاها .

وقد كان الراى السـائد في مصر الا يشـــترك الجيش فى الحرب ..

كان راى رئيس الوزراء الا يشترك الجيش لانه غير مستعد بأية حال .

وكان راى وزير الحربية حيدر ان اشتراك الجيش فى حرب مخاطرة ، وكان راى القائد الذى اختير لقيادة الحملة « المواوى » ان الجيش المصرى غير معد لتحمل مسئوليات حرب .

ومع ذلك اشترك الجيش المصرى بأمر « الملك » وضد كل هذه الاعتراضات .

كانت بريطانيا فى البداية لا تشجع اشتراك الجيش المصرى فى الحرب ، وان تمتد « القوة » المصرية الى خارج حدود مصر ، والى العالم العربى ، ولكنها لم تمـــانع بعدئذ ، ليهلك الجيش المصرى تماما فى حرب لا قدرة له عليها ، اذ سوف يكون ذلك خدمة لبريطانيا !

وحارب الجيش المصرى ، واحتمـل العبء الاكبر ، وخاض أشق المعارك ، ونسجل صفحات البطولة المشرفة القليلـــة التى سجلها العرب فى تلك الحرب .

« كانت معركة الفالوجا معركة مشهودة ، وهى قد اعطيت مكانا مشرفا فى التاريخ العسكرى المصرى ، ولهم كل الحق ، فقد حاربت القوات المحاصرة بشجاعة وصمود ، وثبتت فى موقف يدعو الى كل اليأس ، ورفضت بحث اى طلب فى التســليم ، وخرجت بأسلحتها » . وذلك باعتراف صهيونى متعصب .

واضاف ايضا : « لقد اثبت المصريون مقدرتهم فى الدفاع ، وتفوقوا فيه طوال الحرب » .

وقال ايجال الون : « كان المصريون هم اخطر ما واجهتـه اسرائيل وجيش اسرائيل » .

وخلال حصار الفالوجا تقدمت الاردن بمشروع اعده جلوب لفك حصار القوات المصرية ، ويقضى بأن تقوم القوات الأردنيـة والعراقية بهجوم يشغل الاسرائيليين فى الوقت الذى تقوم القوات المصرية بتدمير اسلحتها الثقيلة ومهماتها ، وتنسحب متسـللة على الاقدام وعبر طريق سرى فى الصحراء يعرفه ضابط بريطـانى واحد من ضـباط جلوب يقوم بارشاد القوات !

ورفضت القيادة المصرية المشروع ، وأرسلت الى الضباط والجنود المحاصرين لكي « يدافعوا حتى آخر جندي وآخر رصاصة كما يليق بجنود مصريين » .

وقالت القيادة المصرية : « ان مشروعا بعده جلوب لا بد أن يكون فخا ، ولا بد أن يكون الاسرائيليون على علم به ! »

ويقول كتاب صهيوني عن حرب عام ١٩٤٨ : « كانت القيادة المصرية على حق وكانت اسرائيل على علم بالخطة ، ولكن عن طريق آخر ، وكانت تنتظر القوات المصرية لابادتها » .

وكانت بريطانيا تريد تجريد مصر من أى فخر فى تلك الحرب ، وكانت الحكومة البريطانية هى المورد الرئيسى للأسلحة للجيوش العربية ، ولم تستطع هذه الجيوش أن تجد موردا آخر ذا قيمة ، وقد حاول الجيش السورى وحاول الجيش المصرى ان يشترى الاسلحة من غير السوق البريطانية ، ولكن فشلت كل المحاولات !

وفى المرحلة الأخيرة والحاسمة من الحرب ، ترك الجيش المصرى وحده لتلقى كل الضربات ، وبالقوة المركزة لاسرائيل وبكل الاسلحة والخبرة والقوات التى تدفقت وخاصة من الولايات المتحدة الامريكية وسكنت كل الجبهات العربية الاخرى ، وصمت آذانها عن الحاح القوات المصرية لمساندتها ، بل بدا واضحا ان القوات الهاشمية — الأردنية والعراقية — تتشفى مع بريطانيا فى أزمة الجيش المصرى !

ولم يملك الجيش سوى أن يرتد وهو يقاوم مقاومة باسلة اعترف بها الاسرائيليون مرة أخرى ..

وانتهت الحرب فى فلسطين ، وعادت القوات مهزومة هزيمة ساحقة ومنكرة .

دخل الجيش بلا استعداد ، وباسلحة قليلة وفاسدة وبقيادة عاجزة وبخطط مرتجلة . ومع حلفاء يتعدون سياسة العدو ، ولكن الجيش المصرى مع هذا لم يهلك ، بل على العكس رسبت الهزيمة مريرة وعميقة فى نفوس الضباط ، واستخلصت طليعتهم الواعية افضل دروسها . وكانت « المعركة الحقيقية فى القاهرة » . ان راس الفساد ومصدره الاول هناك ، ولا بد من القضاء عليه اولا .

وكما حدث فى حرب اخرى منذ زمن بعيد — عاد الجيش مهزوما ، وادرك الضباط ان سبب الهزيمة الاول هو الاستبداد والاستعمار معا وهو « الجهل المشئوم المنطوى على التعصب » .

وكان قد تالف قبل الحرب ببعض الوقت وبين الضباط الشبان تنظيم ولو من لقاءاتهم واستعراضهم لشئون الجيش ، ولمشاكل البلاد عامة .

وكان على رأس هذا التنظيم ضابط شاب .. كان بطلا من أبطال الحرب ، ومن أبطال الفولوجا ، وتمكن ، بشجاعته وفصاحته ، أن يصبح زعيم التنظيم الذى أطلق عليه « الضباط الاحرار » ، وبمجرد عودتهم بداوا العمل فورا : ان ينظموا صفوفهم ، ويضعوا خططهم وبرامجهم ، ويعيشوا كل الثورة التى كانت تعيشها البلاد ، وان يقوموا بدورهم فيها ..

وفى عام ١٩٥١ بدا الكفاح الشعبى المسلح ضد بريطانيا بعد الغاء المعاهدة .

واشترك الضباط الاحرار فى ذلك الكفاح : تطوع بعضهم فى الكتائب ، واستولى بعضهم على الاسلحة والذخائر من مخازن الجيش ، وزودوا بها المقاتلين ، ووضعوا الخطط لتنظيم العمل وتصعيده .

كانت المعركة غير متكافئة وغير منظمة ، ولكنها كانت تشتد وتتطور كل يوم ، وخافت السراى والاحتلال اشد الخوف . حتى لا تتحول الى ثورة شعبية مسلحة تكتسح كل شيء ..

واحرقت القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، وبينما كانت القاهرة تحترق كان كبار ضباط الجيش يتناولون الغداء على مائدة جلالة الملك احتفالا بميلاد ولى العهد .

وحينما استغاث وزير الداخلية بوزير الحربية وطالب بنزول الجيش ــ رد الوزير بانه يخشى ان ينضم الضـــباط الشبان والجنود الى الجماهير !

اصبح هناك جيشان : احدهما يتناول الغداء مع الملك ، والآخر مغلق فى ثكناته حتى لا ينضم للجماهير !

واحرقت القاهرة ، واقيلت الوزارة الوطنية تمهيدا للانتقام واستئصال كل اسباب الشغب ..

وذهب رسول من الضباط الاحرار الى الحكومة المقالة يعرض ان يقوم الحزب والجيش باعلان الثورة وخلع الملك ، وباستمرار الكفاح الى حرب تحرير ضد الاستعمار ، ولكن تخاذل « الباشوات الليبراليون » الذين كانوا يؤمنون بالملكية الدستورية والـكفاح فى اطار الشرعية القائمة .

وبدأت تصفية وحشية لكل القــــوى الوطنية فى صفوف
وبدات تصفية وحشية لكل القوى الوطنية ، على ان تبدا بعدها تصفية اشمل وادق فى الصفوف الأخطر وهى الجيش .

كان الجيش بعد لمهمة ومرحلة جديدة ، تحتم تطهيره تماما ، الجيش « جيش الملك » ودرع الملك ويجب ان يظل كذلك . ولم يكن الملك وحده هو الذى يريد الجيش كانت هناك قوى اخـــرى تتطلع للاعتماد عليه .



الجماهير

بدأ أعداد مصر مبكراً ، لعالم ما بعد الحرب .

اقيلت وزارة الوفد القائمة في ذلك الحين .. في ٨ من اكتوبر عام ١٩٤٤ غادر السفير البريطاني مصر لقضاء اجازة في جنوب افريقيا ، وارسل الملك خطاب الاقالة الى رئيس الوزراء بعد ان ترك له السفير الاذن !

وقال الخطاب : « لما كنت حريصا على أن تحكم بلادى وزارة ديمقراطية تعمل للوطن ، وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا ، وتسوي بين المصريين جميعا ، وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب — فقد رأينا ان نقيلكم من منصبكم .. » .

وتقبل رئيس الوزراء الاقالة شاكرا ، وكانت الاقالة الثالثة لحكومة وفدية تملك الاغلبية . ولكنه كان تقليدا ، ودورة حكم معروفة، أن يدعى الوفد للحكم في ظل أزمة حادة ، ويأتي بأغلبية ساحقة ، ويظل حتى يهدأ كل شيء ويبرد ، ثم يقال فجأة وبفظاظة باسم الدستور وحرص الملك على حقوق شعبه .*

واصبح تقليدا أيضا ان يتقبل الوفد اللطمة شاكرا ويتنحى لينتظر ازمة جديدة بعد حين تحتم مجيئه !

وقد جاءت الوزارة التى اقيلت مجيئا شاذا وفريدا فى تاريخ الوزارات الوفدية ..

حاصرت الدبابات والقوات البريطانية قصر عابدين ودخل السفير وقائد القوات البريطانية شاهرا مسدسه وطالبا من الملك ان يستدعى الوفد الى الحكم أو ان يتحمل كل النتائج !

ولأول مرة يطلب البريطانيون وبالقوة ان يتولى خصمهم التاريخى ـ الوفد ـ الحكم فى مصر !

كان الموقف فى الداخل قد تدهور الى آخر مدى ، وكان الموقف فى الخارج وعلى الحدود لا يختلف كثيرا بعد معارك الصحراء ، وكان لا بد من حكومة ، قوية شعبية تسيطر على الموقف وتهدىء الجماهير الساخطة وتحقق استقرارا وتكفل لبريطانيا مواجهة الازمة التى كانت تهدد مصيرها كله . وليس لبريطانيا ـ وفق القاعدة المشهورة ـ اعداء دائمون ولا اصدقاء دائمون ، ولكن لها مصالح دائمة . وقد حتمت المصالح فى ذلك الحين قيام حكم لا يمكن أن يحققه سوى الوفد وكان يجب أن يأتى .

وكان الوفد هو حزب الأغلبية الذى ما زالت تثق به الجماهير .

وكان الوفد هو الذى وقع معاهدة ١٩٣٦ ، ولهذا كان القدر من ينفذها ..

وكان الوفد معاديا لبريطانيا وللامبريالية ، ولكنه كان بنفس القدر معاديا للفاشية والنازية معاداة مبدأ وسياسة ، ولهذا اختارت بريطانيا الاعتماد عليه ..

وقد أثار حصار السراى وإملاء بريطانيا ارادتها مشاعر متلاطمة ومتناقضة وبعث أزمة ضمير حتى فى صفوف الوفد ، ولكن لم تتضاعف وتتفاقم ، لأن الملك كان المسئول الأول والأخير ، ولأن الموقف كان من الانهيار بحيث كان البديل هو حماية بريطانية مباشرة ..

وقد طالبت احزاب السراى والاحزاب الموالية بالاشتراك فى الحكم وبان تكون الوزارة ائتلافية ، ولكن الوفد رفض ، وكان منذ زمن قد استقر على رفض اى ائتلاف مع هذه الاحزاب ..

ومن تلك الساعة اصبح الوفد ، فى راى تلك الاحزاب خائنا ، فقد قبل الحكم على الحراب البريطانية ، عميلا لبريطانيا ومنفذا لسياسة الاستعمار .. وكانت تلك الاحزاب لا تاتى للحكم الا على تلك الحراب وعليها وحدها !

وقد حكم الوفد اطول فترة حكمها حتى ذلك الحين ، ووفر لبريطانيا خلال عامين حاسمين الجو المناسب لكسب الحرب فى الشرق الاوسط ، وظل الملك متربصا بالوزارة ، واراد بعد هدوء الموقف فى ابريل من نفس العام أن يتخلص منها ، وان يولى احد رجاله ورجال بريطانيا المخلصين — احمد حسنين رئيس ديوانه — « ومن اصدق واخلص اصدقائنا » ولكن ذهب حسنين يستاذن السفير البريطانى الذى استشار لندن التى ردت ببرقية مقتضبة « لا تغيير » ، ولم يتغير شىء .

وفى اكتوبر كان الموقف العسكرى فى الشرق الاوسط قد استقر وكان ميزان الحرب عامة قد مال فى كل الميادين ، وانتهت الضرورة ، وادى الوفد المهمة ، واصبح ذهابه ضروريا تماما كما كان مجيئه !

كانت بريطانيا لا تريد مواجهة عالم ما بعد الحرب فى مصر بحكومة تثقل فى المطالب وتثير الجماهير ، وتكون قيادة طبيعية للقوى الشعبية .. لم تكن تريد سنة ١٩١٩ اخرى ..

لقد تالف الوفد تلقائيا بالارادة الجماعية والوعى الجماعى للامة ، وكان منذ قيامه جبهة واسعة تضم كل المعادين للاستعمار من كل الفئات والطبقات ولكل الاسباب والمصالح المختلفة .

واصبحت سياسة بريطانيا فى مواجهته هى خلق الخلافات والصراعات ؛ لينقسم وينشق وليتحول الى احزاب عدة متصارعة وبذلك تتحول المعركة ضد بريطانيا الى معركة داخلية بين مختلف الاحزاب ، وتتحكم بريطانيا فى الجميع .. !

وقد كان الانشقاق الاول لكبار الاقطاعيين ابناء البيوتات ، الذين ازعجهم وافزعهم دخول الرعاع الى الثورة ، وكونوا حزب الاحرار الدستوريين .

وانشق بعدهم أفراد انضموا الى حزب الفتــه السراى ـ ليكون حزبها الخاص ـ وهو حزب الاتحاد . وانشق آخرون ـ بالارهاب والاغراء ـ لينضموا لحزب اقامه « صدقى باشا » باسم حزب الشعب ليزيف تجربة فريدة باسم الشعب والدستور ثم انشق السعديون ..

وفى النهاية انشــق حزب الكتلة ـ من ســكرتير الوفــد السابق وبعض اتباعه لأسباب فردية وشخصية .

ولم يكن لأى من هذه الاحزاب مبادىء او برامــج ثابتة او قواعــد تذكر بين الجماهير ، كانت مجــرد ادوات فى اللعبــة السياسية ومصيرها المحتوم هــو العمــل من اجــل السراى او الاحتلال فرادى او مجتمعين ! وفى النهاية راتِ بريطانيا جمعهم ليعملوا معا فى عالم ما بعد الحرب الخطر ..

وفى ٨ اكتوبر ذهب احد ســكرتيرى الملك الى رئيس الوزراء فى فندق « سيســل » بالاسكندرية وسلمه مظروفا ، فتحه وفوجىء بانه الاقالة ، ورد متشكرا . وانتهت اللعبة !

وتالفت الحكومة الجــديدة برياســة الســعديين وزعيمهم « احمـــد ماهر » ، وضــمت كل الاحزاب الاخرى : الاحــرار الدستوريين والكتلة والمستقلين ، وكانت جبهة وحشدا كونتهما السراى وبريطانيا لمواجهة الوفد ، ولقيادة مصر ما بعد الحرب ..

وكان السعديون انشقاقا من الوفد زلزل لبعض الوقت كيان الوفد ، وضم اقطابا من دعاماته الكبار ، واعلنوا أنهم الوفد وورثة سعد زغلول الحقيقيون ، واشتقوا من هذا اسمهم ..

وقد انشق السعديون بعد توقيع معاهدة ٣٦ ، ومنحوا بانضمامهم لتلك الجبهة قدرا من الاحترام .. كان لبعضهم ماض وطني قديم ، وكان من اقطابهم من بداوا متطرفين على رأس الجهاز الثورى للوفد ، وانتهوا واجهة تزيف الاحترام لحلف فقد كل مكانه عند الناس !

وكان السعديون ـ قد دعوا منذ بداية الحرب الى أن تشترك مصر اشتراكا كاملا فيها والى جوار الحليفة بريطانيا ، وبهذا فقط تضمن مصر استيفاء كل حقوقها على مائدة الصلح حيث تكون طرفا مباشرا ومتساويا .

ولم تجد الدعوة التى تحمس لها السعديون ، وطاف زعيمهم بالبلاد يدعو لها ـ أى صدى لدى الناس ، بل زادت من عزلتهم وانصراف الشعب عنهم .

وحينما تولى السعديون الحكم قرب نهاية الحرب وعلى رأس جبهة مؤتلفة سنحت لهم الفرصة لتحقيق امنيتهم ..

وكان مؤتمر سان فرانسيسكو على وشك الانعقاد ليبحث قيام المنظمة الدولية الجديدة التى ستفصل فى مشاكل العالم وتخلف عصبة الامم .

واشترط الحلفاء لكى تنضم اية دولة لعضوية المؤتمر ولعضوية المنظمة فيما بعد ان تعلن الحرب على المحور .

وكان الاعلان شكليا وضروريا ، ولكنه كان مع هذا يمس الشعور الوطنى المصرى الذى كان حارا ومريرا ضد بريطانيا ، ولأى تحالف معها ولو كان اسميا أو شكليا ..

واجتمع البرلمان فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ ، ليستمع الى بيان رئيس الوزراء احمد ماهر باعلان الحرب على دول المحور .

والقى احمد ماهر البيان فى مجلس النـواب ، ثم انتقـل ليلقيه فى مجلس الشيوخ ، وفى الردهة بين المجلسين فاجأته رصاصات اطلقها عليه محام شاب اودت بحياته ..

وسـقط سـياسى بدأ حيـاته ثائرا يلقى الرعب فى رجـال الامبراطورية ومات وهو يعلن الحرب صديقا وحليفا وفيا لبريطانيا. ومهما كان الفعل وعدم شرعيته فانه كان تعبيرا عن عمق ما يعتمل فى قلب مصر الشابة ، وكان انذارا بما لا يزال فى الطريق ..

وخلف احمـد ماهر فى الحكم الزعيم الآخـر للسـعديين « النقراشى » بنفس الحلف ونفس السياسة ، وانتهت الحـرب العالمية الثانية فى اوروبا فى مايو عام ١٩٤٥ ، وانتهت فى آسيا فى اغسطس من نفس العام ..

وبدات شعوب العالم تستعد بعد نهاية المحنة للعالم الجديد الافضل الذى بشرت به نداءات الحرب ودعاياتها .

واجتمع مجلس الوزراء المصرى فى سـبتمبر ، واصـدر بيانا ونداء الحليفة قال فيه :

« ان حقوق مصر الوطنية كما اجمع عليها راى الامة واعلنتها الحكومة هى جلاء القوات البريطانية وتحقيق مشيئة اهل وادى النيل فى وحدة مصر والسـودان ..

« والوقت الحاضر ، هو انسب الاوقات للعمل على تحقيق اهداف البلاد القومية ، واتخاذ الوسائل لمفاوضة الحليفـة على الاتفاق على هذه الاسس » مجرد المفاوضة لتعديل اسس التحالف والتعاون !!

وانتظرت الوزارة اربعـة اشهر طويلة لتتلقى الرد فى عـام ١٩٤٦ ، وجاء فيه : « ان المبادىء الاساسية التى قامت عليهـا

معاهـدة ١٩٣٦ سليمة فى جوهـرها ، وان سياسة الحـكومة البريطانية هى ان تدعم بروح الصراحة والود التعـاون الوثيـق الذى حققته مصر ومجموعة الامم البريطانية والامبراطورية خلال الحرب ، ولا بد ان يقوم هذا التعاون على اساس المشـاركة الحرة بين طرفين متساويين للدفاع عن المصالح المتبـادلة » .. وكان تجديدا فى الصيغ ، وهى صيغ تخصصت بريطانيا فى ابتكارها وتغييرها ..

وكانت الانتخابات قد جرت فى بريطانيا بعـد نهاية الحرب مباشرة ، وادت الى فوز العمال باغلبية ساحقة .

ولهذا جاء الرد صدمة .. فالعمال لايختلفون عن المحافظين الا فى الصيغ .. وبدا ان لا طريق سوى العمل المباشر .

وكان على الطلبـة أن يطلقوا الشرارة الاولى ،كان السـخط والقلق يسـودان الامة كلها ، ولكنهما كانا ينعكسان أكثر ما ينعكسان فى الطلبة ، نبض الامة وعقلها وقلبها الشـاب ..

وكانت الجامعة منذ الثلاثينات قد أصبحت مركز الاشعاع والمنارة المتاججة دائما ، ملتقى كل التيارات والاتجاهات ، وكل الطلائع الجديدة .. تنطلق منها الشرارة الاولى ..

وقد نشـأت الجامعة المصرية نشأة قومية وشعبية باكتتاب عام ساهمت فيه كل الطبقات ، الأميرات اللاتى تبرعن بالاف الافدنة والفلاحات اللاتى تبرعن بحليهن وباشوات وبكوات وأعيان تبرعوا بالارض والمال والافندية الصغار والعمـال الذين تبرعوا بقروشهم القليلة .

وقد قاوم الاحتلال مقاومة مستميتة انشاء الجامعة ، ووبخ العميد البريطانى اللورد كرومر المصريين لانهم يقيمون جامعة ، ولا يفتتحون كتاتيب هى كل ما يحتاجون اليه .. ولكن قام مشروع

الجامعة وفى رعاية سعد زغلول وزير المعارف يومئذ ، ومنه اكتسب المشروع روحه التى ظلت حية ..

وكانت الجامعة ردا على سياسة (دنلوب) والتعليم الاستعمارى الذى يجرد المدرسة من القومية ومن الشخصية الحضارية ، ويقطع صلتها بالاصول الروحية والثقافية للامة ، لكى تكون مجرد مصانع تخرج موظفين وكتبة دواوين ولاؤهم للاستعمار .

وقد اصبح هدف الجامعة تعليما مصريا عصريا وقوميا ، وخلق ثقافة قومية تكون استمرارا وتجديدا للتراث . وحققت الجامعة ما انتظرته منها الامة ، وفد اليها عدد من الاساتذة الاجانب الكبار ، واظهرت عددا من الاساتذة المصريين وتحولت الجامعة الى المنبر الأول والمحور الرئيسى للثقافة والثورة .

وفى العشرينات صمدت الجامعة للارهاب الفكرى والسياسى المسلط على اساتذتها ومناهجها ..

وفى الثلاثينات بدأ تفتح ونضج جيل جديد تقدم مظاهرات ١٩٣٥ التى انتهت بجبهة وطنية ، وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ . وخلال الحرب اضطربت الجامعة بكل ما حملته واثارته الحرب وتبلورت احلام وارادة جيل جديد صمم على أن يحقق دوره فى تاريخ بلاده وان يحسم الثورة التى لم تستكمل منذ ١٩١٩ ..

ولهذا انطلقت الشرارة من الجامعة فى أوائل ١٩٤٦ :

وكصدى لتطور الاحداث بدات الاجتماعات واللقاءات فى مختلف الكليات والمعاهد ، بل فى المدارس الثانوية والمتوسطة ، وبدات ظاهرة فريدة هى تكوين لجان للعمل السياسى .. تكونت تلقائيا ، تعبيرا عن الارادة الجماعية لتلك القوى الجديدة ، ثم اخذت تنتظم وتلتقى .

واخذت بعض هذه اللجان تجتمع فى كلية الطب ، ومن خلال الاجتماعات والمناقشات نبتت فكرة اقامة لجنة وطنية للطلبة

وتكوين قيادة لهم تحدد مطالبهم وتنظم نضالهم ، وتكونت هذه اللجنة باسم « اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة » ..

وبعد الرد البريطاني دعت اللجنة الى مؤتمر عام يعقد بجامعة القاهرة يوم ٩ من فبراير عام ١٩٤٦ بحرم الجامعة ، ويشترك فيه كل الطلبة من الجامعة والمعاهد والمدارس ، وانعقد المؤتمر ضخما حاشدا : تبودلت الخطب ، وأعلنت القرارات وتنص على رفض الدخول في اى مفاوضات مع بريطانيا وعلى الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، واتفاقية عام ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان ، وجلاء القوات البريطانية جلاء تاما وعاجلا عن البلاد ، وعرض القضية على الامم المتحدة .

ويعد اتخاذ القرارات قرر المؤتمر السير فى مظاهرة سلمية الى العاصمة لتقديم الطلبات للمسئولين ..

ووصلت المظاهرة الى الجيزة ، وكان عليها أن تعبر كوبرى عباس الى المدينة ، ولكن بينما كانت جموع المتظاهرين من الطلبة تتقدم فتح الكوبرى ، وتدخل البوليس وحدث اصطدام البوليس والطلبة عليه ، وفى اسفله وتساقط عشرات منهم فى الماء وجرح كثيرون ، وحوصر الذين نجوا من العبور حيث انهال عليهم البوليس ، بوحشية تجاوزت كل الحدود ، وتحولت المظاهرة السلمية الى معركة دامية ، وكان يقود المعركة احد ضباط البوليس المشهورين — سليم زكى عميل بريطانيا — تلميذ الحكمدار البريطانى رسل باشا ، وكان متفانيا فى خدمة سادته ، كون فرقة بوليس خاصة « فرقة الباشا » مهمتها الانتقام من الطلبة .. !

وصدمت وحشية البوليس ازاء طلبة الجامعة الرأى العام كله ، ولكن تجددت المظاهرات فى اليوم التالى ، واصطدمت المظاهرات والبوليس بالعنف نفسه ، بل امتدت المظاهرات الى انحاء البلاد المختلفة فى الاسكندرية والزقازيق والمنصورة ، وسقط القتلى فى المدن الثلاث ، وبدا أن البلاد كلها على اهبة انفجار شامل .

وكانت الحكومة قد أعدت احتفالا كبيرا مهيبا بعيد ميلاد جلالة الملك يبدأ بمهرجان فى الجامعة ـ يسلم فيه الملك شعلة يحملها عداءون يطوفون بالقاهرة ، وأقيمت الزينات والاستعدادات ، ولكن تسلل الطلبة قبل الاحتفال وحطموا الزينات والشعلة وصورة الملك الكبيرة ، واشعلوا فيها النار ! وهتفوا بسقوطه ، وكانت أول مرة يرتفع فيها هذا الهتاف !

وتم احتفال يخيم عليه الصمت ، وسارت الشعلة فى الشوارع أمام جماهير لاتبالى . وفى اليوم التالى ١٢ من فبراير استمرت المظاهرات فى الاسكندرية ودعا الطلبة الى عقد مؤتمر فى كلية العلوم ، وشاركهم جمع كبير من الناس ، وخرج المؤتمر من كلية العلوم ليلتقى هو والعمال ويعقد مؤتمر وطنى عام .

واصطدم البوليس كذلك والمؤتمر ليمنع التقاء الطلبة بالعمال وخلال الصدام استشهد طالب صغير حمل جثته المتظاهرون الى فناء الجامعة ..

وازاء هذه الاحداث المتوالية قامت مناقشة حادة فى البرلمان وانتهت باستقالة الوزارة ..

رات بريطانيا ورات السراى أن الموقف ينذر بأحداث اخطر ، وأن الموقف يتطلب رجلا اقوى ، وكان هنك رجل نموذجى لمثل هذه المواقف .. كانت الثورة على الاستعمار تجتاح آسيا ، وضد كل الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية والهولندية ، وأعلنت اندونيسيا فى ١٥ من أغسطس ١٩٤٥ الجمهورية والاستقلال .. وأعلنت فيتنام فى ٢ من سبتمبر عام ١٩٤٥ الجمهورية والاستقلال ، وكانت الهند درة التاج البريطانى وعصب الامبراطورية تموج وتضطرم بأحداث جسام تنذر بأخطر النتائج ..

وكان امتداد السنة اللهب الى مصر ـ مفتاح الشرق الاوسط وافريقيا ـ خطرا لابد أن تمنعه بريطانيا والسراى بأى ثمن ..

واستدعى الرجل الذى يستطيع فى راى بريطانيا ان يكبح جماح هذه القوى وان يقمعها تماما قبل ان تمتد ثورة آسيا أو ان تتكرر مرة أخرى قصة ١٩١٩ .

واستدعى للحكم اسماعيل صدقى باشا ، وكان صدقى باشا قد حكم من قبل ما يقرب من اربع سنوات ١٩٣٠ — ١٩٣٣ جرب فيها كل انواع البطش والعسف وتزييف الدستور والبرلمان .. اصدر دستورا والف حزبا سماه حزب الشعب ، وانتخب برلمانا ، وحكم حكما طويلا من عام ١٩٣٠ — ١٩٣٣ ، ولكن سقط فى النهاية أمام المقاومة والمقاطعة من الامة .

وقد بعث من جديد ، ولكن فى عالم لا يفهمه ، وازاء قوى لا يعرفها . وقد رسبت أحداث ٩ فبراير وما بعدها عميقة مريرة فى نفوس الطلبة ، وبدأ الوعى يتأكد فى الجامعة بأن الحاجة تدعو الى لجنة طلبة منتخبة ودقيقة التنظيم تواجه البطش ، وتواجه ايضا استجابة المد الشعبى الثورى الذى بدا انه اضخم وأقوى مما قدر وتصور أحد ..

واعلنت اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية عن تكوين لجنة الطلبة ، وانتخبت الكليات والمعاهد العليا والمدارس ممثليها ، وتكونت اللجنة الوطنية للطلبة ، وعقدت اول اجتماع لها بكلية الطب ..

وما كان يحدث بين الطلبة كان يحدث بشكل آخر فى فئة اخرى تشكل وتكمل قوى الطليعة ، هى العمال ، وبدات لجان مماثلة فى المصانع وخاصة فى شبرا الخيمة ، وقد ازداد العمال قوة خلال الحرب ، بنمو الصناعة ، وبصدور القوانين العمالية التى اصدرتها حكومة الوفد ، وبتفتح العمال على المبادىء والاتجاهات الاجتماعية والثورية التى حملتها الحرب ، وبسعى عناصر كثيرة مثقفة وواعية الى العمل بين العمال ..

وانتخبت المصانع لجانها ، وانتخبت لجان المصانع لجنة وطنية للعمال والتقت هــذه اللجنــة ولجنــة الطلبة ، وانتخبت « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » ، وكانت تعكس تحالف الطليعة من كل الاتجاهات ، ونواة قيــادة القــوى الجــديدة الزاحفــة المتحفزة للثورة ..

وفى ١٨ فبراير اتخــذت اللجنــة الوطنية للطلبة والعمال قرارا بالاضراب العام يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ وبعقد مؤتمر وطنى عام وتنظيم مظاهرة اكبر .

ومع فجر الخميس ٢١ فبراير كانت القاهرة تتجمع ، وانتشر منــــدوبو الطلبــة والعمـــــال فى كل مــكان لتنظيم الاضراب والمظاهرات ..

وتوقفت المواصلات وتجمع عمالها فى مخــازنهم بالجيــزة وشبرا والعباســية .. وتحركوا فى مظاهرات ضخمة ، وانضم اليها الشعب فى كل مكان ، وتدفق عمال شبرا الخيمة الى قلب القاهرة فى الساعات المبكرة مع شروق الشمس .

واغلقت جميع المصانع ابوابها ، واضرب عمالها ، وتوقفت المحال التجارية عن العمل ، واضربت جميع المدارس والكليات . ومن كل مكان تدفقت المظاهرات على ميدان الاوبرا حيث كانت الترتيبات قد اعدت لعقد المؤتمر الوطنى ، واجتمعت المظاهرات هناك اجتماعا حاشدا ، يسوده النظام التام ، والقى ممثلو الهيئات والتنظيمات المختلفة خطبهم ، واتخذ المؤتمر قــراراته بضرورة رفض المفاوضات وبالتمسك بالجلاء التام عن وادى النيل ، وبالغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ ، وعرض قضية مصر على مجلس الامن ..

وتحركت المظاهرات من الاوبرا الى ميدان قصر النيل .

وفى الميدان فى مواجهة الثكنات التى بدأ منهــا احتــلال القاهرة فى سبتمبر عام ١٨٨٢ خرجت فجاة ســيارات بريطانية

مسلحة ، وشقت بسرعة جنونية صفوف المتظاهرين وهى تطلق الرصاص ، وتساقط القتلى بالعشرات حولها ..

كان عملا تقليديا من اعمال المخابرات البريطانية .. ضربة فزع تثير الرعب وتفرق الجموع وتتركها تلعق جراحها لمدة طويلة .. وسقط ٢٣ قتيلا ، وجرح حوالى ثلاثمائة .. كان بينهم عدد من الصبيان الصغار ..

وصدم الحادث البلاد صدمة اكبر .. بل أثار الرأى العام العالمى الذى تجاوبت فى ارجائه اصداء الحادث .

وفى المساء أعلن صدقى باشا ، ضرورة « منع المظاهرات منعا باتا ، بعد أن اندس فى صفوفها الغوغاء والدهماء وقاموا بالشغب والتخريب». ولم يلتفت اليه أحد ، وامتدت المظاهرات الى الاسكندرية وعواصم المديريات تهتف بنفس الهتافات وتردد نفس المطالب .

وقرر مجلس النواب والشيوخ .. وقف جلستيهما يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٤٦ ، حدادا على ضحايا الحوادث ..

واجتمعت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وقررت أن تجعل يوم ٤ مارس عام ١٩٤٦ يوم اضراب عام للاحتجاج ولتخليد ذكرى الشهداء واستمرار الثورة .. ونفذ قرار الاضراب فى القاهرة منذ صباح يوم ٤ مارس عام ١٩٤٦ .

صمت كل شىء حدادا واحتفالا ، واغلقت المدارس ابوابها وتوقفت المتاجر والمحال العامة والمقاهى وكان الاضراب عاما وشاملا ..

ولكن الاسكندرية انفجرت : قامت مظاهرة ضخمة من العمال والطلبة ، تحركت من محرم بك الى قلب المدينة ، واصطدمت هى والبوليس الذى تصدى لتفريقها ، ولكنها عادت وتجمعت واستأنفت

سيرها ، وخلال سيرها أمام احد الفنادق التي كان يسكنها ضباط البحرية البريطانية رأى المتظاهرون العلم البريطاني ، وتسلل عامل صغير وصعد ، وانزل العلم البريطاني ومزقته الجموع وداسته بالاقــدام ..

وانطلق الرصاص على المتظاهرين ، ولكن المظاهرة استمرت في سيرها ، وانطلق الرصاص مرة أخرى من فندق آخر يقيم به جنود بريطانيون ، وتقدم المتظاهرون لمهاجمة الفندق ، ولكن منعهم البوليس ، وتصدى لهم ، واصرت المظاهرة على التقدم حتى مكان الاجتماع في ميدان سعد زغلول ، وكان هناك كشــك للبوليس الحربي البريطاني ، عليه لافتــة كبيرة بالانجليــزية فانتزعهــا المتظاهرون ، تحت وابل من الرصــاص انطلق عليهم ، وحطموا الكشك وقتلوا من فيه .

تحـولت الاسـكندرية الى ميــدان قتــال بين الجمــاهير والبوليس والقوات البريطانية من شرفات الفنادق والمنازل ..

واستشهد ٢٨ وجرح ٣٤٢ .. وقتــل من جنود الاحتــلال اثنان وجرح اربعة ، وسمى ٤ مارس يوم الشهداء ..

واعلن صدقي باشا منع المظاهرات بالقوة ، واعتذر للحكومة البريطانية عن احداث فبراير ومارس وبدأ بينهما البحث عن طريق آخر : ان القوة لا تجدى ، كانت قوى اكبر من أن تقهر ..

كان ميلاد وتعميد جيل جديد من اجيال مصر ، ورث الثورة وانتهت اليه قيادتها ، ولا بد أن يقوم ليؤدى دوره ، للى يكملها ويحسم مسارها .. كان جيلا قد نشأ بين الحربين في صراعات ومتناقضات تلك الفترة الاليمــة ، وعــاش انحسار ثورة ١٩١٩ ، وتحولها الى صراع سياسى ممل ومبتذل بين الاحزاب ، ثم بينها وبين بريطانيا ، الى أن صار في نهايته صفقة ثم صفقات ومناورات ..

وعاش ذلك الجيل ايضا ازمة اخرى بنفس الوطأة والشدة هي الأزمة الاقتصادية الطاحنة .. كانت أزمة الرأسمالية والامبريالية فى الثلاثينات ، وقد بدأت فى نيويورك ، ثم امتدت حتى آخر قرية مصرية تزرع القطن وتعيش عليه وطحنتها ، ولم تنته الأزمة الا بقيام الحرب !

وخلال الحرب راى الجيل بلاده تتحول باسم معاهدة « الشرف » والتحالف الى قاعدة عسكرية يسخر فيها كل شيء ويستباح كل شيء بلا شرف من اجل الدفاع عن الامبراطورية .. وأن تنتصر بريطانيا .. !!

ولكنه كان ايضا الجيل الذى تعلم تحت قبة جامعة وطنية ، وربما عرف من تاريخ بلاده ومن واقعها ما لم يعرفه جيل قبله .

وكان ايضا جيلا تفتح على العالم الذى اصبح قريبا ورهيبا بعد الأزمة وانفجار الصراع فى اكبر حرب فى التاريخ .. راى الجيل هتلر ، واعلان تفوق الجنس الآرى وعبادته ، واعلان الاشتراكية الوطنية الجرمانية ، التى ستقضى على الرأسمالية « البلوتوقراطية » وعلى البلشفية الآسيوية معا .

وراى موسوليني ودعوى اعادة الامبراطورية الرومانية « المقدسة » والبحر الأبيض : بحرنا ، وقيام الدولة النقابية الفاشية من العمال والرأسماليين معا ..

وراى روسيا الجديدة وكل القصص عن البلشفية التى تريد ان تدك العالم وتقلبه أو الاشتراكية التى يبدأ منها تاريخ العالم وشبابه .

وراى الجيل ايضا اليابان تعلن « آسيا للآسيويين » وقيام منطقة الرخاء المشترك لشعوب آسيا ، كمجرد شعار لامبراطورية شمس مشرقة لا تغيب عنها الشمس ايضا !!

وقد بدأت أزمة العالم فى ذلك الحين فى الثلاثينات حين اكتسحت اليابان منشوريا ، واكتسحت ايطاليا الحبشة، ثم وقفت عصبة الأمم عاجزة. وحين قامت فى اسبانيا جمهورية ديمقراطية يسارية بانتخابات حرة ، سارعت أوربا الفاشسية — ايطاليا والمانيا — للقضاء عليها وسارعت أوربا الاشتراكية الديمقراطية لتأييدها .. ولكن سقطت اسبانيا ايضا ، وعجزت عصبة الامم ووصلت الازمة ذروتها .. الى الحرب !

وخلال الحرب قرأ الجيل الجديد ، واستمع خطب قادة العالم من الجانبين .. تشرشل وروزفلت وستالين ، ثم هتلر وموسولينى وتوجو .. وغمرت نشرات الدعاية — سواء دعاية الحلفاء او دعاية المحرر « السرية » — القاهرة .

كانت الاصوات تتلاحق فى الداخل والخارج .. وتقلب كل شىء وتغيره .

لهذا كان جيلا يغلى ويضطرم ، واضناه البحث عن طريق جديد حاسم ولا بد أن يجده .

كان اقوى من أن يقهره أو يقمعه صدقى باشا .

ولم يعد هناك مناص للسلطة من أسلوب آخر .

فقررت المفاوضات ..

نقل السفير البريطانى فى القاهرة « مايلز لامبسون » — وكان « كرومر آخر » ومن انصار سياسة العصا الغليظة ، وكان بطل حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، وظل طول مدة عمله حاكم مصر الحقيقى . ثم تغير واستبدل به سفير آخر ، كان من أنصار سياسة المهادنة تماما كما استبدل بكرومر ذات يوم « الدون جورست » ليستبدل بسياسة الشقاق سياسة « الوفاق » ، وما لا تحققه بريطانيا بالقوة تحققه عادة بالمساومة .. وقد بنيت

الامبراطورية بالاسطول تماما كما بنيت بالمساومة .. وما يمكن الاحتفاظ به بالقوة يمكن الاحتفاظ به ببعض التنازلات ، التنازل عما ليس جوهريا للاحتفاظ بما هو جوهرى وأساسى .

وأعلن تأليف وفد المفاوضات المصرى فى ٧ من مارس عام ١٩٤٦ .. وتكون من جبهة عريضة ضمت كل أقطاب « الحلف » والمستقلين ..

ورفض الوفد الاشتراك فى هذا الوفـد ، وبحق ، اذ لم يعترف بشرعية الحكم القائم .

ورفض الحزب الوطنى الذى كان ما زال يرفع شعار « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ..

وتعين الوفد البريطانى برياسة اللورد ستانسجيت أحـد لوردات العمال ، وكان مشهورا بعطفه على القضية العربية ، وضم الوفد السفير البريطانى وقادة الاسلحة البريطانية فى الشرق الاوسط .

وبدأت المفاوضات فى منتصف ابريل ، بـدأت مغلقة بين صـدقى باشا رئيس الوفد ورئيس الحـكومة ، وبين السـفير البريطانى ورئيس وفد المفاوضات ، ثم استؤنفت بين الوفدين .

وعقدت الجلسة الأولى فى ٩ من مايو عام ١٩٤٦ .

وبدا واضحا ان الوفد البريطانى يريد استمرار معاهدة ٣٦ فى شكل آخر .. قاعدة عسكرية كبيرة فى القناة فى ظل دفاع مشترك ، يضع مصر جزءا من نظام الدفاع الغربى ومن الحلف الغربى .

وفى ٢٢ من مايو بدا ان لاتقارب بين وجهات النظر ، وصدر بلاغ مشترك بأن تبادل الآراء بين الوفدين اظهر ان هنـاك بعض المسائل رأى الوفد البريطانى ضرورة الرجوع فيها الى لندن وذلك

يتطلب بعض الوقت • وبعد شهرين استؤنفت المفاوضات ، فى يوليه عام ١٩٤٦ فى الاسكندرية .

وقد راى صدقى باشا لاخماد الرأى العام الذى كان يتابع المفاوضات ويهاجمها أن يقوم بحملة بطش واعتقال شاملة اعتقل فيها اكبر عدد ، اعتقل حتى ذلك الحين ، من الكتاب والمفكرين ، وأغلق كل الصحف ودور النشر الجديدة التى كانت تحمل الافكار الراديكالية الجديدة ، وتعبر بصفة خاصة عن الجيل الجديد .. عن العالم الجديد ، كان عربون صداقته لبريطانيا .

ورد الانجليز .. بالجلاء عن القلعة .. ورفع جلالة الملك العلم المصرى على القلعة فى احتفال مهيب ! ولكن استمرت المفاوضات طول فصل الصيف حتى نهاية سبتمبر ، ثم اتضح انه من المتعذر التسليم ولو بحد أدنى من المطالب يقنع الرأى العام .. المصرى .. وتعثرت المفاوضات ثم توقفت .

ورفض صدقى — الجبار — أن يسلم بالعجز وقرر ان يسافر بنفسه الى لندن ومعه وزير خارجيته ، السعدى ، ابراهيم عبد الهادى ، ليفاوض بيفن مباشرة .

وجاءت الأخبار فى ضجة اكبر عن توصلهما الى اتفاق وتوقيع مشروع معاهدة فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٤٦ ، وعاد صدقى باشا مزهوا مفاخرا بالنصر الذى حققه فى لندن !

وعرض مشروع الاتفاق على وفد المفاوضات الرسمى ، ولكن فوجىء برفض سبعة منهم للمشروع ونشرهم بيانا بهذا ، وعدم تحمس أكثر الباقين ..

وحل صدقى باشا وفد المفاوضات ، ولكن قضى اتى رئيس وزراء بريطانيا على المشروع حينما أدلى بتفسير ينفى تفسير صدقى باشا للاتفاق وخاصة فيما يتعلق بالسودان .

ووجد صدقى باشا ان بريطانيا ليست حريصة عليه .. كانت صلاته بالراسمالية اليهودية معروفة .. وكان كزعيم اتحاد الصناعات بدأ يتطلع الى امريكا .. واستقال فى ديسمبر عام ١٩٤٦ ، لينتهى تماما من السياسة المصرية ، لم يستطع ان يقمع القوى الجديدة ولم يستطع أن يضللها ولم تسنده بريطانيا ..

ودارت الحلقة المفرغة وعاد النقراشى باشا الى الحكم ، واستؤنفت المفاوضات مرة اخرى بين النقراشى باشا والسفير البريطانى ، ولكن ثبت اصرار بريطانيا على موقفها ، فتقرر قطع المفاوضات نهائيا فى ٢٥ من يناير ١٩٤٧ بعد ان استغرقت مايقرب من العام ..

وقررت مصر طرح القضية على مجلس الأمن لتقلها الى منظمة الأمم المتحدة • أرسلت مصر عريضة الدعوى الى مجلس الأمن ..

« جناب السكرتير العام :

« تحتل القوات البريطانية الاقاليم المصرية على الرغم من ارادة الشعب الجماعية وان وجود قوات اجنبية فى اراضى دولة من اعضاء الأمم المتحدة فى زمن السلم بغير رضائها رضاء حرا يعتبر امتهانا لكرامتها وحائلا يحول دون تقدمها الطبيعى ، كما انه خرق للمبدأ الاساسى ، مبدأ السيادة فى المساواة ، وهو بذلك يناقض ميثاق الأمم المتحدة فى نصه وروحه » .

وذهب النقراشى على رأس وفد كبير الى نيويورك ، « المساومة » ، ولكى تسبق بريطانيا عرض القضية أمام الرى واستماتت الحكومة فى شرح القضية وعرضها.. وتطبيقا لسياسة العام العالى قررت الجلاء عن القاهرة والاسكندرية !

وفى ٣١ من مارس أقيم احتفال مهيب شهده جلالة الملك المعظم ، ورفع بيديه « الكريمتين » العلم المصرى على ثكنات قصر

النيل ، حيث رفع عمه بيديه « الكريمتين » العلم البريطاني سنة ١٨٨٢ ، ولكن في نيويورك حرصت بريطانيا على أن تجعل عرض القضية فرصة لتهلهل وتشوه صورة مصر وكل تاريخ مصر ، فصبت كل حقدها ، واهانت الشعب المصري وتاريخه وكفاحه كله

وانتهى عرض القضية في سبتمبر عام ١٩٤٧ ، وتوالت الاقتراعات ، ولكن لم ينته الاقتراع الى شيء ، وعاد النقراشي باشا كما ذهب ! .

لم يكن ممكنا الحصول على نصر في الامم المتحدة او الحصول على قرار بضرورة الجلاء عن مصر في الامم المتحدة . كانت المنظمة قد تحولت بالفعل الى اداة للحرب الباردة ، تسيطر عليها الولايات المتحدة والحلف الغربي ..

وكان يمكن ان يصدر قرار بضرورة الجلاء عن سوزية ولبنان لانه ضد فرنسا ، او بالجلاء عن ايران لانه ضد روسيا ، ولكن الجلاء عن مصر ـ كان مختلفا ..

كان النقراشي رئيس وفد مصر شخصية محلية ، ومحدودة الافق ، ولم يكن لديه من الجاذبيةولا من القدرة ما يمكنه من ان يترك اثرا على مجمع او منبر عالمي ، وكان لا يمثل حكومة شرعية شعبية تستند الى قوة وطنية حقيقية ولكن تحالف احزاب اقلية . كانوا يريدون باي حال أن يصلوا الىَ اتفاق مع بريطانيا ..

وكان البريطانيون يعرفون كل الحقائق ، وكان عرض القضية على مجلس الامن فرصة بالنسبة لهم للاستمرار في المماطلة وكسب الوقت لتشتيت وتبريد القوى الثائرة والجامحة في مصر ..

وكان فرصة للتشهير بمصر وتشويه صورتها وتاريخها وكفاحها على منبر عالمي ، وكان فرصة ايضا ليثبتوا للمصريين ان العالم لا يستطيع شيئا لهم ، وان الحل الوحيد مع بريطانيا وما تقدمه او تتنازل عنه ، وليس لهم مخرج آخر ..

وعاد النقراشى باشا صفر اليدين ..
واشتدت الأزمة السياسية فى مصر ..
واشتدت الأزمة الاجتماعية أيضا ..

اضرب ضباط البوليس ، وكان حدثا غريبا يحدث لأول مرة أن يضرب جهاز القمع الرئيسى ويقف ضد الحكومة .

واضرب الممرضون فى المستشفيات اضرابا كبيرا أثار الرأى العام بما اقترن به من بطش وارهاب .

ولكن ما لبثت المشكلة الفلسطينية أن استغرقت الجميع : كانت مشكلة بين الفلسطينيين وبين اليهود الصهيونيين ، وكانت مشكلة بين القومية العربية ، وبين الحركة الصهيونية العالمية ..

وكانت مشكلة بين البيوت العربية الحاكمة وبينها وبين الشعوب العربية . ولكنها كانت ايضا وفى وجه من أهم أوجهها صراعا بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول الشرق الاوسط ، اشترت الولايات المتحدة ولاء الحركة الصهيونية فى مؤتمر بلتيمور ، ووعدت الولايات المتحدة بتحويل الوطن القومى الذى كانت تطالب به فى فلسطين الى دولة كاملة ..

وبمجرد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ العمل وبدأ ترومان يطلب حاسم هو ادخال ١٠٠ الف مهاجر صهيونى الى فلسطين .. وتفجرت المشكلة .. وبدأت الحركة الصهيونية بدورها مهمتها ، وشنت معركة حامية لتصفية النفوذ البريطانى من فلسطين تمهيدا لاقامة اسرائيل وتغيير الولاء .

وردت بريطانيا ردا عنيفا .. يؤكد استمرارها وتشبثها بالشرق الاوسط ، وان تكون الدولة الأولى فيه . ولكن ما لبثت بريطانيا ان ادركت ان تصميم الولايات المتحدة اقوى من ان تقف

ضده ، وأن حاجة بريطانيا نفسها الى الولايات المتحدة فى اعادة بناء ما خلفته الحرب يجعلها اضعف من ان تقف ازاءها ..

ولهذا حولت القضية الى الامم المتحدة ــ وهناك فرضت الولايات المتحدة قرار التقسيم وأن توزع فلسطين بين الصهيونيين وبين العرب ..

ومن ذلك الحين أصبح هدف السياسة البريطانية ان تخلق دولة عربية متكافئة وموالية ازاء اسرائيل والنفوذ الامريكى ..

وقامت السياسة البريطانية على دفع الملك عبد الله لحرب محلية محدودة .. بقيادته تشترك فيها الجيوش العربية والجيش الاردنى والعراقى اساسا . وتكون استعراض قوة للقدرة البريطانية ..

وكانت بريطانيا تريد توازن قوى فى الشرق الأوسط تمسك بكل خيوطه وتستأثر فيه بالوجود الاول . وكانت حكومة العمال الاشتراكية برياسة اتلى ووزير خارجيته بيفين ترى فى الملك عبد الله رجل بريطانيا : تماما كما كان يراه ايدن والمحافظون ، وكان العمال معروفين بتأييدهم للصهيونية ، وكانت صلاتهم بالمابای وزعماء المابای وثيقة ، وهم اعضاء معا فى الاشتراكية الدولية الديمقراطية وكان معظم الوزراء البريطانيين انصارا للصهيونية ، ولكن الامبراطورية تأتى أولا ، وخاصة فى عهد العمال ، وبهذا أصبح على الهاشميين فى الاردن والعراق ، واصبح على الجيش الاردنى الذى يسيطر عليه جلوب والجيش العراقى الذى يسيطر عليه عبد الاله ونورى السعيد ــ أن يضموا الجزء العربى الباقى من فلسطين الى الاردن فى مظاهرة عسكرية عربية بريطانية باسم تحرير فلسطين !

وخيمت الهزيمة على الوطن العربى كله ، والقت بغلالة كثيفة من اليأس والسواد ، اذ لم ينهزم العرب فقط ، ولكن انتعلت

قطعة من وطنهم ، واقيمت عليها دولة جديدة ، استجلب لها من اركان الارض شعب آخر يحمل حقدا عارما على العرب لا ينتهي ، وطرد الشعب الأصلي في سلسلة من المذابح والفواجع وتحول الى لاجئين مشردين بلا مستقبل ولا أمل لزمن طويل ..

وحقق الاستعمار الأمريكي الجديد ـ اهدافه ـ باقامة دولة لحسابه .. ستكون اساسا لنفوذه وتوسعه السياسي والاقتصادي والاستراتيجي ..

وحقق الاستعمار القديم ايضا اهدافه :

هزمت القوى الوطنية والثورية هزيمة هزت ثقتهـــا في نفسها ، وثقتها في المستقبل . وكان رد الفعل في مصر حــادا وعنيفا ، اجتاحت مصر موجة ارهاب عاتية . والارهاب والاغتيال الفردي لا يحرر الامم ، ولا يخلع الاستعمار او الاستبداد ، ولكنه يكون احيانا رد فعل محتوما وتعبيرا عن التحدي ازاء قوى غاشمة وغير متكافئة ..

وقد بدأ هذا الارهاب خـلال الحرب العالمية الثانية نفسها ردا على جرائم القوات البريطانية التي اعتدت على كل الحرمات .

واستمرت الموجة بعد الحرب في اتجاهين : احدهما ارهاب يمارسه شبان لم تستقطبهم التنظيمات والأحزاب السياسية سـواء الاحزاب القديمة التقليدية او الاحزاب الجديدة العقائدية ، وكانوا فاقدي الثقة بالاثنين وبأي قيادة قائمة ، ومعتقدين أنه لا بد من العنف المتواصل لزلزلة قوائم نظام يقـوم اساسا على الارهاب والعنف .. لم يكن هناك برنامج او خطة سـوى اسقـاط النظام القائم ، وبذلك يزول الكابوس عن صدر الشعب وتظهر قوى تتولى التحرير . وقد بدأ هذا الارهاب السياسي بمقتـل احمـــد ماهر رئيس الوزراء ثم بمقتل امين عثمان وزير المالية الوفدي وكان يلح كثيرا في تأكيد حتمية العـلاقة بين مصر وبريطانيا غير مقـدر لحساسية الشعور الوطني ..

ويتوالى الارهاب بمحاولة للقضاء على النحاس باشا زعيم الوفد ثم بسلسلة لم تنقطع من جرائم الاغتيالات ضد القوات البريطانية والسفارة البريطانية ، ثم جرائم بلا هدف كوضع قنبلة في دار سينما قتلت ستة من الرواد المصريين بلا سبب ! وحينما يبدأ الارهاب الأعمى فلا بد أن يعود احيانا الى عمليات بشعه عمياء ..

ولكن كان هناك فرع آخر من الارهاب بلغ ذروته بعد الحرب الفلسطينية ، وهو ارهاب منظم تقف وراءه هيئة سياسية ذات مبادىء وبرامج هم الاخوان المسلمون ..

وبعد قيام باكستان ، شجعت السياسة البريطانية حركة الوحدة الاسلامية وان تكون الدولة الحديثة أساس « اسلامستان » .

وكان الرأى ان الوحدة الاسلامية حركة ضد القومية .. وهى ضد الشيوعية الملحدة ، وضد الاتحاد السوفيتى وضد مسلمى آسيا الوسطى ، وهناك ست جمهوريات اسلامية فى آسيا ، وايضا ضد الاشتراكية التى وصفت بانها الملحدة ..

وازدهرت فدائيان اسلام فى ايران ، وازدهرت حركة الاخوان المسلمين فى مصر ، وامتدت للبلاد العربية . وكان الاخوان المسلمون يتكونون من قواعد بريئة يدفعها ايمانها او تطلعها الى الماضى ومجد الاسلام والحضارة والامبراطورية الاسلامية ، ومن قيادات كبيرة مريبة تخبطت وتعثرت فى العمل السياسى من التحالف مع صدقى باشا والسراى والعمل ضد الوفد والتنظيمات التقدمية والاشتراكية حتى الارهاب العام ..

وبعد حرب فلسطين ــ وجد الاخوان الجو صالحا ازاء القلق واليأس السائد لمحاولة الوصول الى السلطة ، ونشبت حرب على السطح بين الحكومة وبين الاخوان بدأت باغتيال رئيس

الوزراء النقراشي ، ثم امتدت باغتيال زعيم الاخوان ، ثم اتسعت الحلقة الى مطاردة عامة والى ارهاب متبادل .

وكان الشعب باغلبيته بعيدا عن هذه المعركة التى بدات بين قوتين على السطح .. لم يكن الشعب باغلبيته مع أي من القوتين او وراء احداهما ، بل على العكس كانت كراهيته للحكومة لا يفوقها سوى قلقه وفزعه من ارهاب الاخوان .

ولهذا وصلت المعركة الى طريق مسدود ، ووصلت البلاد كلها الى طريق مسدود ! فنشبت الأزمة التى تحتم مرة اخرى مجيء الوفد ..

وفى كل مرة كانت تجرى فيها الانتخابات حرة حقيقية كان الوفد يعود باغلبية ساحقة ، ومهما طالت غيبته او جرب ضده من وسائل ونظم ، ومهما اعلن عن انصراف الناس عنه ونهايته - كان شبه قانون للحياة السياسية فى مصر - ان يعود ، وقامت حكومة محايدة لاجراء انتخابات ..

وعاد الوفد باغلبية جارفة كاسحة ، ولم يصدقها حتى قادته ، وبعد خمس سنوات من النفى ، وبعد حملات لم تنقطع من التشهير تولتها دار صحفية قامت لهدف رئيسى هو هدم الوفد .. عاد الوفد اقوى من اى يوم كان ..

ولكن جاء الوفد متغيرا هذه المرة : استخلص بعض الدروس ، وقرر أن يقاوم بسياسة استعماله واستخدامه ثم القذف به بعدئذ كقشرة البرتقالة !

لن يكون هذه المرة مخلب قط ، أو صمام أمن ، ولن يبدد سخطا يشتد او ثورة تتجمع ثم يذهب ، لابد أن يبقى وأن يحكم ، وأن يحسم ، وكان هناك تياران يمثلان اسلوبين فى طريقة الحكم ووسيلة البقاء ..

كانت القوى التقليدية والكبيرة ترى من الحكمة مهادنة السراى ومهادنة القوى السياسية الأخرى ، لتتحقق وحدة وطنية تمكن من مواجهة الانجليز . كانت هذه المواجهة فى رايها تعنى تحقيق وحدة وطنية تشبه من بعض الوجوه ما تحقق سنة ١٩٣٥ وادى الى معاهدة ١٩٣٦ .. أى تسوية مع الانجليز .

وكانت هذه القوى الوطنية قد بدات تشعر بالقلق والخوف من القوى ومن الشعارات التى بدات تنمو — وتشاغب — فى داخل الوفد وخارجه والتى تثير الراسماليين والاقطاعيين عامة ..

وكانت هناك قوى جديدة فى الوفد من القواعد الشعبية التى نما وعيها باطراد خلال الحرب ، ومن القيادات الشابة الفتية ، وكانت تدعو الى اسلوب آخر ، وتريد تجديد حيوية وثورية الوفد ليقوم بدوره كحزب الثورة الوطنية والاجتماعية فى الفترة الحرجة الحاسمة .. كان رايهم ان الشعب جاء بالوفد وبهذا التحدى ليواجه الملك والاحتلال بمواقف وحلول حاسمة ، وبان يتحالف هو وكل القوى الوطنية والثورية .. ولا بد ان يكون الوفد عند حسن ظن الجماهير .

وقد اشتد الصراع حادا واحيانا علنيا داخل الوفد بين التقليديين والراديكاليين .. وادى فى النهاية الى أن التحم الوفد والفيض الشعبى الثورى ولم يستطع الا ان يتقدمه ويقوده !

وكانت فترات حكم الوفد هى عادة فترات التفتح والممارسة الديمقراطية والسياسية الوحيدة ، ولكنها فى تلك الفترة وفى ظل الوضع والظروف يومئذ اصبحت فيضانا حارا ..

تدفقت كل الآراء وطرحت كل الحلول ، ورفعت كل الشعارات ، ودار صراع وحوار على كل المنابر وبين كل المذاهب والايدلوجيات الديمقراطية والقومية والماركسية والاشتراكية والاسلامية .. وضد كل انواع الامبريالية القديمة البريطانية

والحـديدة .. والأمريكية .. وسرت روح جـديدة عارمة بين الجماهير .

وقد بدا الوفد حكمه بمباحثات لاستئناف المفاوضة ، ثم فى محاولات المفاوضة ، ولكنه ادرك بعد قليل استحالة التقريب بين ما يطلبه الشعب ، وما يتنـازل عنه البريطانيون .. كان الشرق الاوسط قد أصبح بالنسبة لبريطانيا مسأله حيـاة أو موت .. وكان لا بد ان تظل قاعدة السويس قائمة ، وترتفع عليهـــا الراية البريطانية رمزا لان بريطانيا ما زالت هناك وتسود .. !

وقد بدات مفاوضات الوفد مع حكومة العمال القائمة .

ولكن سقطت حكومة العمال بعـد مجيئها بقليـل ، ولقيت المصير الذى تستحقه حكومة خانت الاشتراكية . وتباحث الوفد والمحافظون ، وكانت مفاوضة مستحيلة بالطبع .

ولهذا قرر الوفد أن يحسم الأمر ، واعلن قراراته التاريخية بالغاء معاهدة ١٩٣٦ والغـاء اتفاقية السودان ١٨٩٩ ، ثم أعلن قرار؛ اهم كان اخطر ما أعلن وهو ان الطريق الوحيد أمام الشعب أن ننتزع حقـوقه بنفسـه وبكفاحه ، وقـد كانت هـذه مطالب الجماهير منذ نهاية الحرب ومنذ مظاهرات ١٩٤٦ ، ولم تستطع كل المحاولات أن تثنيها عنها ..

وفى النهاية اعترف بها الوفد وانضم اليها .. !

واثار الغـاء المعـاهدة هزة كبيرة فى الحلف الاستعمارى ، وتدخلت الولايات المتحدة الامريكية تدخـلا سـافرا ولاول مرة ، وقادت مظاهرة سياسية من الدول الكبرى الثلاث أمريكا وبريطانيا وفرنســا ومعها تركيا ، وطالبوا بانضمام مصر الى حلف جـديد يسمى حلف الشرق الاوسط ، وتكون مصر قاعدته ، ويكون حلا « جماعيا » للمشكلة .. ولكن رفض المشروع كاستبدال للاستعمار « الفردى » باستعمار جماعى .

وبدات معركة الشعب والجماهير ..

وبدات تتكون الكتائب ، وتتوزع للمقاومة ، وبدات محدودة ومتناثرة ، ولكن اخذت تنتظم وتتعاظم كل يوم ، اقبلت عليها كل فئات وطبقات الشعب ، وبدات مجموعات وشخصيات من الجيش ومن البوليس تتعاطف ثم تنضم اليها .. كل العلامات والنذر الاولى لتحول المقاومة الى حركة عامة وحرب تحرير .

وقد كان الخوف من حرب تحرير على النمط الآسيوى يسيطر على بريطانيا منذ مظاهرات ١٩٤٦ ، وتريد دفعه باى ثمن ..

ولم يكن الوفد يستطيع بصراعاته الداخلية ، وبتردد القوى التقليدية ، البورجوازية فيه ، ثم باعتماده وتعوده لزمن طويل على العمل السياسى الدستورى وحده ــ لم يكن ليستطيع ان يتحول الى حزب للثورة ، وان يقود ثورة وحرب تحرير شعبية ضد بريطانيا والحلف الغربى ..

وبعد معركة بين جنود البوليس العزل فى الاسماعيلية والدبابات البريطانية رفض الجنود الاستسلام ، وحصدتهم الدبابات والمدافع ، فانفجر الشعب واصبحت الثورة حقيقة فى الشوارع ورات بريطانيا انه لا بد من عمل كبير .. لا بد من حدث يوقف هذا المد .. مهما يكن الثمن .. لقد عاش البريطانيون حتى الحرب العالمية الاولى فى خوف من شبح الثورة العرابية ، ومنذ ١٩١٩ عاشوا فى خوف من شبح تلك الثورة مرة اخرى ..

ولكن اليوم يهددهم شىء جديد اخطر لم يحدث .. الشعب والبوليس والجيش معا فى الطريق لحمل السلاح لقتال الانجليز ..

لا بد من حدث هائل مروع يوقف هذا السيل ..

وشب الحريق الغامض المروع الذى أحرق العاصمة أجمل وائمن المدن ، وكان حريقا لا يدانيه سوى حريق الاسكندرية الذى بدا به الاحتلال سنة ١٨٨٢ .

« اضرم حريقــا كبيرا .. يلتهم أثمن وأغلى ما لديهم .. حريقا يخلع قلوبهم .. وسوف يظلون بعده لزمن طويل فى هم وبأس لا ينتهى ولا يستطيعون معه شيئا » .

وانفيل الوفد ، لقد جاء ليهـدىء الأمور وليبـدد البخار ؛ ولكنه اشعل الثورة ، ولذا لا بد ان يذهب ، هـذه المرة لا بد ان يذهب ولا يعـود ، لا بد ان ينتهى من تاريخ مصر .. لم بعد له مبرر ..

واستقر الراى على حكم قوى من نوع جديد .. لقد فشلت كل انواع الحكم السياسى .

فشل حلف احزاب الاقلية وقاد حكم حـزب الأغلبية الى الثورة .. لا بد من حكم قوى يعتمد على قاعدة أقوى .. حـكم عسكرى ..

ولكى يقوم هذا الحكم لا بد اولا من تصفية القـوى الوطنية السياسية ، ولا بد من تصفية اشد القـوى الوطنية فى الجيش .. لا بد من تطهير الجيش لكى يصبح اداة حكم قوى ..

وكان هناك وافد جديد وسيادة جديدة فى المنطقة تريد هذا الحـكم .

الوطن

كانت القضية المصرية عام ١٩٥٢ تاريخا طويلا معقدا .. احتلت بريطانيا مصر احتلالا كاملا سنة ١٨٨٢ ، وتم هذا بعد مناورات ومؤامرات ومحاولات لم تنقطع لاكثر من ثمانين عاما.. منذ معركة « ابو قير » البحرية .

وقد قال نابليون : انه سار بالحملة الى مصر للقضاء على بريطانيا فى الشرق ، وليس هناك سوى وادى النيل ليكون قاعدة هذه المهمة التاريخية ، ومن وادى النيل يمكن قلب الموازين فى الهند وآسيا ، والاستيلاء على مصر لا بد أن يؤدى الى ضياع المستعمرات البريطانية فى الهند وأمريكا . وحين اصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى موانى ايطاليا وفى الاسكندرية صار البحر الأبيض بحيرة فرنسية !

وفى القرن الماضى — وحتى اليوم — كان من يسيطر على البحر الابيض يسيطر على بحار العالم ثم على اراضيه بالتبعية .

وبذلت بريطانيا أقصى جهدها لكى تتم هزيمة الحملة الفرنسية ، ومن ثم جلاؤها عن مصر ..

وبعد الجلاء بدأت على الفور العمل لفرض نفوذها على مصر : اشترت ولاء محمد الالفى الزعيم الثانى للمماليك ، ودعته

الى بريطانيا حيث اكرم الانجليز وفادته ، وقدموا له الاموال والهدايا الثمينة ، واعدوا معه خطة بان يتحصن فى الصعيد ، ويزحف منه ليستولى على مصر على ان يحتلوا هم سواحل مصر الشمالية لحماية حكمه وتأييده . واسرع محمد على وتحالف هو والبرديسى الزعيم الآخر للماليك ، وسار الى الصعيد حيث قضى على الألفى ومشروعات بريطانيا ..

وبعد فشل الغزو غير المباشر تقدمت بريطانيا « مباشرة » ، وارسلت حملة على مصر لاحتلالها والقضاء على محمد على واعادة سلطة المماليك ، وهى حملة فريزر المشهورة سنة ١٨٠٧ ، وتصدى الشعب للحملة وهزمها واسر الجنود والضباط ، وارسلوا للقاهرة وطافوا بهم فى شوارعها ، واشتدت الحرب بين بريطانيا ومحمد على باتساع آماله ونجاح سياساته ، ولم تهدأ بريطانيا حتى اقامت حملة صليبية اوروبية قادتها للقضاء عليه .. قال السفير البريطانى فى الآستانة : ان بريطانيا لا يسعها سوى ان تعلن بصراحة انه اذا كان محمد على قد انتصر فى الحرب ضد السلطان ـ فان بريطانيا لن تسمح له بان يجنى ثمرة واحدة لانتصاره ! وسوف تقطع عليه كل السبل . وتستطيع ان تقضى على نفوذه تماما وان تقذف به عاريا فى الصحراء .. !

وقال بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا : ان مصلحة بريطانيا ان يسترد السلطان سورية ومصر . وان دولة قوية فى مصر هى اكبر خطر يتهدد المصالح الأوروبية فى الشرق ، واعلن ان مصر لا بد ان تعود ولاية عثمانية كبقية الولايات .. !

وحققت بريطانيا ما ارادت .. ففى عصر اسماعيل قادت بريطانيا حملة افساد الحكم والحاكم ـ حتى تستطيع غزو مصر اقتصاديا من الداخل .. ولقد كان اسماعيل اميرا طموحا متحمسا وقادرا وكانت البلاد تعلق عليه آمالا كبيرة ، وبدأ حكمه بداية طيبة قال : « ان أساس كل ادارة جيدة انما هو النظام والاقتصاد

فى المالية ولكى اقدم دليلا محسوساً على ارادتى هذه عزمت من الآن على ترك الطريقة المتبعة منذ تسلمى ، وتقرير مرتب سنوى لى لن اتجاوزه ابدا ، فاتمكن بذلك من تخصيص عموم ايرادات القطر لانماء شئونه الزراعية وتحسينها ، واننى آمل يا حضرات القناصل ان اجد منكم اقتناعا بهذه العواطف التى تملأ فؤادى واقبالا على وضع ايديكم فى يدى باخلاص لنعمل معا على ما فيه خير البلاد وساكنيها » !

ونفذت بريطانيا الى هذا الخديو وقضت على فضائله ، وافسدته بالقروض وحياة البذخ الاوربية ، واصبح اشد حكام مصر فسادا وانحلالا .. !

وفى عصر اسماعيل وفى ظل الخراب الذى ساد ــ اشتدت الدعوة الى احتلال مصر ، وان تضع انجلترا يدها على مصر مقابل تحمل مسئولية الوفاء بتعهدات مصر لدائنيها واصلاح الادارة المصرية ، والى انتهاز الفرصة التى لم تسنح منذ ٧٥ سنة وهى اشتغال فرنسا بالصراع مع ألمانيا، وامكان الاستيلاء على مصر دون التعرض لخطر الحرب مع فرنسا . وذلك كما كتب احد دعاة التوسع والاستعمار ادوارد وايس عام ١٨٧٧ ، وادت السياسة البريطانية الى شىء لم تتوقعه ..

بدا الفلاح يخرج من صمت العبودية الذى كان يرزح تحته طويلا ، وكتبت جريدة البروجريه اجيبسيان فى عدد ١٤ من يوليو عام ١٨٦٩ : « ان الفلاح بدأ يجهر بالشكوى وهو مالم يسمع عنه من قبل فى مصر ، وهو يواجه الأوروبى بما ينتابه من خوف وقلق » وكتبت نفس الجريدة فى ١٥ من سبتمبر من نفس العام أن الرأى العام بدا يتكون فى مصر ..

وبعد قيام الحزب الوطنى ارسل اديب اسحاق الى باريس ليصدر جريدة مصر القاهرة واعلن ان غايتها : ان تثير بقية الحمية الشرقية وترفع الغشاوة عن أعين الساذجين ليعلم القوم

ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ! تطور الوعى الى سخط ثم الى ثورة ضد الاستبداد والاستعمار ومن أجل مصر حقيقية لأهلها المصريين ..

كان خطرا — واصبح لا بد من احتلال مصر احتلالا تاما ودائما ، وفى البداية أعلنت بريطانيا واكدت انه ليس احتلالا ، ولكن عملية بوليسية مؤقتة للقضاء على العصيان . واقرار النظام . !

واقامت بريطانيا ٧٤ عاما فى مصر توالت فيها الوعود بالانسحاب أكثر من عدد السنين ، وقد كانت اهداف بريطانيا من احتلال مصر هى :

القضاء على الثورة العرابية ، وكانت اول ثورة من نوعها فى المستعمرات أو البلاد الواقعة على مدى المطامع الاستعمارية ..

وقد كانت ثورة ١٨٥٨ فى الهند انتفاضة للاقطاع الهندى وللامبراطورية المغولية واخر نفس لها .

وكانت ثورة الصين منذ حرب الأفيون فى معركة مستمرة مع بريطانيا واوربا عامة ، ولكنها كانت ايضا معركة الامبراطورية والصين القديمة ضد الاستعمار الحديث ، وكانت ثورة التايبنج فى منتصف القرن الماضى هى آخر انفاس امبراطورية الصين القديمة .

ولكن الثورة العرابية كانت حدثا مختلفا .. كانت امدادا ببداية عصر الثورات الوطنية الديمقراطية والشعبية ضد الاستبداد وضد الاستعمار وضد الاستغلال معا ، لم تكن دفاع امبراطوريات متفككة وآخر انفاسها ، ولكن بداية ثورة الشعوب والقيادات الوطنية المصرية ضد رجعية الاقطاع الذى يؤيده الاستعمار الأوربى ..

وكان القضاء على الثورة العرابية لهذا حتميا حتى لا تكون سابقة وتعطى نموذجا ، وكان قيام دولة وطنية ثورية على

الطريق الى آسيا وافريقيا خطرا لا بد من دفعه ، وقد قال بالمرستون فى بداية القرن : ان قيام دولة قويه - فى مصر فى ايام محمد على - تهديد « لكل المصالح الاوربية » ولكن قيام دولة قوية وثورية ايضا يحكمها فلاحون خطر اشد واشد .

كان لابد ان يردع الشعب الذى يريد الاستقلال ، او الانتصار على بريطانيا وعلى حضارة اوربا وأن تحتل اراضيه حتى لا تقوم ثورة اخرى ..

وكانت بريطانيا تريد ايضا من احتلال مصر النفاذ الى افريقيا .

وفى اواخر القرن الماضى بدأ الصراع الاوربى من اجل افريقيا والتهافت على اقتسامها .

كانت آسيا قد قسمت بالفعل ، وكانت الولايات المتحدة الامريكية قد فرضت حجرا على أمريكا اللاتينية بمقتضى مبدأ مونرو ، فلم تبق سوى افريقيا .

وكان لابد لبريطانيا ان تفوز بنصيب الأسد كما فعلت فى آسيا .. والنفاذ الى افريقيا والسيطرة عليها يبدأ بالنفاذ والسيطرة على البلاد المؤدية اليها ، ومن مصر يمكن النفاذ الى السودان والسودان هو مفتاح القارة السوداء ..

وقد اعدت بريطانيا لهذه الخطة منذ شجعت الخديو اسماعيل على التوسع فى أفريقيا ، ووضعت فى خدمته عددا من « المكتشفين » والحكام البريطانيين والاوربيين للمديريات الاستوائية المصرية ، وكان من أشهرهم جوردون - وقد وضع هؤلاء كل الخطط والمشروعات التى تكفل كراهية مصر ، ثم طردها من هناك وحلول بريطانيا للاستيلاء بعدئذ على معظم افريقيا ..

وكانت بريطانيا تريد ان تحتل مصر لتجعل منها قاعدة لوراثة الامبراطورية العثمانية ، وكانت هذه المشكلة دائمة ومزمنة فى السياسة الأوربية وسميت المشكلة الشرقية ، أى الصراع

للاستيلاء على الولايات العربية للامبراطورية . والدولة الاوربية التى تستولى عليها تكون الدولة الاولى فى الشرق الاوسط ، وبذلك سوف نسيطر على كل الطرق المؤدية الى آسيا وافريقيا وعلى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، وسوف تتحكم فى القارات الثلاث ..

ولم تستطع الدول الكبرى ان تتفق على خطة ، ولهذا ظلت كل منها تسرق شريحة من الامبراطورية فى غفلة من الآخرين ، او بالمساومة والمقايضة معها ولتجعلها قاعدة لتوسع اكبر .

وقد استولت فرنسا على الجزائر وعلى تونس ، ولهذا كان لابد ان تحتل بريطانيا مصر ثم السودان ..

وقد احتلت بريطانيا مصر للسيطرة الكاملة على قناة السويس والطريق البحرى الى الهند .

وكانت لها سيطرة على الطريق البرى عبر سوريا والعراق وايران ، ولكن كان لابد أن تسيطر ايضا على الطريق البحرى الجديد ، وكانت قناة السويس هى أهم طريق تجارى الى الشرق .. والى استراليا وهى التى تعمق استغلالها واستعمارها فى اواخر القرن الماضى .. وبعد اشتداد ازمة الراسمالية فى اوربا .. كتبت جريدة مرآة الشرق القاهرية فى ١١ يونية عام ١٨٧٩ تقول :

« ان فتح قناة السويس قد مهد طريقا قويا للدول الاوربية تسللت منه الى البلاد الافريقية ، وكان ذلك اقوى امنية لافكارها ومحركا لها الى التطلع لتملك الاقطار ، وانهم يعلمون أن القطر المصرى ووادى النيل هو السبيل الوحيد للتغلغل فى تلك البلاد ، فلو قامت فيه حكومة اهلية وضعف نفوذ الكلمة الاجنبية لتعسر عليهم حينئذ نيل هذا المقصد الذى لا يزال نصب اعينهم جميعا، بل ربما ساقهم اهل البلاد المصرية الى نيله ، ومن ثم رات الدول ان لا فائدة فى الالحاح ، فان ذلك يمكن الحزب الوطنى من

اجراء الاصلاحات فى البلاد ولشعبها . فعمدوا الى الاتفاق على معارضة مشروعنا ومعاومة استعلالنا .. وقد إرادت بريطانيا باحتلالها مصر تحويلها الى مزرعة قطن فاخر للانكشاير ، وقد كانت مزرعة غريبة ورخيصة ، ولاسب الهند ابعد وسبح قطنها اقل جودة . وبعد الحرب الاهلية الأمريكية اصبحت بريطانيا فى حاجة الى مزرعة قطن فاخر تسيطر عليها تماما ، وبعد سبعين عاما كانت أسباب احتلال مصر لا تزال فى معظمها قائمة بل زادت اهمية » .

اصبحت مصر لازمة وحاسمة لحل ازمة الامبراطورية البريطانية التى كانت تواجه أشهر ازمه واجهتها بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد كان واضحا خلال الحرب ان بريطانيا بعدها لن تكون مرة اخرى سيدة العالم ومصنع العالم وبنك العالم وحاكمة العالم ، وان تحكم حتى امواج البحار ! .

ولكن الامبرياليين البريطانيين كانوا أشد تشبثا بها من اى وقت آخر ، بل لم يقل العمال الاشتراكيون عنهم حماسة ..

وفى جدال بين روزفلت وتشرشل خلال الحرب حول الهند ثار هذا مزمجرا « كأسد جريح » وصاح : سيدى الرئيس ، اننى لم اتول رياسة وزارة المملكة المتحدة لأشرف على تصفية الامبراطورية !

وفى المحالفة الثلاثية الكبرى ضد هتلر — بين امريكا وبريطانيا وروسيا — كانت بريطانيا اضعف الأطراف ، وكانت تخشى على مستقبلها فى عالم ما بعد الحرب وازاء الطرفين الآخرين وبدات تستعد لتأمين المستقبل والامبراطورية وخاصة فى الشرق الاوسط .

وكان ايدن وزير خارجية بريطانيا مؤمنا بالامبراطورية كعقيدة وحتمية تاريخية وانسانية ، ولا تستقيم حياة البشرية وسعادتها بغير وجودها .

وكان يدرك ويؤمن بان العظمة الاوربية ما زالت تقاس كما كانت منذ بدء السيطرة الاوربية على العالم العربى وما للدولة العظمى من مكانة وسيطرة فى الشرق الاوسط ــ الشرق الاوسط ــ قلب العالم .. وملتقى مواصلات العالم ، والبوابة الرئيسية الى كنوز العالم ، والذى اصبح الآن يحيره بترول العالم .. ومفتاح هذا الشرق الاوسط وقاعدته انما هى مصر .

وقد حفظ الامبرياليون البريطانيون كلمة نابليــون التى صدر بها كرومر كتابه عن مصر « مصر هى اهم بلد فى العالم » وكان ايدن على وعى بها لا ينساها .

واعلن ايدن مشروع الجامعة العربية ، وكانت الجامعــة العربية خطة بعيدة المدى والنظر تعنى كل القوى والفئات الحاكمة والموالية ــ وخاصة الأسر « الملكية » الكبيرة ، وقد قامت كلهــا ولا تزال تعيش فى حماية ورعاية « الأسد » البريطــانى . كان الهاشميون فى العراق والاردن صنائع مباشرين لها ، هى التى صنعت لهم ــ ان لم يكن اقتلعت ــ عروشهم وفرضتهم فرضا عليها .

وكانت بريطانيا عن طريق الادارة البريطانية فى الهند هى التى قامت بتمويل وتسليح السعوديين ، وهى التى دفعتهم الى نجد ثم الى الحجاز ليقيموا عرشا ، وليصمموا بيتا حاكما كبيرا ومنافسا .

وفى مصر كانت بريطانيا هى التى جاءت باساطيلها وجيوشها لتثبت عرش الخديو فاسرة محمد على ، وتقضى على العصاة ، وتظل حامية العرش والأسرة ، ومهما دبت خلافات ومتناقضات فان الحقائق الأساسية ما زالت قائمة .

وقد قامت السياسة البريطانية على زرع التنافس والتفرقة بين هذه البيوت بحكامها الثلاثة ، ولكن حان الوقت للتنسيق والتجميع ازاء خطر مشترك : ان الولايات المتحــدة الامريكية تفضل اقامة بورجوازية جديدة موالية لها خاصة او تفضل حكم

العسكريين والكولونيلات والجنرالات ، والاتحاد السوفيتي يعني الشيوعيه التي يعني نهايتهم تماما ..

والخطر الأحمر هنا هو الخطر الداخلي ، أي شعوبهم والثورات والانتفاضات الوطنيه والاجتماعيه من شعوب تتحفز للانقضاض .

وازاء هذه الاخطار لن تجد الأسر الحاكمة من حليف ومن أمان سوى بريطانيا ، وسوف تكون الجامعة العربية قاعدة عريضة ومبينة للسيادة والوجود البريطاني .. وسوف تكون مصر قاعدة هذه الجامعة ، وبعد الحرب مباشرة اجريت الانتخابات في بريطانيا وانتهى الائتلاف بين المحافظين والعمال ، وادت الانتخابات الى اغرب نتائجها : سقط تشرشل الذي قاد بريطانيا الى النصر ، وفاز العمال باغلبية ساحقة لم يتوقعها احد ولا هم انفسهم ..

وقال زعماؤهم يومها : انها ثورة شعبية بريطانية انتعاضة الشعب البريطاني ورايه الاخير في الراسمالية والامبريالية ، وقالوا : ان ثورتهم لن تقف عند حدود بريطانيا فسوف تمتد لتصبح ثورة اوربية تبدأ منها اوربا الاشتراكية الديمقراطية . وتتحرر بها شعوب اوربا نهائيا من الحرب الاهليــة والوطنيــة والعالمية التي لم تنقطع ولتنعم بالسلام والرخاء ..!

وقالوا اخيرا : ان الثورة لا بد ان تنعكس على شعوب الامبراطورية التي عانت واحتملت معظم الاستبداد والاستغلال والاستنزاف ولابد ان تنال حقوقها وتقرر مصيرها وتبدأ تاريخا جديدا ..

ولكن حين طالب المصريون بعد الحرب بحقهم الاول وهو الجلاء كان الرد صدمة .. وحين طالب الوطنيون العرب بالجلاء عن الشرق الأوسط عامة كان رد بيفن صريحا صراحة عارية ؛ « هذا يمس مطاريف الأجر للعمال ! » ..

وقد كان الامبرياليون يقولون : ان الامبراطورية هي الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية في بريطانيا ولتصدير الأزمة من بريطانيا .

وقال « سيسيل رودس » أحد مؤسسى الامبراطورية الكبار فى افريقيا : انه استمع ذات يوم فى حى الايست أند (حى الفقراء فى لندن) الى خطيب عمالى يصرخ فى العمال الجياع : نريد الخبز ، وادرك من يومها أنه لابد من صبغ خريطة العالم باللون الاحمر ـ البريطانى ـ تفاديا من تلك الثورة ! .

وقد خلق الراسماليون البريطانيون من فيض الارباح التى تدفقت عليهم من موارد الامبراطورية ارستقراطية عمالية من العمال القيت لها بعض الفضلات ، وسلمت لها قيادة الحركة العمالية .. كان اكبر نجاح مد فى حياة الراسمالية البريطانية . وكان « بيفن » من اشهر نماذجه ، اشتهر ببراعته فى الخطابة وفى المفاوضة للحصول على اجور افضل أو اعانات اكبر .. ولكن لا للتغيير العام من نظام الى نظام ..ولهذا لم يكن غريبا ان يتشبث بالشرق الأوسط ·· حتى لا تمس مظاريف أجور العمال ٠ !

وقد وافق العمال على الجلاء عن الهند ، وكان ذلك لمنع اشتعال الهند . دب تمرد فى الاسطول والجيش والطيران .. وانضمت للشعب الثائر بالفعل ، وتهددت الامبراطورية هناك بحرب ثورية شعبية تعم الهند ! وكان لابد من التنازل عما هو ليس جوهريا للاحتفاظ بما هو جوهرى . وهم قبل الجلاء ـ شقوا جسد الهند الى نصفين جريحين بجرح لن يلتئم ابدا .

اما الشرق الاوسط فلم يكن هناك جلاء .. ولابد من البقاء حتى آخر نفس !

وكان هناك شعار قد ظهر وساد أساس السياسة البريطانية بعد الحرب هو « الامبراطورية الثالثة » .. لقد اقمنا الامبراطورية الاولى وفقدناها فى أمريكا واقمنا الامبرطورية الثانية وفقدناها فى الهند ، وسنقيم الامبراطورية الثالثة التى لن نفقدها فى افريقيا !

واحكام السيطرة على أفريقيا لا بد أن يعنى أحكام السيطرة على مصر والسودان مفتاحى افريقيا فى البداية وفى النهاية ، كانت قاعدة القناة اكبر قاعدة بريطانية ، ولابد أن تظل لتأكيد الوجود والسيطرة بالامبراطورية الجديدة ، ولم تسر الرياح مع هذا كما أرادت بريطانيا ولم يكن ممكنا ان تسير ..!

نفذت كل المتناقضات والصراعات الى الجامعة العربية .. ومع ذلك نفذت اليها القوى الوطنية • وحاولت قلبها الى جامعة للشعوب العربية ، وليس مجرد اداة لتحقيق الاهداف والمطامع البريطانية ، وتزعزعت الآمال البريطانية الكبيرة حولها •

وردا على سياسة الجامعة العربية – اشترت الولايات المتحدة ولاء الطرف الآخر فى الشرق الاوسط – وهو الحركة الصهيونية – مقابل دولة هى اسرائيل ، وبدات هذه الحركة بعد الحرب مباشرة معركة حامية لتصفية النفوذ البريطانى فى فلسطين حتى تقوم اسرائيل وتبدأ تصفية النفوذ البريطانى فى الشرق الاوسط كله ..

واستطاعت الولايات المتحدة الامريكية وشركات البترول الكبرى أن تجتذب السعودية ، وتخرجها من الفلك البريطانى ، وتجعلها القاعدة الاولى للنفوذ والمصالح الأمريكية ..

وبقى للسياسة البريطانية الهاشميون فى العراق والاردن حيث قررت ان تضم لهم سوريا ولبنان وما تبقى من فلسطين لتقوم قوة هاشمية بريطانية اكبر ، وبقيت لهم أهم من كل شىء قاعدة القناة اهم القواعد ، وبقيت مصر اهم الدول فى الشرق الاوسط ..

ولقد نفذت الولايات المتحدة الى الاسرة المالكة المصرية ونفذت الى الراسمالية المصرية الناشئة واستغلت خلافات الملك مع بريطانيا خلال الحرب كما استغلت طموح الراسماليين المصريين الى الصعود والتوسع ..

ولكن مصر لا بد أن تبقى وان تظل قاعدة للوجود البريطاني ولو خلق هذا صراعا حادا وحاميا مع الولايات المتحدة الأمريكية .

في بداية هذا القرن جاء لزيارة مصر تيودور روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية وكان من اشـــــهر رؤساء الجمهورية هناك ..

وفي أول احتفال اقيم له في القاهرة ، وكان في الجامعة ، يصدم في خطبه الوطنيين ويخيب آمالهم ويمتـــدح الاستعمـــار البريطاني .. ويلوم المصريين على تنكرهم لفضائله ومزاياه .

واثار الخطاب سخط الوطنيين ، وارسل محمد فريد باسم اللجنة التنفيذية للحزب الوطني برقية احتجاج شديدة ، واقام الحزب الوطني اجتماعا شعبيا القيت فيــــه الخطب ردا على تيودور روزفلت ، وبعد الاجتـــماع خرجت مظاهـــرة كبيرة الى فندق شبرد ، وظلت تهتف بحياة الاستقلال والدستور وبسقوط روزفـلت ..

وارسل ثلاثة محامين من الحـــزب الوطني خطابا الى روزفلت يقولون فيه : « كيف يمكن أن تصدر ذلك الحكم على أمة دون أن تسبق لك معرفة بصفاتها او احوالها وشئونها ؟ تصدر ذلك وانت لم تمكث في وادي النيل الا بضعة أيام كنت في اثنائهـــا لا تختلط الا بأعداء الحركة الوطنية . ولم تقرأ عن احوالنا الا مـــا يكتبه أنصار الاحتلال وانصار السياسة البريطانية » .

وانشأ حافظ ابراهيم احدى قصائده :

ليت شـــعرى أكنت تدعـــو اليهـــم
يوم كانوا على تخـــوم الثغـــــور
يوم كانوا قـــذى بعـــين نيويـــور
ك وداء مستحكمـــا في الصـــدور
يوم نـادى واشـــنجطون قلبـــا
ة من الفيـــل كل ليث هصـــور

وكانت الولايات المتحدة يومئذ بعيدة تماما عن مصر ، ولا تعترف الا بواشنجطون وجفرسون وتمثال الحرية ، ولا تصـل الى مصر سوى تصريحات رؤسائها وساستها ببعدهم وتنزههم عن الصراعات الأوربية « الامبريالية » .

وفى العتاب على روزفلت قيل له : « ان خليفة واشنجطن العظيم يجدر به أن يقدر الحرية حق قدرها » .

ولكن روزفلت القى خطبة ثانية فى القاهرة اكد مـا قاله فى خطبته الأولى ، وأثار سخطا اشد ، ولهذا حين وصـل الى الاسكندرية ليستقل الباخرة عائدا انتظرته فى محطة الاسكندرية مظاهرة أكبر ارتفعت فيها الهتافات بسقوطه وبحياة الاستقلال والدستور ..

وكان لتيودور روزفلت فضل واحـد : كانت هذه اول مظاهرات شعبية تخرج فى القاهرة او الاسكندرية منذ الاحتلال وفشل الثورة العرابية .

وكانت بداية لعصر المظاهـرات ولاستئناف الجمـاهير للثورة ، وكانت اول ازاحة للغشاوة عن خلفاء واشنجطون .

وكان تيودور روزفلت ـ مشـهورا بسياسة التوسع الامريكى ، وبما سمى « سياسة العصـا الغليظة » اى التـوسع القائم على القوة ، ويتجه هذا التوسع الى الباسفيكى وأن تجعله الولايات المتحدة بحيرة امريكية ، ومادامت الدول الأوربية قد سدت الطريق الى الشاطىء الآخر ، وجعلت الاطلنطى بحيرة أوروبيـة ـ فليبدأ التوسع فى الباسفيكى بالاستيلاء على الفيلبين ، لتكون قاعدة انقضاض على الصين وكل آسيا ، واحتواء للمنافس الآخر وهو اليابان .. !

وقد كان التوسع الامريكى ـ توسع الراسمالية الامريكية حتى نهاية القرن الماضى ، مستغرقا داخـل ميـادين الاستثمـار

والربح الواسعة فى داخل الولايات المتحدة ، وفى امريكا الجنوبية ــ وقد فرضت الولايات المتحدة (مبدأ مونرو) وما يســمى (حياد الامريكيين) لحماية هذا التوسع بدعوى تجنيب الأمريكيتين مساوىء الصراعات والنزاعات الأوربية ٠

ولكن نمو الراسمالية الأمريكية المطرد ما لبث ان ضاق بحصاره فى نصف الكرة الغربى ، وبدا التطلع منذ نهـاية القرن الماضى الى اسواق العالم وموارده الكبرى فى آسيا وافريقيا ٠

وهذه اسواق وموارد وميادين اســتعمار كانت الدول الاوربية قد تقاسمتها ، ووقفت سدا امام نفاذ اى منافس اليها، ولهذا وقفت سياسة الولايات المتحدة الامريكية عند حد المطالبة (بالباب المفتوح) : اى فتح الباب على قدم المساواة فى اسواق العالم وخاصة فى آسيا وافريقيا أمام التجارة الأمريكية ٠ وذلك الى حين : فقد قال تيودور روزفلت : « ان قدرنا هو امركة هذا العالم » ٠ ولم تكن رحلة هذا الرئيس الامريكى الى مصر والسودان مجرد رحلة سياحية ، ولكنها كانت كشفا لأكبر موارد « الامبرالية » الأمريكية واولها فى بداية هذا القرن ٠

وفى ذلك الوقت لم تكن الولايات المتحدة تريد ان تصفى الاستعمار البريطانى والفرنسى لتحل محله ، وانما كانت مجـرد المشاركة ــ « فتح الباب » على قدم المساواة ، ولهذا كان لابد ان تمتدح الحكم البريطانى وأن تتملقه ٠٠ !

ولم تعــد امريكا الى مسرح السياسـة المصرية الا بعــد الحرب العالمية الأولى ، فقد اشتركت أمريكا فى تلك الحــرب ، وحسمت نتيجتها النهائية بمواردهــا واسلحتهــا وقواتهــا ، واصبحت لهذا زعيمة مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرنسا ، وقد كان البرنامج ذو الاربعة عشر بندا الذى اعلنه رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى ذلك الحين (ويلسون) عنصرا رئيســيا

فى نهاية الحرب وفى الخروج منها بلا غالب او مغلوب ولتامين العالم للديمقراطية ، ولتكون تلك الحرب نهاية الحروب .

وكان من اهم ما تضمنته بنود ويلسون البند الخاص (بتقرير المصير) وحق كل شعب فى تقرير مصيره » ولهذا هرعت كل الشعوب المستعمرة والمقهورة الى فرساى والى مقر ويلسون ، وكان من بينها الوفد المصرى الذى سافر الى باريس بعد ثورة ۱۹۱۹ ..

وكانت المظاهرات قد تدفقت فى شوارع مصر تهتف باسمه ، ومات شهداء من شباب مصر ، ماتوا وآخر كلماتهم هى الهتاف بحياة ويلسون » ، ولكن رفض حامى السلام والانسانية لقاء الوفد المصرى برياسة سعد زغلول .

ثم ما لبث ويلسون ان اعترف بالحماية البريطانية على مصر وهى الحماية التى فرضها البريطانيون خلال الحرب ، وقامت الثورة المصرية للتخلص منها وليقرر المصريون مصيرهم بانفسهم ..

ولم يكن هذا موقف ويلسون من المصريين وحدهم ، ولكن من كل الشعوب الأخرى وخاصة من العرب الذين سارعت وفودهم ايضا الى فرساى ، وكانوا حلفاء لبريطانيا وفرنسا خلال الحرب ، وقاموا بدور رئيسى فى هزيمة الاتراك وسقوط الامبراطورية العثمانية فلم يكن حظهم أفضل ، فقد كان ويلسون (صهيونيا) متحمسا ، وبداية الرؤساء المتحيزين للصهيونية فى الولايات المتحدة ..

وقد انسحبت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية من المسرح السياسى العالمى ، وعادت سياسة « العزلة » وسقط ويلسون ، وفشلت كل مطامعه ، واقتسم لويد جورج رئيس بريطانيا وكليمنصو (النمر) رئيس وزراء فرنسا كل التركة فيما بينهما ، وسد الطريق تماما أمام كل محاولات الولايات المتحدة

للهيمنة ، سواء باعادة رسم خريطة العالم ، أو فتح الأبواب الموصدة امام تجارتها وتوسعها •

ولم يفقد بعض الوطنيين المصريين فى ذلك الحين كل الأمل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وذهب احد أعضاء الوفد المصرى « محمد محمود » ــ وربما لم تكن مصادفة انه زعيم حزب الاقطاعيين الكبار و « أبناء » البيوتات ــ ذهب بعدئذ الى هناك ليشرح للرأى العام الامريكى ولممثلى الشعب فى الكونجرس قضية مصر ، وما تعثر فى مهمته استأجر محاميا امريكيا كبيرا « المستر فولك » بمبلغ ٣٠ الف جنيه ليدافع عن القضية ، ولكن كانت النتيجة النهائية ونصيحة المحامى ان لا أمل فى النجاح ، لأن الكونجرس الامريكى ، ليس فى حالة تمكنه من الاستماع للقضـــية المصرية أو تأييدها •

واحتاج الأمر الى حرب عالمية أخرى ، لتعود الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى الى مسرح السياسة المصرية بل والى الشرق الأوسط عامة ، وتبقى ••

وخلال الحرب العالميــــة الثانية هذه ــ نزلت الجيوش الامريكية الى الشرق الأوسط وفى شمالى افريقيا العربية •

وكانت القوات الأمريكية هى التى حسمت نتيجة المعركة فى شمالى افريقيا : فى تونس والجزائر ، وكانت الاسلحة الامريكية هى التى حسمت المعركة فى العلمين وفى ليبيـــا وفى الشرق الأوسط عامة •

وكان البترول الذى عثرت عليه الشركات الأمريكية (بغزارة) فى شبه الجزيرة العربية عنصرا رئيســيا فى كسب الحرب كلها •

وقد كان واضحا قرب نهاية الحرب العالميـة الثانية ــ وبدء هزيمة المانيا وايطاليا واليابان ــ ان هذه الحرب هى نهاية

بريطانيا وفرنسا أيضا ، وانهما لن يسرقا النصر كما حدث فى الحرب العالمية الاولى ، وان الولايات المتحدة سوف تكون سيدة الموقف بعدئذ — ولزمن طويل — وهى لن تنسحب ولن تنعزل مرة اخرى ، بل ستبقى وتسود ..

وكان من اهم المناطق التى يجب أن تبقى وتسود فيها اذا ما ارادت البقاء والسيادة على المسرح الدولى كله الشرق الاوسط . وهذه قاعدة وضعها الغزاة الكبار منذ الاسكندر .

وكان وجودها العسكرى قائما فى المنطقة بالقوات والقواعد الكبيرة التى انتشرت من الظهران فى السعودية الى الملاحة فى ليبيا ، الى القنيطرة فى المغرب .

وكان وجودها الاقتصادى قائما وعلى اوسع مدى ببحيرة البترول .. الشامخة التى اكتشفتها الشركات الامريكية فى شبه الجزيرة العربية ..

وكان لا بد ان تبنى الوجود السياسى الذى يخدم ويحمى هذه (الامبراطورية) الجديدة ..

وكان أول عمل قامت به الولايات المتحدة هو اقامة دولة جديدة تكون ممثلة تماما للوجود الامريكى وخادمة متفانية له ، والقاعدة الأولى للوجود السياسى والاقتصادى الاستراتيجى الامريكى ، وتتبعها كل القواعد الأخرى ..

وكانت الحركة الصهيونية قد حولت ولاءها تماما خلال الحرب من بريطانيا الغاربة الى الولايات المتحدة ، وذلك فى مؤتمر مشهور باسم (مؤتمر بلتيمور) تزعمته الشعبة الامريكية فى الحركة الصهيونية التى تصدرها (بن جوريون) والتى أزاحت الشعبة البريطانية التى كان يتزعمها (وايزمان) والتى كانت تقود الحركة الصهيونية حتى ذلك الحين ..

وكانت الولايات المتحدة هى التى فرضت قرار التقسيم فى الامم المتحدة سنة ٤٧ قسرا وبالضغط (العارى) والمباشر على وفود أمريكا اللاتينية .

وكانت الولايات المتحدة هى التى فرضت الهدنة الاولى فرضا خلال حرب فلسطين سنة ٤٨ حينما بدا ان الجيوش العربية سوف تكتسح القوات الصهيونية .

وكانت هى التى امدت اسرائيل بسيل من الأسلحة ومن الضباط الامريكيين خلال الهدنة لتواجه القوات العربية ..

وكانت الولايات المتحدة هى التى فرضت الهدنة الثانية فى حرب فلسطين الأولى ، حينما بدا ان القوات العربية ما زالت قادرة ، ولتمكن القوات الصهيونية من مزيد من الاسلحة والخبراء لتحقق النصر النهائى ..

وبعد اقامة اسرائيل بدات المهمة التالية وهى فرضها وغرسها فى كيان الشرق الاوسط .

وكان الصراع حادا بين بريطانيا والولايات المتحدة حول سورية ولبنان وخاصة سورية : كانت بريطانيا تريد ان تحقق مشروع سورية الكبرى بان تضم سورية للاردن بزعامة الملك عبد الله رجلها الاول ، أو ان تحقق مشروع الهلال الخصيب ، أى ضم سورية والاردن والعراق ولبنان فى اتحاد كبير ، بزعامة الأسرة الهاشمية فى الأردن والعراق لمواجهة النفوذ الأمريكى الاسرائيلى الجديد .

ودبرت الولايات المتحدة انقلاب — حسنى الزعيم — فى سورية ، وهو انقلاب قامت السفارة الامريكية فى دمشق باعداده كاملا — وتسليم السلطة الى العميل الذى اختارته — وهو الكولونيل حسنى الزعيم ..

وكان الانقلاب اول محاولة لنقل اسلوب الحكم المفضل لدى (الامبريالية) الامريكية ، والذى مارسته لزمن طويل فى أمريكا اللاتينية ، وهو حكم الكولونيلات الذين يقمعون الثورة والقلاقل فى الداخل . ويعملون مباشرة لحساب الشركات والاحتكارات الامريكية ، ويقومون بحراسة المصالح الامريكية ..

وحكم الرجل الديكتاتور القوى ، هو أسلوب السياسة الأمريكية المفضل ، ولا يجيد الاستعمار الأمريكى ـ الاساليب والوسائل البريطانية فى اقسامة الواجهات (الديمقراطية) ، وتكوين الاحزاب وزرع الفرقة والشقاق ، وحزب ضد حزب أو زعيم ضد زعيم ، أو قبيلة ضد قبيلة «فرق تسده» كما كان يفعل الرومان •

و « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى طلب جنود من بريطانيا) كما قالت حكومة الهند لحاكم عدن ·· ذات يوم كانت بريطانيا جزيرة صغيرة بعيدة تحكم بالاسطول ، ولا بد حتى تستطيع الحكم والسيطرة من الحيلة والخديعة واثارة الخلافات والنفاق ، تحت اسم الديمقراطية واعداد الشعوب المتخلفة للحكم الذاتى •

ولكن الاستعمار الامريكى أكثر فطرية ومباشرة لان الولايات المتحدة أقوى واغنى واكبر دولة فى التاريخ ، وهى قد قامت على العنف منذ البداية ، وستظل دائما تعتمد عليه ، العنف العارى المباشر اسهل واقصر طريق ..

ويتحقق العنف بجنرالات او كولونيلات على راس جيوش منظمة مسلحة تتلقى التعليمات والسياسات واضحة صريحة من السفارات او الاحتكارات الامريكية • •

وقد كان الأمل أن يكون هذا بداية انقلابات مماثلة فى الدول المجاورة : تخلع النفوذ البريطانى ، وتقيم الوجود الأمريكى ، وتعقد الصلح مع اسرائيل ، وتؤسس السيادة الامريكية على المنطقة •

ولكن الانقلاب كان بداية صراع انجلو أمريكى مرير حول سورية ، فقد قامت بريطانيا بانقلاب مضاد بقيادة الجنرال ـ سامى الحناوى ـ ردت عليه الولايات المتحدة بانقلاب جديد بقيادة الكولونيل ـ الشيشكلى •

وشاع القلق وعدم الاستقرار في سورية ، وبدأت معركة ثلاثية حامية الوطيس ، وقد كان واضحا لدى الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب ، وتأكد هذا بعد الانقـــلابات السورية أن السيادة على الشرق الأوسط لابد لن تبدأ من مصر وان تعتمد عليهـــــا ..

من يريد أن يسيطر على العـالم فلا بد ان يسيـطر على الشرق الأوسط ، ومن يريد ان يسيطر عـلى الشرق الاوسط فلا بد ان يسيطر على مفتاحه : مصر . وهذه قاعدة استراتيجية تاريخية لم تتغير منذ أيام الاسكندرية الى الرومان الى العثمانيين حتى الاستعمار الحديث ..

فحينما حلم نابليون بفرض السيطرة والسيادة الفرنسية على العالم وبانتزاعها من بريطانيا جاء الى مصر . بل قال : ان مصر اهم بلد في العالم ! وحينما اراد الانجليز تأميـن سيطرتهم وسيادتهم على العالم حتى لا يهددها أحد آخر احتلوا مصر ، وحينما أصبحت المانيا قوة أوربية اعظم وتطلعت لاقتســـام أو انتزاع السيادة على العالم ـ اتجهت نحو الشرق الاوســط ، وللاستيلاء على مصر .

وحين اراد موسوليني أن يعيد مجــد الامبراطـــورية الرومانية وأن تسود العالم أعــد الخطط والمشروعات لغزو مصر واحتلالها .

وأعلان العصر الامريكي وتحقيـق السيادة الأمريكيـة لابد ان يتم ولا مناص له من السيطرة على مصر ، ولهذا كان العمل الثالث والرئيسى للولايات المتحدة ـ بعـد اقامة اسرائيل والانقلابات الســورية ـ هو البحث عن انقــلاب في مصر .. كولونيــل مصرى قوى يجمد القلاقل التي لم تنقطع فيها والتي يمتد أثرها

الى كل المنطقة ، وهو سوف يقضى على النفوذ البريطانى ، ويفتح مصر لمصر السيادة الامريكية وبعدها للوجود الامريكى ..!

وقد ارسلت الولايات المتحدة لهذه المهمة ابرع سفرائها « جيفرسون كافرى » • وكان اشهر مدبرى الانقلابات فى وزارة الخارجية الامريكية ، ويضم سجله سلسلة طويلة منها تقارب الثلاثين فى امريكا الجنوبية والوسطى ••

وقد توج جهوده فى اوربا الغربية ، فكان أول سفير فى فرنسا بعد التحرير ، وقد صفى الشعب هناك ، وأزاح ديجول من الحكم ، وطرد الشيوعيين من الائتلاف الوزارى ، واشترى الاشتراكيين لحساب الولايات المتحدة الامريكية وحول فرنسا التى كانت تحلم باعلان الثورة الفرنسية فى أوربا ، الى قاعدة مطيعة لمشروع مارشال ثم لحلف الاطلنطى ، ثم لكل المشروعات المفروضة على أوربا •

وكان على جيفرسون كافرى أن يتمم عمله فى الشرق الاوسط ، أن يخضعه لحلف جديد يكمل حلف الاطلنطى ونظرية ترومان وسياسة الاحتواء ، ولا يتم هذا الا بأن تكون قاعدته مصر ، وبأن يقوم فيها حكم قوى (عسكرى) يصفى الشعب ، ويحقق الاستقرار .. !

وتجاوزت الحركة الوطنية — الشعبية — فى مصر كل قدرات كافرى .. والغيت معاهدة عام ١٩٣٦ ، وأعلن الكفاح الشعبى المسلح بعد محنة الاسماعيلية وتفاقم الموقف واجتاحت المظاهرات وطلائع الثورة البلاد ••

وتقدم كافرى مظاهرة سياسية (غربية) مع سفراء بريطانيا وفرنسا وتركيا لارهاب مصر والانضمام الى حلف للشرق الاوسط تكون مصر قاعدته ، ولكن رفضت مصر من الوهلة الأولى ، وواصل كافرى بحثه وجهوده لكى يعثر على

الكولونيل او الجنرال الذى يسلمه الســـلطة ، وكان معروفا للجميع يومئذ ان هناك تنظيمـــا فى الجيش المصرى ، وان قوة وطنية ثورية تعمل داخله ، وكانت منشـورات الضباط الأحـرار توزع فى كل مكان ، وقد حاولت السراى وحـاولت بريطـــانيا جاهدة ، وحاولت المخابرات المركزية الأمريكية معرفة هؤلاء الضباط الأحرار ، ولكن بلا جدوى ، كان هناك خوف وقلق من ان ينبثق نشاط من الجيش يفسد كل الخطط .

وفى اواخر عام ١٩٥١ كون دين انشيســون وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية لجنة موسعة تضم خبراء من وزارة الخارجيـــة الأمريكية ووزارة الدفـــاع (البنتاجــون) وادارة المخابرات المركزية واســاتذة الجامعات الاخصــائيين فى شــئون الشرق الأوسط ، ورجال الاعمال ذوى المصـــــالح فى المنطقة برياســة رجـل المخابرات المركزية المشهور « كيرميت روزفلت » ـ وكان رجلهم فى الشرق الاوسط ، وكان ايضـــا حفيد تيودور روزفلت ـ لحسم مشكلة الشرق الأوسط

كان على اللجنة ان تبحث عن حل للشرق الأوسط عاجل سواء بالطرق المشروعة او غير المشروعة .

وبعد بحث طويل انتهت اللجنة الى ان حل مشكلة الشرق الأوسط لابد أن يبدأ من مصر ، ويتم هذا بتدبير انقلاب فيها ، « كنا نريد رجلا قويا هناك يملك من القــوة ما لا يملك رجل آخر فى العالم العربى ، ويستطيع اتخاذ كل القرارات المكروهة » ووكلت المهمة الى كيرميت روزفلت .

وبعد حريق القاهرة اصبح ضروريا التعجيـــل بالعمل ؟ ولهذا جاء روزفلت بعد الحريق بأيام يحمــل تعليمات بأن يدبر ثورة سلمية بوساطة الملك فاروق تصفى النظام القــديم تمــاما ، وتقيم نظاما جديدا ، وبذلك يسبق الملك ، ويهزم القوى الثورية

التى تقول تقارير رجال المخابرات المركزية منذ عامين : انها على وشك الانفجار والانتصار . واذا ما فشل فى هـــذا فعليه ان يبحث الاحتمالات الاخرى ، ويعثر على رجل قوى ومقبول اى يجمع الصفنين ..

وقد كان كيرميت روزفلت صديقا حميما للملك فاروق ، وقد عمل فى مصر خلال الحرب وتوطدت صداقته بالملك بعــد حادث ٤ فبراير عام ٤٢ ، وكان يزوره يوميا فى قصره ، وهو حانق عاجز مثل حوت كبير قذف به الى الشـــاطىء وكان يطمئنه ويعده بانه بعد الحرب سوف تكون هناك سياسة جــديدة ، وصفقة جديدة امريكية ـ لمصر تسترد بها سيادتها ، وســوف يكون هو اول ملك مستقل على عرش مصر منذ الفى عـــام .. وكان هو الذى دبر المقابلة بين فرانكلين روزفلت والملك فاروق عام ١٩٤٥ خلال زيارته لمصر .. ولكن بعد قليـــل خاب امل كيرميت روزفلت وجيفرسون كافرى فى الملك فاروق ، وفى قدرته ، واتفق الاثنـــان على انه ليس ســـوى الجيش فقط ، يمكنـه ان يقوم بالمهمة ويسيطر على موقف يتدهـور كل يوم . ومن الجيش وحده يمكن اقامة حكومة تتعامل وتتفاهم مع الغرب .

وبدأ البحث مرة أخرى فى الجيش : كان كيرميت روزفلت يريد أن يصل الى الضباط الاحـــرار ، وأن يعرف خططهم وبرامجهم وأن يستميلهم .

وباعترافه استطاع الضباط الأحرار أن يصلوا اليه ، وأن يعرفوا مهمته ونيات الولايات المتحدة ، ولكن لم يستطع هو ان يصل اليهم وظلت اسرارهم الاساسية بعيدة ..

وعــاد روزفلت الى واشنجطون وكان عليه ان يعترف بأنه اذا وقع انقلاب فى مصر فلن يكون انقلابنـا ، ولكن علينــا ان نعمـل معـه ..

ورفض كافرى هذه النتيجة • وواصل العمل بحماسة ليثبت قدرته ويسبق الزمن ، وتدهور الموقف .

وواصل الملك فاروق ايضا العمل ، كان يريد ان يسترد ثقة الولايات المتحدة ، وان يقدم لها الانقلاب الذى تريده ، واختار بالفعل الرجل الذى سوف يقوم به .

ووجد الضباط الأحرار انفسهم بين خطرين داهمين ومرعبين : فاما ان يقدموا على ثورة لم تستكمل استعداداتها : من كوادر عسكرية وسياسية وتنظيم شعبى مؤيد وبرنامج مفصل ، وفكر ثورى متكامل .. واما ان يقدموا عليها مهما تكن النتائج • وقبل ان يفاجئهم او يسبقهم الملك او الولايات المتحدة الامريكية قرر الضابط الشاب العبقرى الذى كون التنظيم واختار الرجال والذى وضع الخطط ودرس وفحص كل الآراء ، قرر المخاطرة وحدد ساعة الصفر ••

ان الثورة مخاطرة ، والهجوم خير وسائل الدفاع ، والانتظار قد يعنى منح العدو فرصة واطالة عناء وشقاء الشعب الذى لم يعد له سوى مخرج واحد ، ربما يضيع منه اذا انتظر •• لابد من العمل فورا •• وأعلنت الثورة •

وفى ليلة واحدة تمت وانتصرت • وقد عرفت حكومتنا (الأمريكية) بالثورة فى صباح اليوم التالى بقراءة انبائها فى الصحف ، وكانت هناك تقارير كثيرة من المخابرات المركزية الامريكية قبل ذلك تقول : ان هناك شيئا سوف يحدث فى مصر ولكنها لم توضح اى معلومات حول هذا الشىء ــ عن موعده أو عن تحركاته واتجاهاته .

وقد فاجأت ثورة ٢٣ يوليو الجميع : فاجأت الشعب الذى توالت عليه الضربات وموجات الارهاب حتى كاد يسوده اليأس .

وفاجأت البريطانيين الذين كانوا يفخـــرون دائما بانهم يعرفون الجيش المصرى جيدا ، ووقف ايدن منـــذ وقت قريب يلوح لحكومة الوفد باصدقاء بريطانيا فى الجيش المصرى ..

ولكن المفاجأة كانت اشد بالنسبة للملك فاروق وللولايات المتحدة الامريكية ، وقد قال الملك بسوقيته المشهورة : « لقد تغدوا بى قبل أن اتعشى بهم » ، وكانت هذه حقيقة .

ولم يكن الامريكيون يتصورون قدرة الضـــباط الاحرار على التحرك بالسرعة التى حققوا بها الثورة ، وقيل ان تستطيع حاوئت الولايات المتحدة أن تعرف عنها شيئا .

وقد ارادت الولايات المتحدة ان تغطى المفاجأة بأن تشير وتوحى بان الثورة من صنعها ، فهى انقلاب آخر من الانقلابات الامريكية ، وصرح البعض بذلك علانية .

واراد جيفرسون كافرى الذى كان يصادف اول واكبر فشل فى حيـــاته ان يدارى ما حدث بأن يتبنى الثـــورة .. والاولاد ! أى ضباط الثورة . وقـــال بعض الدبلوماســـيين الامريكيين : ان الثورة نعمة نزلت علينا من السماء تماما كما نريد ، ولا يغير فى شىء أنها لم تكن من صنعنا او لحســـابنا ! بمكن ان يعيدوا صنعها وصياغتها كما يريدون ..

اهتمامات الدبلوماسية الامريكية منذ اللحظة الاولى فى النفاذ الى الثورة والاستيلاء عليها ، ولكن بلا جـــدوى : كان الضباط الجدد الاحرار قيادة وتعبيرا عن كل القوى الوطنيـــة والثورية الزاخرة التى تمت وتدفقت فى أحشاء المجتمع المصرى : « هؤلاء العساكر هم اخوان وأولاد الاهالى وهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة » كمـــا قال عرابى للقنصـــل البريطانى عام ۱۸۸۱ ..

وكان هناك طرف ثالث فى القضية وهو الاتحاد السوفيتى «

كانت سياسة روزفلت تقوم على ان الولايات المتحدة سوف تكون بعد الحرب هي والاتحاد السوفيتي الدولتين العظميين في العالم ، وانهما سوف تكونان مسئولتين مسئولية رئيسية عن عالم ما بعد الحرب ، وهو عالم يجب أن يكون مختلفا عن العالم الذى سيطرت عليه دول اوربا ـ العظمى ـ وانتهى الى كل الكوارث ، وآخرها الحرب العالمية الثانية .

وكان التعايش الذى يراه روزفلت بين الدولتين لابد أن يقوم على تصفية الامبراطوريات القديمة ـ الاوربية ـ وكانت متداعية بالفعل خلال الحرب ومنح شعوب العالم وخاصة في المستعمرات « صفة جديدة طيبة » وهو اسم سياسة روزفلت المشهورة ..!

وفى تطبيق هذه الصفقة يمكن أن تتعاون روسيا وامريكا ، وبالطبع سوف تتفوق امريكا ، لأن لديها الكثير مما تمنحه وما تحتاج اليه هذه الشعوب ، وأكثر كثيرا مما يستطيعه الاتحاد السوفيتي الذى انهكته الحرب .

ومات روزفلت وخلفه ترومان ، وكان مختلفا تماما وواقعا فى قبضة الراسماليين الامريكيين الكبار أعداء روزفلت التقليديين وكان هؤلاء يرون ان الولايات المتحدة قد نالت أخيرا فرصتها التاريخية لتسود العالم وتحكمه ، وانه ازاء راسمالية اوربية مضعضعة ، وازاء شيوعية منهكة وازاء شعوب صغيرة فقيرة لا تملك شيئا ، لا بد أن تكون أمريكا ـ وهذا حقها ! ـ سيدة العالم . وهى قد حسمت نتيجة الحرب فى الباسفيكى وحسمتها فى اوربا الغربية وفى افريقيا والشرق الأوسط ، ولهذا لا بد ان يبدأ عصر السيادة الأمريكية وما سموه « القرن الامريكي » .

واتفاقا معهم ذهب تشرشل الى الولايات المتحدة وأكمل الخطة ، والقى خطابا مشهورا عرف باسم المكان الذى القى فيه « خطاب فولتون » ، ونادى بضرورة تحالف الولايات المتحدة

واوربا الغربية لصد الخطر الجـــديد الزاحف وهو الشيوعية ولتحطيم الستار الحديدى الذى اقامته روسيا حولها وحـول شعوب أوربا الشرقية ..

وتحولت سياسة روزفلت التى كانت تريد التعايش مـع روسيا الى سياسة جديدة ، هى الحرب البـاردة ضد روسـيا وبالتحالف مع الاستعمار القديم تمهيدا للحرب الساخنة .

وكان كثيرون فى أمريكا يرون ضـرورة الاسراع بضرب روسيا قبل أن تستعيد قوتها . ويرون بالتبعية ضرورة اخماد كل الثورات الوطنية ، لأن العالم يواجه خطرا جديدا مشتركا لابد ان ينسى فيه كل المطالب الانانية والقـومية وقد انتهى عصر القومية الذى كان سبب المآسى كلها ، وعلى العالم ان ينتقل من الاستقلال والقومية الى التكافل والتكامل !

وكان الشرق الأوسط حجر الأساس فى سياسـة الحرب الباردة . والشرق الأوسط فى التعريف الغربى يمتد من باكستان حتى حدود المغرب ، وقد نفذت الولايات المتحدة اليه بأكمله ، قبل الحرب وخلالها .

وكانت نظرية ترومان عام ١٩٤٧ بشـأن اليونان وتركيا وايران هى اول اعلان رسمى للحرب الباردة وكانت تقضى بحق امريكا فى التدخل فى شرق البحر الأبيض والشرق الأوسط واعدادهما ليكونا ميدانا رئيسيا لهذه الحرب . كان البلقـان وكان الشرق الأوسط هما « البطن الناعم » للاتحاد السوفيتى ومنهما يمكن بدء الحرب الباردة أو الساخنة وكسبها .

وقد قامت السياسة الامريكية بعـد ذلك على ما سـمى بسياسة الاحتواء : اى حصار روسيا واحتوائهـا ، حتى تتعقد مشاكلها ، وتتفجر متناقضاتها ، وتسقط وتنهار من الداخل !

وأصبح الاتحاد السوفيتى طرفا فى مشكلة الشـرق الأوسط ، والمشكلة المصرية بالطبع .. وكان قد اصبح طرفا فى

كل قضية . وبعد سنين طويلة من العزلة والانطواء والبناء ، خرج الاتحاد السوفيتي بعد الحرب بصفته الدولة العظمى الثانية ، واحتل مكانه بعد معركة بطولية امتدت من مشارف موسكو التى بلغتها الجيوش النازية الى برلين حيث رفع العلم الاحمر فوق مبنى الرايشستاج !

وكان الموقف النظرى والعملى للاتحاد السوفيتى هو تأييد كل الحركات الثورية والوطنية ضد الاستعمار ..

وكان هذا الموقف « عقائديا » ونابعا من النظرية الاشتراكية الماركسيه التى ترى فى سقوط الاستعمار فى أى مكان انتصارا على الراسمالية العالمية وعلى الامبريالية العالمية وانتصارا على المدى الطويل للاشتراكية ..

وكان ايضا موقفا سياسيا نابعا من المصلحة القومية للدولة السوفيتية ، فهى لا تريد ان تكون محاطة بدول معادية .. ولكن بدول مستقلة صديقة او على الاقل غير معادية .

وكان البلقان قاعدة لسياسة حزام الحجر الصحى الذى اقامته أوربا الغربية بعد الحرب العالمية الاولى ضد الثورة الروسية ، وكان الشرق الاوسط هو الميدان الذى نزلت منه الجيوش البريطانية لغزوها والقضاء على الثورة من « اذربيجان » فى الجنوب .

وقد حققت روسيا الأمن فى البلقان بعد قيام الديمقراطيات الشعبية الجديدة هناك .

وايدت روسيا الحركات الوطنية والثورية فى الشرق الاوسط لكى تقضى على الاستعمار القديم وتواجه الاستعمار الجديد الأمريكى ..

ولكن مع ذلك كان الاتحاد السوفيتى بعيداً عن مصر وبرغم اعتراف مصر به خلال الحرب فان علاقاته بالحركة الوطنية المصرية

كانت محـــدودة ، وربما لا تكـون هذه غلطته بقـــدر ما كانت غلطة القيادة الوطنية « البرجوازية » ، اذ تجنب النقراشي في هيئة الامم أي علاقة مع الوفد السوفيتي · وبقدر ما كانت نتيجة حرص الاستعمار البريطاني الشديد على الا تقوم علاقة ما · كان فهـــم الاتحاد السـوفيتي في ذلك الحين للقضية الوطنـــية المصرية .. وكان ايضا وفقا للنظرية الستالينية السائدة يومئذ محـدودا أو متزمتا ..

وقد كان تأييـد الاتحاد السـوفيتي للمطالب الوطنيـة المصرية في المحافل الدولية صريحا وبلا تحفظ ولـكن العلاقات ظلت رسمية ..

وكان ستالين في النهاية قليل الثقة بالثـــورات الوطنية الآسيوية والأفريقية ، وبدور البرجوازية الوطنية · وكان رايه في القادة الوطنيين الجدد في آسيا : سوكارنو ونهرو وواننج سان في بورما · انهم عملاء انجلو أمريكيين لا اكثر !

ولقد قامت المظاهرات الشعبية الجارفة في مصر قبل الثورة تطالب بالسلاح من روسيا وبالاتفاق مع روسيا ، وذلك بعد مـا هاجمت الدبابات البريطانية جنود « بلوكات النظام » ، ولـكن بالطبع لم يجرؤ احد من القادة على تحقيق هذه المطالب · ولم يرتفع صوت من الاتحاد السوفيتي نفسه يشجعها أو يستجيب لهـــا ..

وقد ايد الاتحاد السوفيتي الثورة الجديدة في مصر سـنة ١٩٥٢ ، ولكن ظل متحفظا ، وخاصة بعـد حملة الدعاية «الامريكية» الواسعة لانتحال الثورة والايحاء بأنها من صنع أمريكا · ·

القضـــية الاجتماعية

لم تكن القضية سنة ١٩٥٢ قضية وطنية فحسب ، ولكن كانت القضية الاجتماعية هى وجهها الاخر .

وكانت مصر مطمع الغزاة دائمـــا لموقعها الســـياسى والاستراتيجى ، ولكنها كانت مطمعهم ايضا لمواردها « لخصب ارضها ونيلها ووفرة خيراتها » ، ولهذا عانى الشعب المصـــرى كل انواع النهب والاستغلال ، كما عانى القهر والاستبداد .

وبعد الاحتلال خضع الشعب المصرى لاستغلال « ثلاثى » الاركان من :

١ ــ الراسمالية الاجنبية الاوربية عامـــة والبريطانية خاصة ، وكانت لها السيادة والسيطرة .

٢ ــ الاقطاع ، وكان اقطاعا متميـــزا ذا كيان وتاريخ وتطور خاص ، يختلف عن الاقطاع الاوربى او الاقطاع العثمانى .

٣ ــ والراسمالية المحلية ، وكانت ذات فئات واتجاهات وطبقات داخل الطبقة . وقد كان الراسمال الأجنبى بريطانيـــا اساسا ، ولكن الصراع الحاد من اجل مصر دفع بريطانيـــا تهدئة لثائرة الماليين الاوربيين الى منحهم نصيبا من « الســـوق » !

وكان الاقطاع المصرى اقطاعا عريضا متباينا ذا فئـــات وقطاعات مختلفة الاصول والجذور .

كان هناك الاقطاع التركي الشركسي من الاسرة المالكة التي تمتلك معظم الارض واخصبها ، ومن الارستقراطية الجديدة التي نمت حولها منذ محمد على .

وكان هناك اقطاع اجنبي يمثله كبار الملاك الاجانب ، الذين آلت اليهم مساحات كبيرة من الارض وخاصة في عصر الديون وبفضل الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة والبنوك ، وكان معظمها يستغل استغلالا اقطاعيا تقليديا بملاك غائبين في القاهرة او اوربا ..

وكان هناك اقطاع مصري خالص يمثله بعض الملاك المصريين الكبار ممن ارتفعوا الى مصاف هذه الطبقة ، وكان عددهم قليلا بالنسبة للفئتين الاخريين ، ومساحة ما يملكون اقل ، ولكن نفوذهم في الريف حيث كانوا اكثر التصاقا — كان واسعا !

وكان الركن الثالث للاستغلال هو الراسمالية المحلية المصرية ، وكانت طبقة ضعيفة اقتصاديا ومنقسمة مثل كل الراسماليات في البلاد المحتلة الى فئة تنضم « للاجانب » وتعمل معهم وكيلة وعميلة لتوزيع وترويج بضائعهم وسلعهم وخدمة رءوس اموالهم .

وفئة « وطنية » تحاول بصراع وجهد شاق ان تقيم اقتصادا وطنيا وتنشيء بعض الصناعات او تكون بعض البنوك او تنتزع بعض المواقع والمراكز الاقتصادية الاساسية من الاجانب ، وهذه هي الراسمالية الوطنية .

وتحت هذا الهرم الاستغلالي المثلث الطبقات كان يرسف الشعب : قاعدة عريضة واسعة متدرجة في التعاسة والشقاء ، كان متوسط دخل الفرد في مصر على حسب الاحصاءات الدولية الرسمية ٢٢ جنيها ، وهو اقل مستوى في العالم بعد الهند ، وكان هذا نعمة لمن يجده ، فقد كان هناك ما يقرب من سبعة

ملايين مصرى آخرين بلا دخل بذكر على الاطلاق ، ويمكن تقدير دخلهم على أحسن الاحوال بسبعة جنيهات فى العام ، وهو ما لا يمكن أن يسمى دخلا وما لا يكفل حياة يمكن باى حال ان توصف بأنها انسانية . كما قال احد التقارير الدولية ..

وقد بدأ غزو الراسمال الاجنبى ـ وهو المستغل الاول ـ فى الثلث الاخير من القرن الماضى ، وبلغ ذروته عن طريق القروض الاجنبية .

كانت الراسمالية الاوربية فى اوج ازدهارها ، وتبحث بحثا محموما عن ميادين لاستثمار الفائض الكبير من رءوس اموالها .

وابتدعت الراسماليه الاوروبية القروض للملوك والسلاطين ومهراجات البلاد الشرقية ، وهى قروض ضخمة تبدأ سهلة وتستغل الضعف أو الانحلال او الاعجاب البالغ بالحضارة الاوربية وضرورة محاكاتها ..

وحينما تصل حدها الاقصى ، ويبدأ الارتباك فى سدادها ـ تتدخل الدولة او الدول لتنظيم الاقتصاد ، ولاستيفاء حقوق الدائنين « المشروعة » فتبدأ السيطرة على الاقتصاد ثم على المصير كله !

وكان اول قرض عقدته مصر قرضا يسيرا بثلاثة ملايين جنيه ، عقده سعيد ، وكان البداية وانهالت بعده افواج المرابين والمقامرين والسماسرة لعرض القروض وبكل التسهيلات وكانت العروض اساسا للخديو ، ولكنها قدمت ايضا للباشوات والاعيان ، بل وللفلاحين .. وأصبح الاقتراض من الاجانب طريقا سهلا ومعروفا !

وقد وجد هؤلاء فى الخديو التالى اسماعيل كل ما يريدون ، كان اسماعيل « اميرا » كما تصور « ميكافيللى » وقد اراد ان

يشترى بالمال ويحقق بالحيلة ما اراد جده وابوه تحقيقه بالتحدى ..

وقد اشترى اسماعيل من السلطان العثمانى حق عقد القروض مع الدول الاجنبية سنة ١٨٧٢ مقابل (٩٠٠ر٠٠٠ جنيه رشوة دفعت شخصيا للسلطان و ٢٥ر٠٠٠ جنيه رشوة للصدر الاعظم و ١٥ر٠٠٠ جنيه رشوة لوزير الحربية ، و ٢٠ر٠٠٠ جنيه رشوة لموظفى السراى فى اسطنبول) .

وبعدها عقد قرضا كبيرا ، اكبر قرض عقده بمبلغ ٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه وبفائدة قدرها ٨٪ .

لم يتسلم اسماعيل من هذا القرض سوى ١١ر٧٥٠ر٠٠٠ جنيه فقط ، وذهب الباقى كله فى السمسرة ، ولهذا سميت « أكبر صفقة رابحة فى تاريخ القروض ، ولم يعرف تاريخ البنوك والقروض الحكومية صفقة كهذه » .

وبلغت ديون اسماعيل كلها بعدئذ ٩٠ مليون جنيه ولكنه لم يتسلم منها بالفعل سوى ٤٢ مليون جنيه ، وضاع الباقى بين السماسرة والوسطاء ، وسميت هذه القروض جميعها « اكبر عملية نصب وتدليس تمت فى القرن التاسع عشر ! »

واوضح سيمور كاى فى بحث نشر سنة ١٨٨٢ « ان مصر كانت قد دفعت حتى هذا العام جميع دينها الحقيقى اى المبالغ المقترضة بفائدة ٦٪ ومع ذلك ظلت مثقلة بدين رسمى قدره ٩٠ مليون جنيه » !

وبعد الارتباك أرسلت بريطانيا « بعثة » لاصلاح المالية برياسة بريطانى يدعى « كيف » وبعد قليل اشترطت ان يكون وزير المالية بريطانيا .. وعين ريفرز ويلسون !

وأدرك اسماعيل بعد فوات الوقت الفخ فقال : « اننى ما كنت اعتقد قط أن انجلترة ترمى بشرائها أسهم قناة السويس

وارسالها موظفا كبيرا لفحص حساباتي الى وضـــع يدها على مصـــــر ! » .

وقد فكر افتداء بترليـا فى ذلك الحين أن يعلن افلاس مصر وينجو ، ولكن هدده القنصل الفرنسى باسم القناصـــل جميعا بعزله بفرمان من السلطان وصاح اسماعيل :

« ما العمل اذا كنت لا استطيع الدفع ؟ ان مصر جلد على عظم ، ولا تظنوا انكم بوصع السكين على رقبتى تستطيعون ايجاد المـــوارد ! » .

ولكن وجدت الوزارة الاجنبية التى كان يراسـيــها نوبار والتى كان وزير ماليتها بريطانيا هو « ريفرز ويلسون » ووزيـر الاشغال فيها كان فرنسيا « دبلنر » ـ وجدت الوسيلة والموارد واستنزفت مصر !

وفى ســـنة ١٨٧٧ كانت ميزانيـــة الحكومة المصريــة ٩ر٥٤٣ر٠٠٠ جنيه دفع منها للدائنين ٧ر٤٧٣ر٩٠٩ جنيهات ولم يبق لكل الالتزامات والمسئوليات الداخلية سوى ١ر٠٧٠ر٠٠٠ جنيه بعد دفع الجزية للسلطان !

ووقع معظم العبء على الفلاحين ، واثار حتى ضمير القنصل البريطانى نفسه فكتب بعد دفـــع احد اقســـاط الفوائد الى حكومته :

« استوفيت امس كل الاموال المطلوبة لدفع الفوائد ، ولكن اخشى أن يكون هذا قد تم بثمن غال فاحش دفعه الفلاحون بكـسر ظهورهم : بيعت محصولاتهم المقبلة عنوة ، وانتزعت منهم الضرائب مقدما بالارهاب ، وانني لاخشى أن الادارة الاوروبيـــة تقضى من حيث لا تشعر على كل ثروة مصر الزراعيـــة .. ولا شـك اننا نتحمل نصيبا من هذه المسئولية الخطيرة » !

وكتب نفس القنصـــل مـرة أخرى .. « الخزينة خـاوية ، والموظفون لا يتقاضون مرتبات منذ زمن طويل ، والخديو ملح فى وقع بعض الظلم الواقع بأن يدفع الاوربيون بعض الضرائب » ..

وقد وضعت الحركة الوطنية مشروعا لتسديد الديون ، كان يكفل تسوية المشكلة واشترك الخديو مع « نواب الامة وممثليها » فى ضمانه ، ولكن الدول عدت هذا « اهانة » .

« وكان من الممكن حل المسألة المالية حلا عادلا منذ ١٨٧٦ ، ولكن المسألة بالنسبة للدول لم تكن مالية بل « كانت سياسية » كان الدين ذريعة للتدخل ثم للاحتلال » .

ثم عزل اسماعيل لانضمامه فى النهاية الى الوطنيين .

ومنذ تفاقم المشكلة المالية بدات الدعوة علنية فى الدوائر البريطانية لاحتلال مصر ، وكتب احد دعاة الامبراطورية « دايسي » مقالا يطلب فيه « ان تضع بريطانيا يدها على مصر مقابل تحمل مسئولية الوفاء بتعهدات مصر لدائنيها واصلاح الادارة المصرية » .

وقال ايضا : « يجب أن تنتهز بريطانيا هذه الفرصة التى لم تسنح منذ ٧٥ عاما ، وهى فرصة اشتغال فرنسا والمانيا فى صراعهما ، وامكان احتلال مصر دون خطر الحرب مع فرنسا ! »

ونفذت النصيحة ، ولكن بعد ذلك ببضع سنوات .. واحتلت مصر لتثبيت عرش الخديو ، ولاستيفاء فوائد الديون الاجنبية .. والمهمتان متكاملتان !

وقامت السياسة الاقتصادية البريطانية على ان تكون مصر بلدا زراعيا خالصا ، يتخصص فى محصول واحد هو القطن ، واكد خبراء الاقتصاد البريطانى أن مصر بلد زراعى بطبيعته وتاريخه ، وهو لا يصلح ابدا الا أن يكون بلدا زراعيا ، ولا يمكن أن يكون بلدا صناعيا !

وتنفيذا لهذه السياسة واثباتا لها اقفلت المصانع التى كانت قائمة قبل الاحتلال ، وبيعت الورش والمعامل والبواخر التى كانت ملكا للحكومة ، والغيت دار سك النقود ، وبيعت

مصانع النسيج واغلقت الترسانات والمسابك التى كانت باقية من عصر محمد على واسماعيل .

وحارب الاحتلال عيام أى صناعة وسمى المصنع « مكان مقلق للراحة ! » لابد من الحصول على ترخيص من وزارة الداخلية « لفتحه » ..

وحدث ان تأسس مصنعان للغزل والنسيج واحد بالقاهرة والآخر بالاسكندرية ، ولكن « فرضت الحكومة ضريبة على جميع المصنوعات القطنية قدرها ٨٪ وهى تعدل الرسوم الجمركية المفروضة على المستورد ، ولذلك بارت صناعة غزل القطن ونسجه » .

وكتب كرومر نفسه سنة ١٩٠٥ يقول : « ان الصناعات الأهلية تنقرض » !

وفتح الاحتلال أبواب مصر على مصراعيها للرأسمال الأجنبى ، وتدفق من كل مكان ، وفى حماية الاحتلال ، وفى حماية الامتيازات الاجنبية ، التى كانت تضع الأجنبى بشخصه وأمواله وارباحه فوق كل القوانين ، وتعفيه من كل الضرائب ، فسيطر على الحياة الاقتصادية كلها .

وكان الرأسمال البريطانى هو الرأسمال الأول على القمة ، وتاتى مصالحه اولا ، ولكن كان هناك الرأسمالى الأوربى الآخر « المنافس » ، الرأسمال الفرنسى والألمانى ، والبلجيكى .. الخ .. وكان ذلك ثمنا لقبولهم للاحتلال ، وبعد الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا اتسعت استثمارات الرأسمال الفرنسى خاصة .

وخدمة للرأسمالية الأوربية الكبيرة فتحت بريطانيا الطريق أمام الاوربيين الآخرين « أوربيى الدرجة الثانية » من شواطىء البحر الأبيض وجزره ، من اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، وكانت بريطانيا تحتاج اليهم حاجة ماسة وضرورية « فى اداء الأعمال القذرة » وهى التى لا يلوث البريطانيون أيديهم عادة

بالقيام بها مثل الحانات ونشر الخمر فى الريف ، واقراض الفلاحين بربا فاحش ، وجمع محصول القطن او السيطرة على اسعاره من الارض حتى ميناء التصـــدير .. وهى مهام تخصـص فيهـــا اليونانيون والمالطيون خاصة ..

وفى كل بلد احتلته بريطانيا كان لابد ان تخلق فئة او طبقة تستوردها او تستنبتها من أهل البلد ، وتجردها من كل انتماء وتسخرها لهذه الاعمال .

وقد دعمت بريطانيا وشجعت فئة ثالثة فى مصر .. هم « الليفانتيون » وكانوا خليطا من اقليات الامبراطورية العثمانية ، مسخهم الاستعمار ، فلم يعودوا شرقيين ولا غربيين ، واصبح ضمان وجودهم هو ولاؤهم الدائم للاحتلال ..

واستخدمتهم بريطانيا فى دعـم الاستـغلال الاقتصـــادى « والاعمال القـــذرة » وفى دعم « الادارة » حتى قال كرومر : « وبغيرهم كنا نستطيع احتـــلال مصر ، ولكن بغيـــرهم لم تكن نستطيع البقاء » . غير ان بريطانيا استخدمتهم فى ميدان اهم هو الاستعمار الثقافى ، وذلك لمعرفتهم لغة البلاد واحوالهـــا .. ووضعت الصحف والمجلات ووسائل النشر ومنابره الرئيسية فى أيديهم ..

ولكن الاوربيين من الدرجة الاولى او الثانية او الثالثة ، والليفانتيين يظلون على السطح وغرباء ، ولا بد ان يمدوا جذورهم بين الطبقات الحاكمة .. المحلية .

وقد كان أسلوبا تقليديا للبريطانيين بطـــول الامبراطورية وعرضها ان يكونوا طبقة من الاهالى وخاصة فى الموانى والمــــدن الساحلية يعملون سماسرة ووكلاء على النطاق الكبير لتصريف سلع الاستعمار ، ولحراسة أمواله واستثماراته . وقد سميت هذه الطبقة بالاسم الذى عرفت به فى الصين « الكومبرادور » ..

وكونت بريطانيا من الباشوات الذين خانوا الثورة أو من « الصعاليك » الذين انضموا للاحتلال وابدوه طبقة «كومبرادور» مصرية .. بدات قليلة ثم اتسعت ، واحتلت مناصبها في شركات وبنوك ، وفروع الاستثمار البريطاني والاوربي عامة ، وكونت ثروات كبيرة مكنتها ان تقيم نفوذا وسلطة .

وقد امدت هذه الطبقة بريطانيا بحكام ووزراء ورؤساء وزارات كونوا احزابا ومنظمات قامت من الارباح والعمولات ، وخدمت الاحتلال سياسيا واقتصاديا كل الخدمات .

ولكن الركيزة الاولى والاساسية للاحتلال كانت الاقطاع ، وقد جاءت بريطانيا الى مصر بدعوة منه واستغاثة ، لتثبيت عرش الخديو ولاعادة حكم الطبقة التى وقفت على حافة النهاية ، ولهذا كان الوفاء كاملا ومتبادلا .

الاقطاع هو الذى كان يستطيع بخبرته وقدرته ان يقمع ويحكم لحساب الاحتلال وهو ايضا الذى يستطيع ان يحقق الهدف الاقتصادى الاساسى وهو تحويل مصر الى مزرعة القطن الفاخر .

والاقطاع في مصر ذو تاريخ قديم وفريد بتنوع النظم واساليب الحكم التى توالت على مصر ، ولكنه اخذ مرحلته وصورته الاخيرة في عصر محمد على .

وقد قضى على اقطاع المماليك ، وعلى نظام الالتزام الذى كانوا يطبقونه ، واصبح هو المالك الوحيد لارض مصر ، ثم وزع الارض على اسرته ورجال الدولة والحكم في عصره ومن اشتركوا في تحقيق مشروعاته واحلامه ، وقامت ارستقراطية اقطاعية جديدة في مصر .

وتبدا بالاسرة المالكة من الامراء والنبلاء ثم الباشوات والبكوات ، ثم الاعيان .. وكانت غالبيتهم من الاتراك والشراكسة ولكن كان بينهم بعض المصريين ممن نبغوا في ذلك العصر ، أو ممن

كانوا فى الارض يخدمون زراعة الملاك الغائبين ، واســتولوا على نصيب منها ! وممن استفادوا من قانون سعيد بملكيــة الارض للفلاحين .

وحينما جاء الاحتلال أعاد صياغة هذه الطبقــة ، وقــام بتصفية الاقطاعيين والملاك الوطنيين الذين انضموا للثــورة . . ووزع أطيانهم على الآخرين .. خلق فئات جديــدة من دراويش التكايا ، أو « الاقلية » الطائفية او الأجانب لتقوم طبقة مواليــة له من ابناء البيوتات واصحاب المصالح الحقيقية ظلوا على ولائهم الى آخر لحظة ، حتى قال المندوب السامى البريطانى (اللنبى سنة ١٩٢٠) : « نستطيع ان نغادر مصر مطمئنين لان هناك طبقــة من ملاك الارض (الاعيان) على ولاء كامل لنا » .

ومع هذا اعلن الحكم البريطانى ، بالنفاق التقليدى انه جاء لمصلحة الفلاح ولتحريره ، واعلن أن الحكم « العــادل » الجديد يقوم باسم الفلاح وكل « أصحاب الجلاليب الزرقاء » كما سماهم كرومــــر .

وقد قام الحكم البريطانى ببعض اصلاحات يفاخر بها دائما المؤرخون البريطانيون ، وأنصار الاحتلال ، وكانت تبدو براقة لأول وهلة ، ولكنها كانت لصالح الطبقة الاقطاعية الجديدة أولا ، ولصالح مزرعة القطن الفاخر من أجل لانكشاير .

الغيت السخرة ونظمت الضرائب ، ووزعت مياه الرى لكى يظل الفلاحون فى الأرض ويعملوا ، ولا يهربوا منها او يتهــاونوا فى زراعتها .

وصدر قانون خمسة الأفدنة لحماية ملاك هذا القــدر من نزع ملكية ارضهم ، ولكنه كان قانونا لخلق طبقة ملاك صغار ، يكونون خط دفاع وحماية لملكية الملاك الــكبار .. ولخــدمة مصالحهم .. !

وبعد سبعين عاما من الاحتلال كان المجتمع الريفى .. مجتمع اصحاب الجلاليب الزرقاء يبدأ من قاعدة تضم ثلاثة ملايين او اربعة (ربما لم تكن هناك احصاءات دقيقة) من فائقى السكان ، بلا ارض ولا عمل ولا أمل ، معدمين فى الحضيض ، يعملون اذا عملوا بضعة اشهر او اسابيع فى السنة، وفى احط الأعمال واشقها ، مثل تطهير الترع والمصارف ، او تنقية حقول الارز او جمع القطن ، او اى اعمال فى « القاع » لايقوم بها احد ، وكانوا يتقاضون على هذا احط الاجور ، ولا ضابط ولا تحديد لها ، ويقاسمهم فيها مقاولو العمال الزراعيين ، وهم الذين كانوا يجمعونهم كالبهائم ، وينقلونهم الى حيث يطلبون للعمل ، او يتاجرون بهم تجارة لم تكن تختلف فى شيء ان لم تفق السخرة التى ظل الحكم البريطانى يفخر بالغائها ، وكان معظمهم ،يعيشون فى الريف مستسلمين للشقاء الدائم الذى يرسفون فيه ، والعمل « تراحيل » فى اى مكان ، وباى اجر ولأية مدة ، وبعضهم كان يدفعه الفقر واليأس الى الهجرة الى المدينة حيث ينتقل من اشق الاعمال فى الريف الى مثيلتها فى المدن ...!

وفوق هؤلاء كان هناك مليون ونصف المليون من الفلاحين لا يملكون اكثر من نصف فدان ، وهى مساحة من الأرض لا تكفى ان تعيش عليها اسرة طول العام ، ولهذا كان معظمهم يشارك الطبقة الاخرى المعدمة فى استكمال مايمكن ان يقيم اوده فى العمل لدى الآخرين .

وكان هناك اكثر من نصف مليون يملكون من نصف فدان الى فدان ..!

ومثل هذه الملكية الضئيلة المتناثرة التى تكون قاعدة الزراعة والمجتمع الزراعى المصرى لم تكن لتسمح بقيام اى زراعة علمية او عصرية او كبيرة ، ولم تكن لتسمح الا بزراعة متخلفة اشد

التخلف ، تعتمد على نفس الاساليب والوسائل التى كانت تستعمل منذ الفراعنة : ادوات فطرية وبدائية تتطلب أقصى الجهد ، وتغل اقل المحصول على حين تغيرت الزراعة واصبحت صناعة اكبر .

وعلى مثل هذا الاقتصاد الزراعى كان لابد ان يقوم مجتمع فقير فقرا مدقعا ، يضرب به المثل .

كانت القرية المصرية مضرب الامثال فى الفقر والقذارة ، مجرد جحور من الطين ، يسكنها الناس والبهائم معا ، وتحظى البهائم بالمكان الافضل (كما قال احد التقارير) . وكانت القرية المصرية ، محرومة من ابسر وسائل الحياة والمدنية لا ماء ولا كهرباء ولا مرافق ولا رعاية ، وكان متوسط عدد الامراض لدى الفلاح المصرى خمسة امراض ، وكانت الامراض المستوطنة وخاصة البلهارسيا والانكلستوما تستهلك صحته وشبابه .. وتقضى عليه فى النهاية .. وخلال الحرب مات ٢٠ الف فلاح بالملاريا ، وبعد الحرب مات عشرة آلاف بالكوليرا وفق احصاءات الحكومة !

وقد ظلت مساحة الارض المزروعة على ماهى عليه طول فترة الاحتلال تقريبا برغم زيادة عدد السكان وتضاعفهم باستمرار ، ولهذا كانت المأساة دائمة ، ويتحمل وطأتها اصحاب الجلاليب الزرقاء .

وفى الطرف الآخر من الهرم الاجتماعى « كان هناك الفا مالك » يمتلكون ٢٠٪ تقريبا من مساحة الارض اى مليونا وربع المليون تقريبا من الارض هى أجود الارض واخصبها ، وهؤلاء كانوا الأسرة المالكة وطبقة الأمراء والباشوات والاجانب الذين يتربعون على « القمة » .

وكان معظمهم ان لم يكن كلهم يعيشون فى القاهرة ، وفى الخارج احيانا « أوربا » ولا يعرفون عن اراضيهم وعن اموالهم

الا ما يقدمه لهم الوكلاء ونظار التفاتيش من ايرادات ، ولم يكن يعنيهم من الأرض او من يعيشون او يعملون عليها سوى الايرادات .

وكان هناك ...ر٣٢ مالك آخرون يملكون اكثر من ٢٥٪ من مساحة الارض المزروعة .. وملكيتهم بين مائتين وبين خمسين فدانا ، وهم كانوا اقطاعيين او شبه اقطاعيين صغار ، وكان بينهم الكثير من الاقطاعيين الوطنيين ، ولكن اساليبهم فى الاستغلال لم تكن تختلف بالنسبة للفلاح عن اساليب الآخرين وبرغم خصب الارض وامكان زراعتها أكثر من مرة فى العام ظلت الزراعة محصورة فى محصول واحد هو القطن ، يزرعه الاقطاعيون والفلاحون المصريون ، ويحمله التجار الأجانب الى الاسكندرية حيث يصدر الى مصانع لانكاشير .

لم يكن ممكنا الخروج على حصار القطن واحتكاره ولا يسمح الاحتلال بتنويع الزراعة او باستخدام الوسائل والسبل التى كانت تستخدم فى الزراعة ، فى بريطانيا .. لانها لاتناسب « البيئة » !

ومع هذا الفقر والشقاء والاستغلال بلا حدود ظل الفلاحون هم قاعدة الثورة والحركة الوطنية منذ بدات ثورة مصر ، ايام نابليون .. بالمقاومة الشعبية التى امتدت الى الريف ، واشتعلت فى كثير من ارجائه ..

وقد كان الريف بفلاحيه هو قاعدة الثورة العرابية ، وقعت وطأة الديون والبذخ على كاهل الفلاحين ، وادت الى سخطهم وثورتهم ، ودخل الريف والفلاح الى الثورة الوطنية الديمقراطية . وحرصت الثورة العرابية منذ البداية على مد الثورة الى الريف .. وتبرع الفلاحون رجالا ونساء بكل مااستطاعوا .. لأول مرة ظهر رجل يمثلهم « الباشا بتاعنا » وساروا وراءه ..

وكان الفلاحون هم قاعدة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وعليهم وقعت وطأة « السلطة » البريطانية خلال الحرب : انتزعت اكثر من مليون فلاح قسرا ووزعتهم للعمل فى اشق الأعمال فى مختلف ميادين الحرب الاوربية والعربية ، وانتزعت ايضا مواشيهم ومحصولاتهم وأموالهم سواء بالتبرع أو بابخس الأجور ، وبعد نهاية الحرب انفجر الريف ، وكان قاعدة الثورة وأساس الصمود .

وفى فترة مابين الحربين كان الريف هو عماد الحركة الوطنية وعماد الوفد .. كانت معاركه الكبرى وانتصاراته الكبرى هناك ..

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية .. بدات الوطنية تاخذ شكلا جديدا ليس مجرد الاستقلال التام ، وبدأ وعى الريف يتصاعد بالمشكلة الاجتماعية ومشكلة الارض .. ثم انفجر هذا الوعى فى عدة أحداث وحوادث صدام وعنف بين الفلاحين والاقطاعيين والملاك ، سواء كبار الاقطاعيين من الأسرة المالكة او كبار الاقطاعيين الوطنيين .

وقدمت حلول كثيرة ومعتدلة بل سطحية للمشكلة ، حلول لا تمس اى حق من الحقوق المكتسبة ، وتقفى بتحديد الملكية بالنسبة للملكيات المستجدة فقط .. واستصلاح الأرض وتوزيعها بنسب عادلة على المعدمين والفقراء ، ولكنها كلها رفضت بالاجماع، سواء من الملاك والاقطاعيين الوطنيين او غير الوطنين ، فازاء الفلاح او الأرض يعودون صفا واحدا متراصا ..

وصدرت الفتاوى الاقتصادية بأن أى مساس بنظام الأرض انما يؤدى الى كارثة اقتصادية ، وعززتها الفتاوى الدينية بانه كفر مخالف ومناقض لأحكام الدين .. ! ولم يقنع التمرد الذى حدث والانفجارات التى اخذت اشكالا عنيفة لاول مرة .. لم تقنع أصحاب السمو والسعادة ولم يستخلصوا منها اى عظة !

وبعد الرأسمالية الاجنبية الكبيرة والاقطاع – كانت تأتى فى المرتبة الثالثة ، الطبقة الوسطى « البورجوازية » .

والبورجوازية طبقة قديمة فى مصر ، وقد بدأت ونمت خلال طريق مختلف ! وكان نموها متوازيا ومقترنا مع نمو الاقطاع ، بل خرجت منه فى احيان كثيرة .

لم يحدث ما حدث فى اوربا : اقطاع يملك الثروة والسلطة التى تتركز فى ملكية الارض ومن عليها ، وجاءت بورجوازية جديدة نمت فى المدن ، وفى التجارة أو الصناعة ، ثم نازعت الاقطاع السلطة والثروة وانتزعتها منه ، ثم صاغت المجتمع والحياة بما يتفق مع مصالحها .. ومبادئها .

ولم تكن هذه هى الصورة هنا ، اذ كان الاقطاع مختلفا فى طبيعته وتطوره . وكذلك البورجوازية ايضا : كان الاقطاع المملوكى فى نفس الوقت زراعيا تجاريا عسكريا ، وكان المماليك امراء ارض وامراء حرب ، وامراء تجارة ، كانوا يسيطرون على طريق التجارة الرئيسى عبر الشرق والغرب ، وكانوا على صلات تجارية واسعة مع مدن اوربا التجارية ، وخاصة المدن الايطالية ، ومع اسواق آسيا وافريقيا الكبيرة .

ونمت لهذا حول هذه التجارة طبقة من التجار لكونت منها « بورجوازية » تجارية .. كانت تمارس قدرا من السلطة ومن النفوذ فى ظل المماليك ..

وحينما نزلت الحملة الفرنسية الى مصر وكانت تمثل الثورة الفرنسية التى استولى عليها نابليون ثار البحث بينه وبين قواده ومستشاريه : كيف تحكم مصر ؟ وعلى اى القوى والطبقات تعتمد فرنسا التى كانت تنوى البقاء زمنا طويلا ؟ وكان السؤال : هل تعتمد فرنسا على عمالة الشعب وعلى الجماهير ، وهى التى وجدتها الحملة مستغلة ومستعبدة ، والتى يمكن أن تنفذ اليها دعاوى الحملة بأنها جاءت لتحرير مصر من الطغيان .

وكان هذا رأى بعض ضباط الحملة « اليساريين » من بقايا « اليعاقبة » وعلى رأسهم الجنرال كفاريللى .. « الاشتراكى » وكان رأيهم « أن ٦ر٢ من المليون من سكان مصر البالغ عددهم ثلاثة ملايين من الفلاحين الفقراء المطحونين ، ولا بد ان يعتمد عليهم حكم « الثورة الفرنسية » ويكون لصالحهم .

ولكن كان رأى الضباط البورجوازيين ، وعلى رأسهم نابليون نفسه ان تعتمد فرنسا فى مصر على طبقة متوسطة « بورجوازية مصرية » كانت نواتها قائمة بالفعل من العلماء والتجار ، وعلى فرنسا ان تدعمها وتشجعها لتصبح بورجوازية موالية ، ومرتبطة تماما بفرنسا » وهذا افضل من الاعتماد على قاعدة جاهلة جائعة نزقة وغير مأمونة من الفلاحين ..

وكان التجار والعلماء .. والملاك الذين تولوا السلطة ، ووزع عليهم ما صودر من ثروة المماليك هم قوام الطبقة التى قرر نابليون أن يجتذبها ويعتمد عليها فى مصر !

ولكن البورجوازية والفلاحين والشعب عامة ما لبثـوا ان انقلبوا على نابليون والثورة « البذور » التى حملها جيش الثورة معه الى أرض مصر . وشبت ثورة ضد نابليون لعلهـا كانت امتدادا للثورة الفرنسية !

وبدأت المقاومة وأول حرب شعبية فى العصر الحديث ، ولم تهدأ حتى جلا الفرنسيون تماما ، وبدأ عصر آخر مختلف : عصر محمد على ، وكان لا بد للدولة المصرية الجديدة التى قرر محمد على اقامتها وبناءها من بورجوازية عصرية ، من أن تحمل تبعاتها ..

وقد أصبح محمد على الاقطاعى الأول بملكيته للأرض ، وأصبح البورجوازى الأول باحتكاره لكل الصناعة والتجارة ، وأصبح المحارب الأول بتكوينه للعسكرية المصرية الحديثة .

وتكونت فى عصره بورجوازية جديدة من أبناء الارستقراطية التركية الشركسية ، ومن أبناء الشعب (المصرى) ومن الاجانب

الشرقيين والعثمانيين .. كانت طليعة هؤلاء كلهم الشبان الذين ذهبوا فى بعثات متوالية الى اوربا للدراسة ولنقــل ما يمكن اقتباسه من عصر الثورات القومية البورجــوازية والتحــولات الصناعية والتكنولوجية الكبرى .. فى أوربا .

وكان هؤلاء المثقفون من الضباط والأطبـاء والمهندســين والاداريين والمفكرين هم القيادات « البورجـوازية » التى قامت بالمسئولية ، وكان حلمهم هو اقامة مملكة مصرية عربية اسلامية عصرية تحل فى الشرق محل الامبراطورية العثمانية ، وتعيـد امجاد مصر والعرب والاسلام بمقاييس وروح العصر !

واقامة الدولة القومية العصرية كان حلم « البورجوازية » وشعارها فى اوربا فى ذلك العصر .. وقد تشربه واراد تحقيقه هؤلاء المثقفون .

« بث التعليم والمدارس فى الاهالى روحا معنــوية جديدة ساعدت فى تكوين طبقة متوسطة متنورة من المصرى القح صارت ركنا فى تاريخ النهضة الحديثة » كما قال مؤرخ كبير .. ولكن قضت اوربا على هذا الحلم ..

كان قيام هذه الطبقة واقامتها لدولة صناعية عسكرية تقع على ملتقى الطرق الى آسيا وافريقيا اى اسواق العالم وموارد المواد الخام خطرا على اوربا كلها وفى عصر اطراد نمو الراسمالية وتطورها الى الاستعمار والامبريالية .

وقد دخلت الصناعة الكبيرة الى مصر فى عصر محمد على : الصناعة الثقيلة والخفيفة ، والصناعة المدنيـة والعسكرية .. « فاوريقات الاقمشة والمنسوجات » ومصانع السكر والصابون والزيوت ، ومعامل البارود والمواد الكيمائية ، ومسابك الحـديد ومعامل الأسلحة ومنهـا (معمل القلعـة) الذى قال عنـه الدوق دى راجوز : « انه يناظر احسن معامل فرنسا وارقاها » .

وقامت طبقة من العمال المهرة ، وكثير منهم تعلمــوا فى مصانع فرنسـا ، وعادوا ليحلوا محل الاخصائيين الأجانب .

« وكان منظر العامل المصرى أمام آلات حديثة تماما كالتى يقف امامها العامل الاوربى يدهش ويبهر » .

« وفى بعض المصانع كان العمال والمهندسون والمديرون جميعا مصريين خالصين لا يحتاجون لخَبرة اجنبية » .

ولكن الدولة العلية فى حقدها الأعمى على مصر و (محمد على) عقدت مع بريطانيا سنة ١٨٣٨ معاهدة « فتحت السوق » العثمانية كلها أمام بريطانيا وقررت اعفاء البضائع الانجليزية عند دخولها فى كل ارجاء الامبراطورية العثمانية من كل الضرائب والرسوم .

« واصبحت تجارة انجلترة لا تتمتع فى بلد من بلاد العالم بما تتمتع به فى تركيا ، والرعايا الانكليز لا يتميزون فى بلد على غيرهم بما يتميزون به فى بلاد السلطان ، على حين أن (محمد على) وحكومته لا يمكن أن يعطوا الانجليز هذه الامتيازات ، بل ان (محمد على) ينشىء المصانع وهو الآن يورد مصنوعاتها الى سورية » كما قال القنصل البريطانى .

وكان لا بد ان يقرر بالمريستون رئيس وزراء بريطانيا أن تركيا « هى افضل دولة تملك طريق الهند ، وهى افضل من اى ملك عربى .. طموح نشيط يريد العمل والحركة ، وعلينا ان نساعد السلطان » .

وقفت بريطانيا على أول محاولة لنمو البورجوازية المصرية .

ولكن قامت هذه « البورجوازية » المصرية مرة اخرى فى عصر اسماعيل ، وفى دور آخر وقع اسماعيل تحت وطأة الديون وفى قبضة الدائنين الاوربيين !

ووقعت وطأة هذه الديون على الفلاحين ، من الملاك والزارعين؟ وعلى « بورجوازية » المدن والريف سواء من التجار او الملاك او الضباط والموظفين ..

« كانت المحصولات تنتزع قهرا والنساء يبعن حليهن والمرابون يستولون على كل شيء » وكانت « المرتبات لا تدفع شهورا طويلة للموظفين او الضباط ، وكانت مرتبات الموظفين الاجانب الذين تكاثر عددهم تدفع بانتظام .. وبسخاء كبير » .

ولم تقم صناعة حقيقية ايام اسماعيل « ولم يوفق الوالى فى تحقيق أغراضه منها بالرغم من مجهوداته العظيمة ، فقد وقفت الدول امام اقامة صناعة واقتصاد صناعى ، بل وعملت على تخريب الصناعات القائمة ، وانشئت فاوريقة للورق سنة ١٨٧٤ وكان يرأس عمالها البالغ عددهم ٤٠٠ معلمون أوربيون ، ولكن امكنهم فى مدة وجيزة الاستغناء عن الاجانب ، وكانت هذه الفاوريقة تقوم بتوريد جميع الورق اللازم للمطبعة الاميرية ومصالح الحكومة ، ولكن ما لبثت ان اندثرت هذه الصناعة وصارت مصر تشترى الورق من الخارج » !

وفى عصر اسماعيل اكتسبت هذه البورجوازية المصرية وعيها الوطنى وارتفعت صيحة « مصر للمصريين » واكتسبت وعيها الدمقراطى ، واصبح مطلبا اساسيا لها الدستور والدمقراطية ، واكتسبت وعيها الاجتماعى والاقتصادى فى المعركة ضد المرابين والبنوك الأوربية ، وأدركت أن الراسمالية تغزو واستغلال اقتصادى يحارب باقامة اقتصاد وطنى ودعمه .

وقد انضم الى هذه الطبقة الباشوات المستنيرون « الليبراليون » بل انضم اليها اسماعيل فى أواخر ايامه ضد الاجانب ، كما انضم اليهم عدد من الامراء ..

وكانت الثورة العرابية بداية « التمهيد » الثورى للطبقة التى قامت بدور اساسى فى حياة مصر وكفاحها حتى سنة ١٩٥٢ »

وقد قضت الهزيمة على الحلم الوطنى « البورجوازى » فى اقامة الجمهورية الدستورية المصرية ..

تزعزعت قوائم الطبقة وكيانها ، وحدث التفسخ ، وانضم البعض الى المحتل ، وارتفع البعض الى مصاف البورجوازية الكبيرة الموالية .. ولكن على اية حال استؤنف الكفاح بعد الاحتلال بسنوات قليلة ولم يكن يتوقعه المحتلون ، وارتفعت صيحة (مصطفى كامل) مطالبة بالجلاء والاستقلال ، وارتفعت فى الوقت نفسه ايضا صيحة مكملة كانت صيحة (طلعت حرب) للتحرر والاستقلال الاقتصادى .

وظلت كلتا الصيحتين مجرد دعوة تنتشر بين الناس ، وظلت البورجوازية المصرية الوطنية صغيرة ومتوسطة لا تستطيع ان تقتحم ميادين الاقتصاد الحديث « الراسمالى » والصناعى حتى ثورة ١٩١٩ ، وكان لا بد ان تقترن الثورة الوطنية السياسية بثورة وطنية اقتصادية وثورة وطنية ثقافية ايضا .

وقد ساعد على نجاح البورجوازية المصرية فى انتزاع بعض الحقوق الاقتصادية ان الاستعمار البريطانى ادرك خلال الحرب العالمية الاولى حاجته الى اقامة صناعات محلية على الطرق الرئيسية للامبراطورية وان الراسمالية البريطانية رات منح بعض التنازلات للبورجوازية المصرية لتصرفها عن الثورة ..

وقام بنك مصر ..

وكان هذا اول نجاح اقتصادى للبورجوازية المصرية واكثرها أهمية وكان عليه ان يقود معركة شاقة لارساء أسس الصناعة ولدخول السوق المالية والصناعية والتجارية الكبيرة التى استاثر بها الاجانب ، وحاولوا حظر دخول المصريين اليها .

وفى الثلاثينات رفعت التعريفة الجمركية التى كانت مفروضة على مصر .. والتى كانت تجعل من المستحيل حماية الصناعة القومية المحلية .. ولهذا نمت الصناعة نموا مطردا وان ظل فى اطار محدود ..

وخلال الحرب العالمية الثانية نمت البورجوازية المصرية وخاصة الصناعية نموا سريعا ومطردا ، فان احتياجات الحرب واحتياجات السوق المحلية اصبحت تعتمد الى حد كبير على الانتاج المحلى ، وازدهرت الرأسمالية المصرية ..

ولكن الحرب اقترنت ايضا بنمو القوى الوطنية والشعبية ، واشتداد حدة المشكلة الوطنية ، بل اقترنت بحدث لا يقل اهمية هو تفاقم المشكلة الاجتماعية وخاصة المشكلة العمالية .. كان ذلك انعطافا فى الحركة الوطنية وموقفا جديدا فى حياة مصر وتاريخها .

ونمو الرأسمالية والبورجوازية الصناعية يؤدى بدوره الى نمو الطبقة الاخرى « الطبقة العاملة » غريمة الرأسمالية .

والطبقة العاملة المصرية عريقة فى تاريخها وفى تراثها .

وهى قد قامت منذ عصر (محمد على) ، وتحولت الطوائف الى عمال عصريين .. ولكن بالطبع لم يتح لها التكوين والتنظيم على الاسس النقابية والعمالية العصرية .

وقد تم هذا فى اواخر القرن الماضى ومن ذلك الحين كان دورها اساسيا ورئيسيا فى كفاح مصر الوطنى والاقتصادى ..

وقد قام العمال بدور رئيسى فى ثورة ١٩١٩ ، وكانوا من اعمدة التنظيمات السرية والضاربة .

وقام العمال كذلك بدور رئيسى بعدئذ فى الكفاح ضد استبداد السراى والاحتلال ، وكان كفاحهم ضد حكم احزاب الاقلية والاحزاب الموالية صفحة مشهودة ، وكفاح العمال هو الذى أدى فى النهاية الى اسقاط صدقى باشا .

وخلال الحرب نمت طبقة عاملة نموا سريعا مطردا .. واضطرت الرأسمالية المصرية بعدئذ الى ان تستجيب لبعض

مطالبها .. وصدر خلال الحرب أول قانون ينظم العلاقة بين العمال واصحاب الأعمال.. وقد صدر بعد معارضة شديدة وخاصة من الراسمالية الاجنبية ، واصدرته حكومة الوفد .. بجهد شديد ..

ووطنية الرأسماليين تظل فى اطار السياسة وتحقيق الاستقلال ، وهو يعنى الاستقلال والاستئثار بالسوق من الاجانب ، ولكنها تخبو وتذبل اذا ما أطلت المشكلة الاجتماعية ، واصبحت الوطنية تعنى ايضا تحرير خيرات وموارد البلاد ، لينعم بها أهلها وشعبها بلا تحيز .

بدأ الصراع الداخلى « الطبقى » وازاء تجاهل البورجوازية « الوطنية » له اشتد ، ثم انفجر فى سلسلة من الاضرابات كان اشدها اضراب عمال « المحلة » احدى شركات بنك مصر قلعة البورجوازية الوطنية المصرية !

وازاء الثورة الاجتماعية وخاصة فى البلاد المستعمرة والتى تخوض كفاحا وطنيا تنقسم البورجوازية انقساما آخر : الى الذين ينفصلون عن الثورة ، وتنتهى وطنيتهم ما دامت تمس مصالحهم ، ويفزعهم دخول العمال بمطالب اجتماعية ونموهم من طبقة تتبع قيادتهم « الوطنية » الى طبقة تريد المشاركة السياسية والاقتصادية ، والى الذين يظلون على وطنيتهم ويتطورون بها .

وقد شجع هذا الانقسام وجود استعمار جديد يفد لأول مرة الى المنطقة ، وكان يبحث عن حلفاء واصدقاء ، ويتلمس هؤلاء دائما فى الطبقات الوسطى وخاصة اذا كان لها ماض وطنى ، ومقابل مكاسب اكثر واسخى مما كان يستطيع الاستعمار القديم .

وكان الاستعمار الجديد يضخم الثورة الاجتماعية القادمة ، واخطارها وانها قد تقتلع كل شىء ، بالشيوعية ، وكان فى نفس الوقت يغرى برءوس اموال لا تجد من يستثمرها ويمكن

استثمارها فى مصر ، وهى رءوس اموال بترولية « عربية » أو رءوس اموال امريكية واسا من هناك ..

ولكن يظل من البورجوازية جنـــاح وطنى يواصل المسيرة وبشجع صموده ووطنيته ان الشعب كله يضطرم بالثورة ، ويدمغ بالخيانة اى تحالف مع اى استعمار جديد أو قديم ..

وقد انعكس الانقسام فى سياسة الوفد حزب البورجوازية الوطنية العتيد ، وفى تعثره بين الذين يريدون مهادنة القوى الرجعية فى الداخل والاستعمارية فى الخارج وبين الذين يريدون استمرار الثورة ..

ثم فشله ثم سقوطه ..

وازاء هذا الكيان الاجتماعى التخلف والمتفجر بالثـــورة .. كان لابد من برنامج اجتماعى للثورة الجديدة .. كان لا بد لتحقيق الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية من تصفية الاقطاع تصفية كاملة ومن الحد من سيطرة راس المال على الحكم ، وذلك بتصفية الراسمالية الكبيرة والعميلة باحتـــــواء البورجوازية الوطنية ، بمواجهة تناقضاتها .. كان لا بد من تحقيق الحد العاجل والادنى من مطالب الطبقات التى هى أشد احتياجا ـ أى الفلاحين والعمال ـ كانت الثورة الاجتماعية حتمية ولاصـــقة بالثورة الوطنية .. كان لا بد من هدم « الهرم » الطبقى القائم فى مصر منذ قرون ، وتغييره من الأساس ، ولأول مـــرة فى تاريخ مصر تتغير علاقات المجتمع الرئيسية ، وكان لا بد من كثير من الحكمة ازاء الواقع الداخلى والخارجى وازاء موازين القوى المطبقة فى الداخل والخارج ..

البطـــــل

قال الضابط الكبير ، احمد عرابى ، منذ ما يقرب من تسعين عاما :

« هل تظن ان مصر قد عقمت ولم تلد سوى هؤلاء ؟ ان مصر لم تعقم أبدا »

وقبل ان يموت عرابى باسابيع قال لبريطانى كان مهتما بان يسجل آخر احاديثه :

« سوف يأتى جيل بعدنا ، وسوف يفهمنى ، وسوف يحقق ما اردت وعجزت عنه » .

ولهذا كانت ثورة ٢٣ يوليو وكانت قيادة هذه الثورة « حدثا » محتوما و « مكتوبا » فى تاريخ مصر .

كانت المعارك والهزائم ثم المعارك وبلا نهاية ولا يأس لا بد ان تنتهى الى وقفة اخيرة ، وكانت التجارب والاخطاء ثم التجارب والاخطاء لا بد أن تتمخض يوما عن قوى وأن تنجب وتنضج قيادة تثأر ذات يوم للماضى وتحقق المستقبل .

كان لا مناص أن تقوم ثورة تتمم وتحقق كل الثورات ، وتقدم قيادة تحمل كل الخصائص والمقومات .

وقد نمت تلك القوى خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ..
كانت قوى جيل بأكمله تلا ثورة ١٩١٩ وعاش كل ازمتها وانتكاساتها ،
كان الجيل فلاحين وعمالا ومثقفين وضباطا وجنودا وكان
بورجوازيين وملاكا وطنيين وثوريين من كل اتجاه ، كل منهم
يفكر في ثورة بأي طريقة .. ثورة الجيل ، ولكل جيل في تاريخ
مصر مسيرته وثورته ، ولكن هؤلاء كانوا ثمرة كل السابقين ، وكان
يجمع بينهم تصميم واحد هو أن تكون الثورة القادمة هي الثورة
الحاسمة .

لن يتكرر ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى من ثورة
وانتكاسة وازمة ومساومة ، ثم انحلال وتدهور حتى الحضيض ،
لن يتكرر ما حدث قبل هذا وكل مرة وطول تاريخ مصر المعاصر
من ثورات ثم هزائم ثم شقاء وعناء والاعداد لثورة اخرى لا بد
ان تكون الفاصلة !

ومن كل هذه القوى « الحاسمة » الجديدة التصميم كان
لا بد ان يخرج قائد يمثلها ويعبر عنها ، ولا بد ان يكون تجسيدا
نموذجيا لارادتها واحلامها ..

ولهذا لا بد ان يكون فلاحا مصريا « قحا » وأصيلا من
صميم مصر .

ولا بد أن يكون صارما صلبا صلابة صخور الجرانيت التي
لاتتكسر والتي خلدت استمرار مصر وبقاءها .

وكان لا بد ان يكون خلافا خصبا خصب ارض مصر وتربتها
التي لا تنضب . وكان لا بد ان يكون أولا انسانا بعمق وعنف
آلام وشقاء مصر .

الآلام والاحزان من كل نوع ، والشقاء الذي يورث جيلا بعد
جيل وقرنا بعد قرن ، لا يفرغ ولا ينتهي .

كان لا بد ان يكون فارسا مقاتلا حتى الموت وبسيف هرقل ليواجه كل الاعداء الدين لا ييأسون والذين ينعدون من كل نقب وكل باب .

وكان لا بد أن يكون سياسيا حكيما يتفادى الضربات ويجتاز « المزالق » ويتخطى العواصف والاعاصير التى تهب من كل اتجاه .. ولا بد أن يصل لشاطىء النجاة .

كانت القيادة المنشودة قيادة عسكرية سياسية فكرية روحية تستطيع ان تحارب ، وتستطيع ان تساس ، وتستطيع ان تفكر وتستطيع ان تفعل وان تحقق ، وتستطيع أن تلهم مصر ، وتنفذ الى اعمق ثنية فى روح مصر ، بدفعها فى كل هذا ايمان عظيم هو مصر .. وقائد الثورة المصرية لا بد ان يكون ابنا عظيما لها ومعبرا عنها بوعيه وبفطرته وبالهامه وبكل حكمة مصر المختزنة فى نفسه ، ولكنه لا بد ان يعيش بنفس العمق روح العصر وان يعرف كل حقائقه ، ولا بد أن يمتد بافقه بعيدا الى اقصى مدى الى العالم القريب او البعيد المحيط بمصر ..

وقد فشلت ثورات مصر السابقة لسبب لم يتوافر ، أو لأكثر من هذه الأسباب ..

وقد كانت الثورة المصرية الاولى هى الثورة التى تلت جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر بعد الحملة والاحتلال القصير المدى ، وهى قد بدأت بانتفاضة القاهرة الاولى ثم الثانية ثم الجلاء ثم الثورة .

« كانت القاهرة تشبه باريس خلال الايام الاولى للثورة الفرنسية ، كما قال القنصل الفرنسى فى ذلك الحين .

وكان قائد تلك الثورة هو السيد عمر مكرم ، وكان عالما « مثقفا » مثاليا محترما جليلا ، ولهذا لم يستطع ان يبقى حتى النهاية قائدها .

وتقول القاعدة : « اذا كنت مثاليا بغير ان تكون واقعيـــا فسوف تكون خياليا ، واذا كنت واقعيا بغير أن تكون مثاليـــا فسوف تكون انتهازيا » .

وكان « السيد » اقرب الى النموذج الاول ، ولهذا كان سهلا وطبيعيا ان يستولى على الثورة وعلى القيادة مقـــاتل سياسى واقعى طموح ، هو « محمد على » •

وقد قدم « السيد » السلطة لهذا القائد باسم الشعب وكانت أول مرة فى الامبراطورية يختار شعب حاكمه ، ويفرضه بارادته ولا يرضى عنه بديلا .

وكان سهلا أيضا ان يخرج محمد على هذا « المثالى » عمر مكرم ، ويتخلص منه وان ياخذ الشيخ الجليل على خاطره ، وينزوى بلا مقاومة ويترك كل المكان فى تاريخ مصر •• للوالى الجديد •

ولو كان قد حدث وتولى « السيد » بنفسه السلطة او لو اختارت الثورة المصرية فى ذلك الحين فلاحا أو جنديا او زعيما مصريا من زعماء المقاومة لكانت القصة مختلفـة ، وربما لم يكن المصير ليختلف فلم تكن اوربا لتسمح بانتصار ثورة شعبية مصرية على اى حال ، ولكنه كان سيغدو اكثر اصالة ••

ولم يكن محمد على مجـــرد مغامر يريد أن يستقل بولاية من ولايات الامبراطورية كما كان شائعا فى ذلك العصر ، ولكنه كان امتدادا للثورة المصرية ربما بطريقـــة اقل « رادبكالية » وغير شعبية ، ولكن اكثر واقعية وعملية ••

وقد وجه محمد على « مد » الثورة لاقـامة مملكة عربيـــة اسلامية تبنى مجده الشخصى هو وعائلته بالطبع ، ولكنها تبنى ايضـا مملكة مصرية عربية اسلامية تقدمية بكل المقاييس التاريخية فى ذلك الحين .

ولا شك ــ كما يرى بعض المؤرخين « الثوريين » ــ ان محمد علي يستحق في تاريخ مصر مكانة بطرس الاكبر في تاريخ روسيا الذي فتح نوافذ روسيا على مدنية الغرب الحديثة والذي يمجده المؤرخون « السوفيت » المعاصرون .

ولهذا استحق (محمد على) اعجاب كارل ماركس وفريدريك انجلز اكبر المفكرين الثوريين في ذلك العصر ، وفي عصرنا ايضا .

وقد كانت ثورة (محمد على) اسبق وافضل بكثير من ثورة الميجى فى اليابان ..

وبعد الغزو الامريكي لليابان في منتصف القرن الماضي وارغامها على فتح ابوابها للتجارة قرر الامبراطور الجديد ان يختار عددا من ابناء الارستقراطية اليابانية وان يرسلهم الى كل مكان في الغرب ليعرفوا سر تفوقه وليعودوا به لليابان .

وذهب هؤلاء ونقلوا كل ما تعلموه من الغرب ، وبدأ بناء اليابان الجديدة .. ولكن لم تقم اليابان بمجرد معرفة السر ، وانما بسبب آخر قد يكون الاهم ، وهو ان دول الغرب وامريكا ارادت ان تقوم دولة عصرية قوية في الباسفيكى لتواجه وتوازن نفوذ روسيا القيصرية التى كانت تتوسع برا فى الصين وبحرا فى المحيط ، وكانت اليابان لهذا تحمل منذ نشأتها بذور « الفاشية » الامبريالية التي تضخمت بعدئذ .

ومن مصر ذهب قبل ذلك بكثير ابنــاء الارستقراطية والبورجوازية والشعب على السواء الى الغرب ليأتوا « بالسر » وجاءوا به ، واقاموا دولة قومية عصرية تقدميــة ، وليست امبراطورية معتدية ، ولكن الدول الكبرى التي تسامحت في قيام اليابان لم تكن لتسمح بأن تقوم دولة مماثلة في مصر ، ملتقى كل الطرق والمنافذ الى مشروعات ومطامع الاستعمار الحديث ..

وقد فشل محمد علي لانه لم يكن مصريا صميما ، وظل اجنبيا حتى لقد قال ابراهيم ابنه : « لقد غيرتنا شمس مصر

وصهرتنا » • وعرف محمد على واقع مصر وواقع العصر وغير تاريخ مصر ، ولكن بناءه ظل « بناء فوقيا »

وكان همه الاخير حينما انتهى كل شيء أن يبقى له ولأسرته من بعده « عرش مصر » وحكمها الوراثى ..

وقد فشـــل محـــمد على لانه اعتمد عـلى الارستقراطية والبورجوازية الجديدة التى كونها خلال حكمه من المصريين وغير المصريين ، أكثر مما اعتمد على النـــاس ، عامة النـــاس الذين اختاروه واليا عليهم .. ولم يطور المجالس والنظم التى بداها نابليون ، ولم ينقل من « ديمقراطية » اوربا وفكرها الســـياسى مثلما نقل من علومها وفنونها وصناعاتها ..

وبرغم « رؤيته » الدولية وبرغم وعيه الدقيـــق بالواقع الخارجى وحقائقه وبرغم استغلاله لمتناقضات هذا الواقع وصراعاته ، كاحسن ما يفعل حاكم لمصر ، فان ادراكه لم يكن كاملا ، ورؤيته لم تكن شاملة ..

وهو قد وثق فى فرنسا ثقة تكاد تكون كاملة ، وحينما طاب اليه ابنه ابراهيم ان يواصل الزحف حتى القسطنطينية وان يملى شروطه على الدول بالقوة وباللغـــة التى تفهمها خانته اعصابه وامره بأن يعود .. وكانت بداية النهاية • وعلى اى حال لم يكن ممكنا ان ينجح (محمد على) او ان ينتصر ، لأن الدول الكبرى التى كانت تسود العالم فى عصر ســـيادة الراسمالية والامبريالية قررت الا يبقى ، وتكاتفت للقضاء عليه فى معركة غير متكافئة لم تكن لتستطيعها مصر فى ذلك العصر ..

كان عرابى مختلفا .. كان عرابى مصريا « قحـــا » فلاحا محاربا سياسيا شعبيا يتمتع بالموهبة النادرة « الزعامة » وبايمان عامة وغالبيتهم ..

لاول مرة انجبت الأمة قائدا من لحمها ودمها يمارس الحرب والسياسة والتفكير ، ويبعث الروح ويستثير الحماسة فى كل

النفوس « الباشا بتاعنا » كما سمته الجماهير ٠٠ « والله ينصره » كما كانت الدعوة دائما له ٠٠

ولأول مرة فى الشرق اشتعلت ثورة وطنية تريد الخلاص من سوءات الشرق والغرب معا ، من الاستبداد والاستعمار والاستغلال على السواء ٠

وكانت الثورة الفرنسية نموذج عرابى ، وقد قرأ عنها كتابا أهداه له « سعيد باشا » وكان عن حياة نابليون بونابرت من طبع بيروت ٠

ومنذ ذلك الوقت تغيرت حياته وأفكاره ، ولكن « عرابى » ربما استلهم « يسار » تلك الثورة ، كما استلهم « محمد على » يمينها ٠٠

ولكن عرابى فشل أيضا ٠٠

ربما لأنه لم يكن علميا بما يكفى ادراك حقائق مصر الاساسية وحقائق العصر ، مما لا بد منه لقائد ثورة مصر ٠٠

وربما لأنه لم يكن ضارما بما يكفى ازاء القوى التى تقف معه أو التى تقف ضده على السواء ، كانت البورجوازية الوطنية التى تتصدر الثورة طبقة ناشئة تقوم بأول محاولاتها للثورة والتحدى ، وكان الفلاحون الذين تعتمد عليهم الثورة كقاعدتها يدخلون المسرح السياسى المصرى لأول مرة ، وكانت تعبئة هؤلاء وقيادتهم لثورة فى ذلك العصر تتطلب صرامة فى مواجهة الوحوش الكاسرة التى كانت متكالبة من الداخل والخارج ٠٠

فى مواجهة طبقة حاكمة شركسية تركية تمرست بالحكم والتآمر عبر تراث طويل ، طبقة قررت بيع نفسها للمستعمرين ثمنا لبقائها ، وفى مواجهة رأسمالية دولية واستعمار عالمى يملك كل القوى وكل الوسائل ، وهو يسود العالم ويتقاسمه ويتحكم

فيه كما يريد .. فى مواجهة هؤلاء كان عرابى يحتاج الى الصرامة والحسم تماما كما يحتاج اليهما فى مواجهة أنصاره وحلفائه داخل الثورة ، وعلى الأخص فى مواجهة باشاوات ومثقفين « ليبراليين » يؤيدون الثورة تأييدا محدودا ومتقلبا ، ويريد أكثرهم اصلاحات فى اطار النظام القائم ، لا ثورة تقلب وتغير كل شىء . وربما لو كان لدى عرابى بعض « صرامة » محمد على و « بطشه » لاستطاع ان يصفى الأعداء الداخليين قبل أن يستنجدوا بالأعداء الخارجيين ، ولاستطاع أن يجمع الأمة ويعبئها تعبئة حديدية ، ولاستطاع ان ينظم صفوف الحزب والجيش تنظيما ادق واحكم ..

ولكن عرابى كان فلاحا مصريا « طيبا » . كان يعيش مأساة مصر التى بلغت اقصاها فى ذلك الحين .. ولكنه كان لا يدرك الى أى مدى تحتاج هذه الآلام لاقتلاع أسبابها ، الى وجه آخر صارم لا يتأثر فى مواجهة أعداء بلا مبـــادىء ولا مثل وبكل الاسلحة !

وربما لم ينجح عرابى لأنه كان « محليا » ومحدودا سـواء فى ادراكه لطبيعة العصر وروحه أو فى معرفته بدقائق وحقـــائق الواقع الدولى والخارجى .

ولم يكن يدرك كما يجب صراعات العصر ومتناقضاته مثلمـا كان يدركها ويعرفها ويسخرها (محمد على) .

وهو لم يستغل الصراع بين بريطانيا وفرنسا الى اقصاه ، ويفيد من كل امكاناته ، ولم يستغل الصراع الآخر بين تركيـا والدول وخاصة حـــول مصر ، ولم يدرك لغة القرب المـــادية الميكافيلية الخالصة ، ولم يستطع استعمالها ، ولم تكن السياسة « الخارجية » العـرابية ديناميكية حيوية واقعيـة كما لا بد ان تكون سياسة « ثورة مصر » ..

وهو قد وثق أكثر من اللازم ببعض التقدميين البريطانيين والاجانب الذين انضموا للثورة .. والذين قدموا له صورة لم تكن كاملة للعالم الخارجي ثم صدق ديلسبس حينما اقنعه بالا يغلق القناة ، لأن المواثيق الدولية تحرم على بريطانيا استخدامها في الغزو .. وكانت النهاية .

. ففشل عرابي كان محتوما على اى حال . . ولم يسمح الاستعمار الذى كان في ذلك الحين السيد المطلق في العالم بأن تقوم دولة عصرية قوية ايام (محمد على) وهو لم يكن ليسمح بأن تقوم دولة عصرية وقوية وثورية يتزعمها فلاح مصرى تقدم نموذجا لشعوب الشرق في ذروة عصر الاستعمار ..

وكانت الثورة العرابية على أى حال اول عظة واول « تجربة وخطأ » للثورة التى كان لا بد أن تحدث وتنجح بعد ذلك بسبعين عاما ..

وقام « مصطفى كامل » ليوقظ مصر وليعيد الثقة ، ويمسح العار ، وليجمع شتات الشعب لجولة اخرى .

ومن حارة فى القاهرة خرج « البطل الرومانتيكى » يحمل نفيرا ، ويهيب بالناس بصوت عال يدوى أن يستيقظوا وان يستأنفوا الكفاح ، لأنه ، لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » وان مصر عظيمة وستظل عظيمة ، وان مصر خسرت ثورة ، ولم تخسر تاريخها !

كان صوت « الجيل الجديد » الذى انهزم آباؤه والذى قام ليرفض الهزيمة وليحمل مسئولية الخلاص .

وادرك مصطفى كامل بروح العصر ان الكفاح لا بد ان يعتمد على حزب وطنى يكون ادق .. وأحكم تنظيما من الحزب الوطنى السابق « العرابى » وان يجمع الأمة ، ويكون قيادتها وطليعتها ، فالف الحزب وأصدر الجرائد التى تعبر عنه .

وقد ابتكر البريطانيون ضد هذا الحزب السياسة التى طبقوها منذ ذلك الحين وهى « لعبة الاحزاب » . وضد الحزب الوطنى تألف حزب الامة ، ثم حزب الاصلاح ، ثم سلسلة أخرى من الاحزاب من كل نوع وفى كل الاتجاه .. وأغروا الصراع بينها : فكان حزب ضد حزب ، وزعيم ضد زعيم ، لتستهلك طاقات المصريين ، وتمسك بريطانيا كل الخيوط .. !

وكانت اللعبة أكثر دهاء من قدرة مصطفى كامل .

وكان مصطفى كامل يدرك أهمية الكفاح الخارجى واستغلال متناقضات وصراعات العصر ، ولكنه « برومانتيكية » لم يكن يدرك تماما طبيعة وحقائق ذلك الواقع الخارجى .. كان لا بد ان يستخدم الصراع التقليدى بين تركيا وبريطانيا ، ولكن تركيا كانت له فيما يبدو الخلافة والدولة العلية « الشرعية » وليست السلطنة المريضة المتآكلة والتى توشك ان تنهار ، والدولة التى خذلته بعدئذ باعترافها بمركز بريطانيا الخاص فى مصر ، والتى كانت على اى حال أعجز من أن تستطيع شيئا .

وكان لا بد ان يستخدم الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، ولكن فرنسا فى خياله كانت فرنسا « الثورة » وجولييت آدم وصالونات المثقفين والسياسيين الاحرار فى باريس ، ولم تكن الدولة الراسمالية الاستعمارية التى لا تقل سوءا عن بريطانيا والتى ما لبثت ان خذلته خذلانا اشد بمقايضة مصر لبريطانيا مقابل بلد عربى آخر هو مراكش ، وكان الاستعمار القديم « الفرنسى والبريطانى » يسوى خلافاته وصراعاته لمواجهة الاستعمار الجديد الألمانى فى ذلك الحين ..!

وقد يكون كثيرا أن يؤخذ على مصطفى كامل انه لم يكن واقعيا كما ينبغى ، قويا كما ينبغى ، ولم يكون حزبا « حديديا » ليسيطر على الحياة السياسية ، وليبطل قيام الاحزاب التى

قامت فى كنف الاحتلال ورعايته ، وبفسد منذ البداية اللعبة التى اضاعت الكثير من كفاح مصر ونضالها وهى لعبة الأحزاب . !

وقد يكون كثيرا ان يؤخذ على مصطفى كامل انه لم يكن اكثر واقعية فى الخارج ، ولم يستغل كل متناقضات العصر وصراعاته على أسس من حقائق العصر وطبيعته .

لم يستغل المتناقضات الاستعمارية بين الاستعمار البريطانى والفرنسى وبينهما وبين الاستعمار الالمانى ، وبين هؤلاء جميعا والامبراطورية المريضة العثمانية ..

وذلك لانه فى النهاية استخلص اهم الدروس ، وهو ان كفاح مصر لا بد ان يعتمد أساسا على شعب مصر وجماهير مصر ..

وذهب مصطفى كامل مبكرا جدا .. كومضة نور بددت الظلام ، واعادت الروح واختفت ..

وتسلم القيادة بعده محمد فريد ..

وكان محمد فريد أرستقراطيا مثاليا ونقيا كل النقاء ..

وكانت صراعات الداخل ومتناقضاته تشتد ، والقوى التى استيقظت كان نموها يطرد ..

دخلت الجماهير : الأفندية والعمال والفلاحون مرة أخرى ، وبخطا حثيثة — الى المعركة ، وبدأت ارهاصات الانتفاضة المقبلة تلوح ..

انطلق الرصاص ضد « الخونة » ، وسارت أولى المظاهرات الشعبية الكبيرة ، وساور الخوف والقلق ساسة الاحتلال ، وصاحوا « عرابى .. مرة أخرى » وبدأوا سياسة قمع جديدة ازاء « مارد » بدأ يصحو ويتقلب .. !

وكانت الثورة القادمة فى حاجة الى قيادة شعبية مناضلة تتمرس بالكفاح بين « الجماهير » ، وتعدها للمرحلة الجديدة للميدان الجديد فى الشارع .

وامتدادا لسياسة القمع حكم على محمد فريد بالسجن ، وفضل ان يغادر مصر ، وأن يتحدى الاحتلال بعدم التنفيذ ، وخرج ومن يومها فقد الصلة المباشرة بالواقع المصرى وبالقوى التى اطرد نموها ولكنها نمت بعيدا عنه ، وكافح بعيدا عنها مهما يكن من اجلها .

وقد عرف محمد فريد العالم الخارجي كما لم يعرفه زعيم مصرى ، وادرك القوى الحقيقية المعادية ، وكيف يمكن ومع من يجب التحالف او التعاون . ولكن لا تجدى هذه المعرفة بغير وجهها الآخر ،وهو معرفة واقع مصر ونبض مصر وقوى مصر الجديدة والانغماس فيها ، وربما لو بقى محمد فريد فى مصر وسجن وخرج ثم سجن .. ولو تقدم المظاهرات ونظمها وعاش بين الطلبة والعمال والفلاحين لظل زعيم الثورة .. ولكنه بقى بعيدا ..

وكان طبيعيا حينما انهمر الطوفان بعدئذ ان تبحث الثورة عن زعيم آخر وان تجده كاملا فى سعد زغلول .. زعيما للشعب وللشارع « ولى الفخر ان أكون زعيم الرعاع .. » الاسم الذى اطلقه الاحتلال وانصاره على جماهير الشعب ، وهى التى برزت لتصبح من يومها القوة السياسية الأولى والحاسمة فى تاريخ مصر وحققت « تعميدها » الكبير فى ثورة ١٩١٩ ..

وكان سعد زغلول ابنا للثورة العرابية ومتمما لها .. كان الفلاح الجبار العظيم الذى انجبته مصر والذى انتقته الارادة « الجماعية » لجماهير مصر ليقود ثورتها ، ولكن سعد زغلول ، مع هذا كان « محليا » . تغير العالم بعد الحرب العالمية الأولى تغيرات جذرية وجوهرية ولم يدرك كل مغزاها ، ولم يفد منها كل الفائدة الممكنة ، وقد استطاعت الامبريالية البريطانية

والامبريالية عامة ان تتغلب بعد بعض الوقت على ازماتها ، وان تثبت مواقعها ، وان تواجه الثورات والحركات الوطنية التى انتشرت فى المستعمرات ، وخاصة فى مصر والهند والصين وهى المواقع الرئيسية ..

وكان لا بد ان ينحسر المد الوطنى « لم ينهزم ولكنه انحسر » .

وفى مصر مارست الامبريالية البريطانية بدهاء وبراعة اكثر « لعبة الاحزاب » ، وزرع الشقاق فى الحركة الوطنية ..

ومع ان سعد زغلول استطاع ان يجعل من الوفد « الأمة » ، وان يجعل من الاحزاب الأخرى احزابا باهتة مكشوفة وان يهزمها هزائم ساحقة فى الحلبة السياسية ، الا أنها استهلكت الكثير من كفاح مصر وانحدرت به .

ولم يمش سعد طويلا ومات بعد ثمانى سنوات من توليه القيادة ، ذهب « العملاق » وترك الثورة فى انحسار والقيادة بلا « عبقرى » وروح عظيم آخر يخلفه .

وخلفه « مصطفى النحاس » .

وقاد الحركة الوطنية ربع قرن كامل تخللته فترة كالحة طويلة مملة هى فترة « بين الحربين » وكان عليه خلالها أن يحفظ ما يمكن ان يحفظه من وحدة الأمة ووحدة الحركة الوطنية حتى لا تتمزق تماما .

وكان عليه أن يحارب بها ضد السراى والاحتلال والاحزاب القديمة والجديدة وضد الاستدراج والاستسلام على مائدة المفاوضة والمساومة ، والانطواء فى الفلك البريطانى ، وكانت معركة سياسية مريرة .. كان لدى النحاس من الصلابة والعناد ما يؤهله لها وما مكنه ان ينجح .. ولم تسقط الحركة الوطنية ولم تنهزم وظلت قائمة وسائدة .. واختتم حياته السياسية

وكفاحه بالغاء المعاهدة وباعلانه الشعب أن الكفاح المسلح هو طريق التحرير الوحيد ..

ولكن النحاس كان محليا ومحدودا ودستوريا ، وتجاوزته قوى الثورة فى مصر ، كما تجاوزته طبيعة العصر ..

كان لا بد من قائد جديد ، وكان هناك فى ثورة مصر « دور هائم يبحث عن بطل » ..

لا بد من البطل الجديد ليقود الثورة الوطنيـــة والاجتماعية المصرية ، وليحققها كاملة فى عصر جديد مختلف :

فى عصر الثورة العالمية ..

وفى عصر الثورة الآسيوية الافريقية وانتصار الاشتراكية :

وفى عصر الثورة التكنولوجية والآلات المفكرة .

وفى عصر نهاية الامبريالية الاوروبية وبداية الامبرياليـــة الامريكية وعصر الحرب الباردة والاسلحة اللذرية .

ولكن على أن يكون أيضـا استمرارا لتاريخ مصر وتراثهـا ، وتكملة للماضى وبغير عيوبه ونقائصه ..

وكان لا بد لمصر التى لا تعقم أبدا أن تنجبه .

وخرج وادى الرسالة .

التحــدى والتغيير

لم يكن ممكنا للثورة الجديدة لكى تكون ثورة ان تدور فى أطار النظام القائم .. كان لا بد ان تحسم المشكلة الوطنية ، وان تواجه المشكلة الاجتماعية ، وان تطرد الاستعمار ، وان تغير الكيان الاجتماعى الظالم ، وهما مشكلتان مترابطتان متلاحمتان ، وتعتمد كل منهما على الأخرى .. لطرد الاستعمار لا بد من سحب الأرض من تحت اقدامه ، والقضـــاء على الطبقات والفئـات التى يعتمـد وجوده عليها .. ولتغيير اسس المجتمع لا بد من التخـلص من السند الأول للمجتمـــع القـــائم وهو الاحتــلال ... لهـذا كان لا بد أن تبدأ الثورة بقانون للاصلاح الزراعى . والمشـكلة الاولى التى تنبع منها وتعتمد عليها كل المشاكل ، هى الأرض . وأول قانون للتحرير والتغيير هو قانون الاصلاح الزراعى ..

كان القانون ضرورة وطنية بقدر ما هو ضرورة اجتماعية ، فالفلاحون هم الغالبية العظمى والغالبية المستغلة المستعبدة ، ولكى يمكن تعبئتهم للثورة ولكى تعتمد عليهم ، لا بد ان تطلق قواهم الكافية ، وأن تحررهم وتمنحهم الثقة والأمل ..

وكان الاقطاعيون هم الركيزة الاولى للاستعمار ، هم الذين يملكون ويحكمون عن طريقهم ، هم وسيلة التحكم والاستغلال ، هم

الذين يسيرون الدولة ، ويديرون مزرعة القطن ، وهم أساس التبعية السياسية ، وأساس التخلف الاقتصادي والاجتماعي فالثورة المصرية لا بد أن تبدأ بتصفية الاقطاع حتى تشن معركة حاسمة .

وكان عميد الطبقة وهو الملك قد سقط ، وكان لا بد أن تسقط معه وتتبعه الطبقة ، وأن تتم تصفيتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ..

وقد كان القانون « ثوريا » كان أول تغيير وانقلاب في الكيان الطبقي المصري وهي « جرم » الاستغلال .. لأول مرة في تاريخ مصر كله يسقط الاقطاع لمصلحة الشعب .

وقد كان القانون « انسانيا » واستمرارا لسياسة « الثورة بيضاء » وانها تمت بلا دم ويجب أن تستمر هكذا ، وقد ترك للاقطاعيين وابنائهم ثلاثمائة فدان ، وهي توفر أعلى مستوى للحياة .

وقد ترك القانون لهم الفرصة ليلائموا حياتهم اذا ما ارادوا الاندماج في المجتمع الجديد . والانتقال من ملاك غائبين أو غير مكترثين لا يعرفون عن أرضهم شيئا الى زارعين عصريين ومنتجين وأعضاء عاملين في المجتمع ..

وشجعهم القانون على ان يتحولوا الى ميادين استثمار اخرى .. تحتاج اليها البلاد اشد الحاجة . وقد قرر القانون التعويض مقابل الأرض التي يستولى عليها ، وكان هذا مما يدفع ويشجع على التحول الى الصناعة ..

وقد كان القانون واقعيا ، وكان سخاؤه هذا مما يشجع ويترك للاقطاعيين والملاك الكبار « الوطنيين » الفرصة ، اذا ما تغلبت وطنيتهم على طبقيتهم أن يظلوا في الحلف الوطني ، وأن يشاركوا في المعركة القادمة الحاسمة ضد الاستعمار ! واذا كان لا مناص من تصفية الاقطاع الموالي والاقطاع الأجنبي ، فلا بد

أيضا من احتواء الاقطاع الوطنى والاحتفاظ به داخل الحلف المقاوم للاستعمار ، وهز القـــانون الريف والأغلبية واستثـــار حماستهما ، وكانت حماسة من نوع جديد ، من الأعماق - ولكنه استفز « الذين يملكون » ودفعهم للمقاومة ..

ووجهت الثورة وفوجئت بالمقاومة من قوى وجهـــات لم تتوقعها ، ووجهت الثورة بالمقاومة داخل الحكومة التى اختارتها الثورة نفسها ..

وكانت الثورة منذ البداية قد قررت الا تحكم مباشرة . وأن تظل الثورة خارج السلطة . وأن تحرس الحكم ونزاهته ..

ورات الثورة ان تقوم حكومة انتقال اختارت لها احد رجال العهد القديم من الاقوياء الذين لا ينتمون الى حزب ما ، وذلك لتمهد الطريق لحكم وطنى ديمقـــراطى وحقيقى ، كان لا بد أن ينتهى الى حزب الأغلبية ، ولكن قاومت الوزارة القائمة مشروع الاصلاح الزراعى وبالطرق والأساليب السياسية القديمـــة بدأ رئيسـها ورجالها وتكتيل القوى مختلف القوى ، واعداد الحجج ضد القانون ، نفس الحجج القديمة « بعدم » اقتصادية وعـدم « شرعية القانون » وبأفضلية الضرائب التصاعدية ، وبدا واضحـا أن الرجل القوى الذى اختارته الثورة والذى عاش معظم حياته السياسية قوة معلقة تبحث عن سند يريد أن يجعل من الثورة أخيرا قوته ، وتنفيذ سياساته لا أن يعمل لها ولفترة محدودة !

وكانت المفاجأة الثانية هى معارضة حزب الأغلبية للمشروع ..

رفض الحزب الذى تألف تلقائيا فى خضم الثورة من الجماهير وتعبيرا عن ارادتها وثورتها ، الحزب الذى كانت قاعـدته الأولى والعظمى هى الفلاحين .. رفض قانون الاصلاح الزراعى ، وكان اعتماد الوفد فى كل كفاحه ونموه الســـياسى فى مظـــاهراته وانتخاباته ومعاركه ضد الاحتلال وضد السراى يبدأ من الفلاحين ويعتمد عليهم ..

وبهذا الرفض قضى الوفد على الفرصة الاخيرة التى بقيت له ، والتى هيأتهـــا له الثورة لكى يظل استمرار تاريخ مصر وكفاحها .

وفى الامتحان الحاسم بين الصالح الوطنى والصالح الطبقى سقط الوفد ، وكانت سقطته النهائية ، واصبح عبثا لا بد ان ينتهى من تاريخ مصر ، فقد اصبح « غير ذى موضوع » .

كانت القوى الاقطاعية هى المتحكمة ، وكان سكرتير الوفد « اقطاعيا » كبيرا وهو الذى قاد الحملة لرفض القانون ، وأمر وتمسك بهذا الرفض ..

ولم يستطع اليسار داخــل الحــزب أن يقـوم بالمحـاولة الجريئة والأخيرة للاستيلاء على الحزب ، واقصـــاء قيـاداته المتخلفة ، وتصحيح مواقعه ، وكان ذلك اليسار اضعف من ان يقوم بهذا الانقلاب ، بل كانت تنقصه وحدة الفكر والهدف ، التى تمنح القدرة على الحركة الفعالة ، كان حلقات تعثرت وتخبطت فيما بينها ، ثم غرق معظمها مع الحزب الذى سقط !

وكان اقطاع الوفد هو الاقطاع الوطنى ، ولكن فى المعركة الاجتماعية وازاء الفلاحين اتحد ووقف كل « الاقطاعيين » لم يكن هناك خلاف حول تقديس الاستغلال الذى يختفى وراء حق الملكية الاقطاعية ..

وكان على الثورة ان تستخلص كل الدروس وكل العظة ، وهى قد رسبت عميقة وغيرت مناهجها وكل خططها ، ان الثورة لا تستطيع تحقيق اهدافها « الثـورية » على يد احد غير الذين قاموا بالثورة ، ان القديم كله قد استهلك ، ويجب ان يذهب كله ، وان تاريخا جديدا ورجالا جددا وطرق حكم جديدة لا بد ان تبدأ وتسرى ، لا بد أن تحكم الثورة مباشرة ، وأن تتولى السلطة ، لتحقيق الثورة ..

لم يشأ حزب الاغلبية وكان الامل الباقى معلقا عليه ان يجدد نفسه ويظهر ويعيش صفحة جديدة وحقيقة من حياته ، ولكنه أراد ان يستولى على الثورة ، وان تصبح احد أجهزته وفى اطار النظام العام القائم وكشف الملاك والبورجوازيون الوطنيون التقليديون عن حقيقة « هذه الوطنية » وحدودها التى اصبحت بمقاييس العصر هزيلة ..

ولم تختلف القوى والتنظيمات السياسية الاخرى كثيرا فى موقفها من الثورة ، ولم تكن اكثر نضجا او وعيا ، لم تستطع اى واحدة منها ان تتخذ مواقف موضوعية ايجابية من القوة التى تمخضت عنها ثورة مصر . كان الطابع السائد هو القلق والشك ان لم يكن الحقد على قوة حققت الثورة التى لم يحققها احد منهم .

وكان موقف الاخوان المسلمين نموذجيا وهم قد رفضوا قانون الاصلاح الزراعى كما رفضه الوفد والحكومة ، واشتركوا فى مناورات مقاومته ، وقدموا كل الحجج والمعاذير الاسلامية لابطاله، ووراء هذا يختفى هدفهم الحقيقى وهو الاستيلاء على الثورة لتتبعهم وتصبح فرعا من جهازهم الخاص .. لا بد من اقامة « حكم اسلامى » لم يستطيعوا قط أن يوضحوا او يفصلوا معانيه او برامجه ..

وكان الاخوان قد تميزوا بالتعثر والتخبط فى كل المراحل وخلال كل المعارك ، وهم لم يستطيعوا فى اى فترة وطوال تاريخهم ان يقدموا خطة عمل ، ولم يقدموا ولم يكن لهم اى برنامج اسلامى متكامل ومتناسق لمواجهة المشاكل الوطنية والاجتماعية .

كان كفاحهم فاجزا وفى اكثر الاحيان صاخبا وارهابيا وليس حقيقيا ولا ثوريا ، وقد انتهى الاخوان الى أن يصبحوا دعاة واداة للكتلة الاسلامية ، وبعد اشتداد الحرب الباردة بين الكتلتين اصبح راى دعاة الكتلة الاسلامية هذه أن هذا ليس عصر مكافحة

الاستعمار أو الاستقلال أو عصر تحرير المسلمين من الاستعباد والاستبداد وهى الاعداء الحقيقية والتاريخية للمسلمين ، ولكن هذا عصر مكافحة الالحاد وعصر اتحاد المسلمين حول هذا الهدف بل اتحاد « اهل الكتاب » جميعا فيما يتهم من اجله واقـوى واغنى « اهل الكتاب » هى الولايات المتحدة الامريكية .

وكان ظهور قيادة ثورية جديدة وقيادة تتولى السلطة وتبدأ التغيير مما لا يترك دورا « للاخـــوان » ومما يبطل مشروعات الذين كانوا يوجهونهم ويسخرونهم ..

ولهذا كان لا بد أن يبدأ الصدام بين تنظيم مقلس مريب وثورة حقيقية !

وكانت التنظيمات الماركسية كثيرة ومتباينة ، وقدم كل منهـا تحليلا وتشخيصا مختلفا للثورة ..

ورأى بعض منها فى البداية انه يجب تأييد الثـورة الجديدة وضرورة السير معها ، وكان فى قيادة الثورة وفى أعلى مراكز « ماركسيون » يمثلون دورهم فى الملف الثورى ..

وكان المبدأ « اللينينى » الثابت هو تأييد الثورات الوطنية المعادية للاستعمار حتى لو كانت قيادتها « بورجوازية » . وهذه ثورة وطنية وتقدمية ذات محتوى اجتماعى وذات قيادة ليست « بورجوازية » تقليدية ولا مناص بالمنطق الماركسى من تأييدها .

ولكن هذا التأييد لم يستمر طويلا ، اذ لم يستطع التنظيم أن يخلق صيغة ملائمة ومبتكرة للعمل المشترك والتعايش مع الثورة وتقوم على حقيقة ميزان القوى ..

ولم يلبثوا ان استدرجـوا الى مزايدات ومغـــامرات التنظيمات الأخرى ، وكانت هذه التنظيمات الخالفة فى تفكيرها أكثر يسارية من اليسار ، وكانت انعكاسا وامتدادا لفكر « الحرب الباردة » والحرب الايديولوجية ، وهى التى ترى أن كل من لا

يفكر مثلنا فهو ضـــدنا ، وكل من ليس معنـــا أو يتبعنا فهو عدونا .

وكانت هذه التنظيمات قد اخترعت تفسيرات كثيرة مفتعلة لكل تاريخ مصر ولـكل مشـــاكل مصر . وبنت « خطـــوطا » و « مناهج » عمل وتشبثت بها .

ورات هذه التنظيمات ان الثورة الجديدة ليست ثورة باى حال ، وانها ليست سوى مؤامرة « انجلو امريكية » وانقلابا عسكريا لاجهاض الثورة الحقيقية ، وهى الثورة التى كانوا على وشك القيام بها والتى كان الشعب المصرى كله يتجمع ليسير وراء قيادتهم ..

وقد بدات هذه الثورة والقيادة منذ قيام لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ، وهى لجنة قامت بدور هام ، ولكنها لم تلبث ان تفتتت وتشتتت بعد ذلك باشهر قليلة ..

وقد راى هذا الجناح من الماركسيين فى قانون الاصـــلاح الزراعى تحقيقا للبرامج الامريكية ، وهى برامج ترمى الى القضاء على الاقطاع الموالى للاستعمار القديم لقيام راسمالية زراعية فى الريف تكون الحاقة بالاستعمار الجديد .. ولم يروا فيه قط خطوة نحو تحرير الوطن او تحرير الارض والفلاح ..

واحباطا لهذه المؤامرة الامريكية الشاملة ـ والتى تستهدف الشرق الاوسط كله ـ قامت هذه التنظيمـــات بالسعى لتعبئـــة « البروليتاريا » لاسقاط الديكتاتورية العســـكرية والفاشـــية الجديدة (فى نظرهم) مما ساهم فى احـــداث كفر الدوار .. « الاليمة » والى صدام دام بين العمال وقوات الامن ثم القـــوات المسلحة هناك ..

ولم يبق امام الثورة الا ان تتولى السلطة وان تمارسها بحزم فى مواجهة اقصى اليمين واقصى اليسار اللذين اتفقا معا ضد « الديكتاتورية العسكرية » ..

والغت الثورة الاحزاب ، واسقطت كل القيادات والتنظيمات القائمة ..

وربما كان الخير فيما فعلت الثورة ، اذ كانت كل الاحزاب قد استهلكت بعجزها وضيق افقها وتفكيرها قبل الثورة او بعدها وكان الوقت يحتاج الى فكر جديد خلاق ، والى تنظيم ينهض ويسمع كل القوى الجديدة ..

وفى الثورة العرابية تحالف الضباط الراديكاليون والباشوات والسادة « الليبراليون » وكان هذا من اهم اسباب تعثر الثورة وفشلها . والآن انتصرت الثورة وصفت كل القديم ، واصبح لها حرية ومطلق الحركة السياسية ، ولكن يبقى السؤال :

الم يكن افضل للثورة ان تفرق بدقة بين القيادات الطموحة والمتخلفة والانتهازية وبين القواعد البسيطة والرتيبة لهذه الاحزاب وما يتبعها من قيادات صغيرة وصادقة ؟ او لم يكن الافضل انتصفى الثورة القيادات والبرامج والافكار المتخلفة ، وان تستولى على القواعد وخاصة قواعد حزب الاغلبية ، وان تجمعها وتوحدها ، وتكون منها الحزب والتنظيم السياسى الجديد ؟

لقد كانت الغالبية العظمى للقواعد سواء فى حزب الاغلبية او الاخوان او التنظيمات الماركسية قواعد وطنية من العمال والفلاحين والمثقفين يبحثون عن طرق خلاص للوطن والمجتمع ، ويحلمون بحياة افضل لهم ولشعبهم .

وكان الغاء الاحزاب الغاء عاما ضربة لهذه القوى ، وجمدت الكثير منها وعزلته وابعدته ، او القت فى روعه أن عليه ان يبتعد .

وقد كان التراث الحزبى والسياسى فى مصر عميقا ، وحركة الجماهير السياسية ذات تراث بدا منذ الثورة العرابية ..

ولم تفرق الثورة بين فساد الحزبية فى مصر وضرورة الغاء الاحـزاب القائمـة فيهـا وبين ضرورات وفوائد النظام الحزبى عامة ..

وحينما قام تنظيم الثورة الجديد وهو « هيئة التحرير » بدا كانه قام فى وجه تلك الاحزاب وليس لممارسـة السياسـة الايجابية فى اجتذاب قواعدها وقيـاداتها الصغيرة ، وتلافى اخطائها وخلق البديل الافضل ، ولهذا ظل محدود الأثر .

ومن هذا الخطأ الاول تالفت اخطاء كثيرة وتفاقمت ..

كان اول الأخطاء اكبر الاخطاء !

على ان أهم النتائج لتولى الثورة للسلطة ولصدامهـا مع الاحزاب والتنظيمات .. كانت السياسة التى طبقتها واعتمدت عليها بعدئذ ودائما والتى لم يكن لها من طريق غيرها وهى الاتجاه مباشرة الى الجماهير والاتصال راسا بالشعب عن غير طريق احزاب او تنظيمات والذهاب والاحتكام الى العمال والفلاحين والمثقفين ومن بقى وطنيا من « البورجوازيين » ، فقد اقام هؤلاء جميعا السياج الذى حمى الثورة مباشرة ودائما ، ولم تقبـل الاحزاب والتنظيمات النتيجة ولا تتنازل الطبقـات الحاكمـة والاحزاب الممثلة لها وتسلم ، بل تتشبث وتستميت حتى النفس الاخير . .

ولا تختلف عنها التنظيمات او الاحزاب التى تعتقد انها بحكم قوانين التاريخ هى القيادة المختارة ولا قيادة سواها ، واى قيادة غيرها لا بد أن تكون غير حقيقية ومعتدية وغير جديرة ..

وتجمعت كل هذه القوى وقام حلف كان يقوم لأول مرة بين اطراف مختلفة أشد الاختلاف ، وهى اطراف حارب بعضها بعضا طويلا ، ولم يسبق ان اتفقت او تهـادنت من قبل او من اجل المعركة ضد الاسـتعمار ، ولكنها تحـالفت اليوم فى مواجهـة الثورة ..

واستطاع الحلف « غير المقدس » يومئذ أن يستدرج الكثير من الوطنيين وأن يلقي غشاوة على أعين كثيرين تحت شعارات الحرية والديمقراطية التي أغرقت بها الحياة السياسية يومئذ .

ونفذ الحلف الى صفوف الثورة وخلق انشقاقا داخلها ..
وكان « الضباط الأحرار » قد وضعوا على راس الثورة قيادة شكلية اختاروها لتكون واجهة ثورتهم ، وربما لتكون جسر استمرار واتصال ، ولكن تلك الواجهة القيادية كانت بتكوينها وبطبيعتها تنتمي الى النظام « القديم » ، ولا تستطيع أن ترى خلال الناس والاحداث ولا تؤمن بقدرة الثورة على المضي وحدها خطوات ابعد ، كان لها تاريخها العسكرى ، ولكن لم يكن لديها الوعي أو الأفق السياسي ورأت انه من الأفضل أن تسمى الثورة نهضة ولهذا عارضت الاصلاح الزراعي ، وارادت التفاهم مع الأحزاب والسياسيين القدامى باى ثمن ، بل رأت ان مكان مصر الطبيعي هو هو ويجب ان يظل مع الغرب .

واستدرج الحلف أيضا بعض العناصر الطيبة من الضباط الثوريين ومن المثقفين ممن لم يكونوا يتصورون الثورة بغير ديمقراطية ولكن لم يكونوا يومئذ يفرقون بين الديمقراطية كواجهة والديمقراطية كحقيقة والديمقراطية في ظل أحزاب تستخدمها للوصول للحكم والديمقراطية في اطار ثورة تغير وتحرر حياة الشعب ..

وأضرم الحلف الأزمة في مارس سنة ٥٤ ، وبدا للحظات ان كل شيء قد تهدد ، وان القوى المتخلفة والمتطرفة والمضللة توشك ان تنتصر وان عقارب الساعة توشك ان تعود للوراء ، ولكن هبت الجماهير وانضمت على الفور للثورة ، وأعلن الاضراب العام واسقطت الطبقة العاملة المؤامرة كلها ..

تحركت الجماهير وطليعتها وهم العمال — وتأكد يومها الالتصاق التام بين الشعب والثورة والذى امتد حتى يومى ٩

و ١٠ يونيو واسقط الشعب المحاولة اليائسة ، ولكنها كانت معركة عصيبة وحافلة بكل التناقضات ، وارتفعت فيها كل الشعارات واحتاجت الى كل الحزم ، كما احتاجت الى كل الحكمة والى ازالة البثور ولكن بغير جرح لجسم الامة أو وحدتها ..

وقد قادها الرجل الذى كان يستطيع قيادتها ، وكان قائد الثورة الحقيقى والذى عرفته الجماهير والتقيا من يومها لأول مرة ، ومن مارس سنة ١٩٥٤ بدأت مرحلة جديدة .. والثورة بوجهها وقيادتها الحقيقية انتصرت ، وسقطت آخر محاولة للنظام القديم .. وبدا عهد جديد تماما بدات الثورة به *

استعمار يذهب واستعمار يجيء

كان انتصار الثورة فى مارس ١٩٥٤ وبتأييد جماهير الشعب والعمال اساسا ـ نقطة تحول استخلص الاحتلال كل مغزاها ..

وكان البريطانيون واسعى الامل فى قدرة الاخوان ، و « كان المرشد العام (حسن الهضيبى) حريصا على علاقات الصداقة معنا » كما قال (انطونى ايدن) فى مذكراته ، ولكن ثبت عجزهم .

فشلت محاولة تعبئة القوى القديمة ضد الثورة ، وفشلت محاولة خلق الشقاق فى الثورة نفسها على الطريقة البريطانية التقليدية مع الاحزاب ، وقسمت الثورة الى معتدلين يتزعمهم القائد الشكلى الذى انهالت عليه صيحات الاعجاب واوصاف ونعوت الحكمة والاعتدال فى دوائر الغرب ، والى متطرفين بزعامة القائد الحقيقى للثورة الذى بدا الحذر والتوجس من القسمة الى راديكاليين « وليبراليين » داخل الثورة نفسها ..

وتأكد للاستعمار ان هناك ثورة واحدة يقودها واحد يقف معه الجيش والشعب . وبهذه الثورة تستطيع مصر شن معركة فاصلة ضد الاحتلال ، وهى لن تكون معركة متعثرة تقودها كتائب

مهلهلة ، مهما كانت بسالتها الا انها غير متكافئة ، ولكنها حرب تحرير حقيقية يشترك فيها الجيش كله والشعب كله ، ويرتدى فيها القائد « جلبابه » ليقود الجماهير والجنود معا ، حتى آخر نفس وحتى التحرير .

كان النظام الجديد فى مصر يستطيع « جعل وجود القوات البريطانية مستحيلا ، بل ويمكن أن يقتلهم من العطش قبل القتال اذا اراد » ، وذلك كما جاء فى تقرير بريطانى بعثت به القيــادة من قاعدة القناة .

وكان ايدن وزير الخارجية متشددا متشبثا منذ البداية ؛ وكان مصرا على الوجود العسكرى البريطانى وبشروط بريطانيا : ثورة او لا ثورة لا بد ان تظل بريطانيا ، وان تكون الدولة الأولى فى كل المنطقة ، ولكنه ما لبث ان اقتنع بتغير الظروف والأحوال وضرورة التنازل والاذعان .

كان ايدن يمثل المحافظين المتشبثين بالامبراطورية ، وبدون بريطانيا فى كل مناطق نفوذ او مستعمرات بريطانيا وخاصة فى الشرق الأوسط الذى اصبحت اهميته الاقتصادية والاستراتيجية اشد حيوية واكثر ضرورة لبريطانيا منها فى اى عهد مضى .

واذا كانت مصر فى رايه هى مفتاح البقاء والوجود فى الشرق الأوسط فلا بد ان تظل بريطانيا الدولة الغربية الأولى فيها ، وان يظل وجودها هو الوجود الرئيسى .

وكان الديمقراطيون الأمريكيون فى عهد ترومان واتشيسون يتسامحون قليلا فى هذا الصدد ، كانت حاجة الولايات المتحدة الى دعم الحلف الأوربى وكانت خبرة الأمريكيين فى السياسة الدولية محدودة ، وكانوا فى حاجة الى تراث بريطانيا .. ودهائها .. وخبرة اجهزتها وقدرتها ..

وبعد الثـورة المصرية مبــاشرة اكد اتشيسون للبريطانيين وطمأن ايدن ان امريكا لن تعقــد اى اتفاق مع الثورة المصرية ،

ولن تقدم أية معونة الا بعد تسليم المصريين بحقوق بريطانيـا واتفاقهم اتفاقا ترضى عنه .

ولم يكن هذا ليمنع ايدن من الشكوى الدائمة من الدبلوماسية الامريكية فى القاهرة ومن تصرفات الدبلوماسيين الأمريكيين فى القاهرة وخاصة السفير « جيفرسون كافرى » وتصاعدت الشكوى حتى لقد طلب نقله من منصبه .

وكان « جيفرسون كافرى » بعد فشله فى تدبير انقلاب عسكرى « امريكى » فى القاهرة يسعى جاهدا للنفوذ الى صفوف الثورة وللايهام بأن كل ما حدث كان بعلمه ان لم يكن بتدبيره وتوجيهه ..

وكان بعض رجاله لا يخلون بمهاجمة السياسة البريطانية وبتملق المطالب الوطنية المصرية ، بل وصل الحد « الى اتهام الوجود البريطانى فى مصر بأنه استعمار » كما قال السفير البريطانى فى القاهرة فى رسالة شكوى الى ايدن احنقته كثيرا .. !

ولكن جاء الجمهوريون الى الحكم سنة ١٩٥٢ وجاء فى وزارة الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس ، وكان ايدن يعرفه جيدا حتى لقد نصح ايزنهاور بصراحة بألا يختاره وزيرا للخارجية .

كان دالاس لا يثق أبدا بالبريطانيين ويمقت ايدن بشكل خاص بسبب تشبثه بالامبراطورية البريطانية وبدور بريطانيا الاول ، وكان يحتقر الفرنسيين ، ويرى انهم يجب ان يؤمروا فيطيعوا ، وكان يؤمن ويعجب اشد الاعجاب بالالمان وحدهم ، ويرى أنهم الوحيدون الذين يمكن الاعتماد عليهم فى أوربا وفى غير أوربا ، وكان أقرب الزعماء الاوربيين الى قلبه هو أديناور مستشار المانيا الغربية « ورجله » فى أوربا .

وبدا واضحا ان برنامج دالاس سوف يبدا بتصفية النفوذ البريطانى والفرنسى عامة وفى الشرق الاوسط خاصة ، وذلك

لتحل امريكا محلهما ، وتعمل عن طريق حلفائهـا المخلصين وهم الالمان الغربيون اولا .

ورأى ايدن لهذا انه لا مناص من الاسراع بالاتفاق والتسوية مع مصر ، فقد اتحدت الظروف الداخلية والخارجية لتحتم توقيع اتفاقية الجلاء ، وكانت افضل الشروط فى أفضل الظروف .

وتمت التسوية الأخيرة لحساب مصر مع بريطانيا ، وهو حساب سبعين عاما استنزفت فيها مصر وكبلت بكل القيـود ، وحجبت عن التاريخ ، وعطلت مسيرتها ومواهبها .

وانتصر اخيرا الكفاح الذى واصلته الملايين جيلا بعد جيـل والذى سقط من اجله صفوف الشهداء من معركة التل الكبير سنة ١٨٨٢ حتى معركة الكتائب سنة ١٩٥١ حتى طلائع الكفاح الجديد الذى اقنع الاحتلال ان لا جدوى من البقاء وان لا مناص من الانسحاب .

ولكن لم تكد مصر تسوى هذا الحساب القديم الاليم حتى واجهت الوافد الجديد الذى لم يترك وقتا لمصر لتلتقط انفاسها وتفرح بانتصارها .

كان الجمهوريون قد جاءوا الى الحكم فى أمريكا بعد غيبة طويلة امتدت ما يقرب من عشرين عاما منذ تولى روزفلت السلطة خلال الازمة الأمريكية الكبرى فى الثلاثينيات .

وكان الجمهوريون يريدون لحكمهم ان يمتد مدة مشابهة ، وان يسجلوا صفحة فذة وفريدة فى تاريخ أمريكا وأن يقـدموا نموذجا فى كيفية توطيد الدعائم لعصر السيادة والقرن الامريكى.

وكان وزير الخارجية الجديد والسلطة الحقيقية هو جون فوستر دالاس احد محامى الشركات والاحتكارات الكبيرة ، ويحمل طبيعة مبشر متعصب ، ويرى فى نفسه مبعوث عنـاية لانقاذ العصر من اغلال الشيطان .. وهذا الشـيطان واحـد هو الشيوعية !

وكان يرى أن سياسة الديمقراطيين الخارجية التى عرفت باسم الاحتواء سياسة سلبية لم تحقق شيئا ..

وكانت هذه السياسة تعنى حصار روسيا وتطويقها والانتظار حتى تتفجر المتناقضات داخلها ثم تنهار ..

ولم تؤد هذه السياسة فى رأى دالاس الى تفجر المتناقضات، بل على العكس صنعت روسيا القنبلة الذرية وانتصرت الثورة فى الصين ، وامتد المعسكر من برلين الى بكين وهو يهدد بالامتداد باطراد ، ولا بد من سياسة « ردع » و « صد » و « طى » تكون أكثر فاعلية وايجابية من مجرد الاحتواء .

ورفع دالاس لهذا شعارا دارت حوله سياساته هو « من الاحتواء الى التحرير » .

وبمقتضى هذه السياسة لا بد من احكام الحصار حول المعسكر وخاصة اهم دوله وهى روسيا والصين ، ولا بد أن يكون هذا الحصار ايجابيا أى يخلق المشاكل ويذكى المصاعب والمتاعب ، ويدفع تفجير المتناقضات حتى اذا ما عمت وسادت تتقدم الولايات المتحدة وهى متأهبة مستعدة لتكمل المهمة ولتحرر الشعوب الاسيرة التى اسرها الشيطان والتى اختار الله الولايات المتحدة وحدها بقيادة دالاس لانقاذها !

وتبدأ هذه السياسة — لا بد — باحكام السيطرة على أوربا ، وكان دالاس يرى ذلك باعادة تسليح المانيا وضمها الى حلف الاطلنطى ، لتكون قوته الأولى ، واذا ما تململت فرنسا أو عارضت تجبر وترغم ارغاما على قبول الأمر ، وكان يرى كسر أنف بريطانيا وفريق المحافظين الذين يتزعمهم ايدن ، والذين كانوا يتطلعون الى أن يحتلوا « المقام الخاص » فى الحلف الغربى ، وأن يكونوا شركاء « أوائل » فى الحلف لا مجرد أعضاء تابعين !

ومن أوربا تمتد هذه السياسة الى آسيا عبر الجسر الطبيعى الذى يربط القارتين وهو الشرق الأوسط ، ولا بد أن يغدو الشرق

الاوسط قاعدة « احتواء وتحرير » امامية ، لانه اصلح المناطق وانسبها ، وهو على الحدود المباشرة والقريبة للصين والاتحاد السوفييتي ، ويمتد من باكستان فى قلب آسيا حتى تركيا ومصر فى شرق البحر الابيض !

ومن الشرق الاوسط يمكن اذكاء الصراعات وتفجير المتناقضات واعداد القوات لساعة الصفر ، ساعة التحرير ..

ولم يكن حلف الشرق الاوسط .. فكرة جديدة ، فقد تقدمت به الولايات المتحدة فى عهد الديمقراطيين وفى صورة حلف رباعى من مصر وتركيا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ولكن مصر رفضته فى ذلك الحين رفضا باتا ، وقرر الجمهوريون وفق خطة دالاس بعث المشروع فى صورة جديدة لا يمكن ان ترفض وذلك بقيام حلف للشرق الاوسط يمتد من كراتشى للقاهرة ، ويضم كل دول المنطقة بالشرق الاوسط بمعناه التقليـــدى البريطانى ، وتكون باكستان ملتقى يمتد منها حلف آخر آسيوى للشرق الاقصى يبدأ منها وينتهى الى الفلبين ، ويحكم حصار الصين ويطوقها ، ويسمى حلف جنوب شرقى آسيا ، وكان ذلك قمة ما سمى جنون الاحلاف « الباكتومانيا » !.

وكانت مصر فى قلب هذه السياسة ، مصر وهى مفتـــاح الشرق الاوسط كما قال ايدن ، وعنق العالم كما قال ايزنهاور ، واذا ما امسكت الولايات المتحـــدة بالعنـــق .. واذا ما انضمت الثورة الجديدة فى مصر الى هذه السياسة لقيت نجاحها ..

وجاء « دالاس » بنفسه الى مصر مبكرا سنة ١٩٥٣ ، وجاء يحمل الفكرة ، ويحمل معه سيف « المعز » وحفنة من ذهبه .. !

ولكن كانت سياسة دالاس تحمل كل الاحتمالات واخطرها ، وكانت خطورتها ان لم تكن حماقتها فى أنها جاءت بعد ثلاث سنين من الحرب الدامية فى كوريا ، وقد اختبرت فيها الولايات المتحدة قدرتها على « التحرير » كاملة ، وجاء الجمهوريون الى

الحكم بشعار انهاء هذه الحرب وكانت حربا « قصمت ظهر امريكا » . « ولاول مرة هزمت ولم تنتصر امريكا » كما قال الجنرال مارك كلارك .

ولكن لم يستخلص دالاس اية عظة .

وكما جاء دالاس الى القاهرة ذهب الى كل البلاد التى على طريق احزمة الحصار ليقنعها أو ليخضعها لسياساته ومشروعاته .. كانت أول مرة يخرج فيها وزير خارجية امريكا فى هذه الرحلة الطويلة فى الشرق « ليبدأ حربا صليبية جديدة » - كما قيل - ضد الشيطان !

وكان لبعض هذه الدول راى آخر وقد اقلقها وافزعها هذا الأسلوب الجديد « الأرهابى » .

كانت الهند قد اختارت بعد الاستقلال سياسة خارجية اطلقت عليها « الحياد الايجابى » .

وكانت فى رايها السياسة التى تتفق مع مبادئها ومصالحها معا .

وبعد استعباد طويل كانت الهند تريد أن تمارس سيادتها الداخلية والخارجية كاملة .

وكانت الهند تؤمن بالسلام لتبنى حياة جديدة لشعبها المحروم ، وكانت لا تريد الحرب ، ولا تستطيع الحرب ، وترى انه لا ينبغى ان تتورط فى حرب باردة او ساخنة ولا تنتمى الى كتلة تواجه أو تعادى كتلة أخرى .

والهند دولة ضخمة فى آسيا فى قلب آسيا ، وتمسك موازين القوى فيها .

وفى قارة تشتعل بالثورات الوطنية التحررية لا تملك أن تسلك سياسة معادية ، لاية من القوى الآسيوية الكبرى ، وهى الصين وروسيا واليابان ، والهند نفسها قارة تحفل بكل الصراعات

والتناقضات الدينية والطائفية والاقليمية والطبقية ، ولا بد لها من سياسة سلام تحقق لها السلام والتعايش من مختلف القوى فى الداخل .

والهند دولة متخلفة بالغة التخلف ، كانت تسعى لأن تحصل على ما يمكن ان تحصل عليه من مساعدات ومعونات من كل طرف بلا تحيز وبقدر ضخامة حاجتها ، وهى لهـــذا لم تكن تستطيع ان تنحاز لطرف وتحرم نفسها من مساعدات الطـرف الآخر .

وقد حذت حـــذو الهند فى السياسة الخـارجية ولنفس الأسباب تقريبا اندونيسيا وبورما ، وبدت دعوة عدم الانحيـاز دعوة طبيعية ومنطقية اجتذبت الشعوب الآسيوية . وفى عصر الكتل والدول « العظمى » لا يكفى سيادة الحياد وعدم الانحياز ولا يحميها ان تؤمن بها ثلاث دول آسيوية فقط مهما تكن مكانتها ، فلكى تقوم هذه السياسة لا بد ان تعتنقها كل الدول التى تستقل وتتحرر لتقوم منها كلها مجموعة متضامنة ، لتستطيع ان تقف معا وتحمى سيادتها وسلامها ، بل تمنع الصدام بين الكتلتين بان تبعد كلا منهما ما امكن عن الاخرى ، وهى بهـذا تقـدم نموذجا جديدا للعلاقات بين الدول فى هذا العصر الحـافل بالتغيرات والتقلبات !

وقد كانت هذه السياسة تتعارض تماما بل تقف حجر عثرة أمام سياسات ومشروعات دالاس الذى رفض الحياد واستنكره تماما معلنا « انه لا حياد بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الله والشيطان » ومصرا بلا تورع ان حياد زعماء هذه الدول جهل وقصور من الزعماء الآسيويين وعمى عن رؤية الخطر المحدق بهم وعلى ابوابهم .

وقد اقلقت هذه السياسة أكثر ما اقلقت « نهرو » فى الهند خاصة ، وقد اختار « دالاس » باكســـتان لتكون « محطـــة

الاحلاف » الرئيسية ، واليها ينتهى حلف الشرق الاوسط ، ومنها يبدا حلف جنوب شرقى آسيا . وكان الاقطاعيون وكبار الموظفين والائمة وجنرالات الجيش البريطانى السابقون فى باكستان ، قد نقلوا ولاءهم بعد خدمة طويلة متفانية من بريطانيا للولايات المتحدة .

وردا على سياسات « دالاس » ووقاية منها رات الهند واندونيسيا وبورما انه لا حل فى مواجهة سياسة « الباكتومانيا » وجنون الاحلاف سوى الدعوة الى عمل جماعى جديد آسيوى افريقى تشترك فيه كل الدول التى تحررت وكل الدول التى تجاهد فى سبيل التحرر حتى لا تدخل اجلافا او تصبح مجرد قواعد وحلقات فى احزمة ..

وكان موقف مصر فى هذه الدعوة اساسيا وحاسما تترتب عليه اخطر النتائج .. مصر هى الجسر السياسى والاستراتيجى بين آسيا وافريقيا وبين الثورة الآسيوية والثورة العربية والافريقية .

واذا ما اختارت مصر سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز فلن يقوم حلف الشرق الاوسط ، واذا لم يقم سقطت الحلقة الرئيسية فى سياسات دالاس ، ولا يمكن أن يقوم حلف جنوب آسيا الا فى صورة هزيلة ، واذا ما انضمت مصر الى المجموعة المحايدة فانها تكسر الحصار الذى يراد فرضه على سياسة الحياد الايجابى فى آسيا وتلتحم القارتان العتيدتان ، وتقوم الجبهة الآسيوية الافريقية .

وبعد توقيع معاهدة الجلاء مع بريطانيا ـ بدا الضغط مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية لتنضم مصر الى الحلف الجديد ، وهو حلف الشرق الاوسط ، ويمكن أن تكون مصر قاعدته ، ومركزه ، والعضو الرئيسى فيه اذا شاءت ، ومحور السياسة « الغربية الامريكية » الجديدة فى المنطقة ..

وفى نفس الوقت تقدمت الهند واندونيسيا وبورما ، بدعوة مصر ، لتشترك فى المشروع الجديد ، وهو عقد مؤتمر مدينة باندونج باندونيسيا .. يعلن ميلاد القوة الجديدة الآسيوية الافريقية غير المنحازة ، ويكون نقطة تحول فى حياة العصر .. ان لم يكن فى التاريخ ، بنهاية الكتلتين واسترداد دول آسيا وافريقيا لدورهما الطبيعى فى حياة العالم .

ولم تكن هناك شبهة تردد فى اختيار الثورة وقد رفضت القوى الوطنية والثورية فى مصر قبل ذلك صيغة الدفاع المشترك مع بريطانيا ، ثم صيغة هذا الدفاع المشترك مع بريطانيا وامريكا وفرنسا وتركيا ، ثم تكن لتقبل بعد الثورة وتحقيق الاستقلال عودة الى الوراء !

ولم تترك الثورة شبهة شك لدى المستر دالاس خلال زيارته للقاهرة فى موقفها واختيارها ، وانها ترفض الاحلاف تماما ، ولا ترى مبررا لأن تحمل مسئولية « تحرير روسيا » أو معاداة روسيا بلا سبب ، طالما لم تبدأ روسيا بالعداء او تقدم مبررا له ..

وقدمت الثورة البديل للمستر دالاس :

ذلك انه اذا كانت الولايات المتحدة حريصة على حماية مصر وشعوب الشرق الأوسط من خطر لا تدركه وهو الاستعمار السوفيتى فعليها ان تمدهم بأسباب القوة العسكرية والاقتصادية وبمقومات بناء قوتهم الذاتية والحقيقية ليعتمدوا على انفسهم فى هذه الحماية ، وليس هناك اكثر فاعلية من دفاع الشعوب بنفسها عن أرضها وحقوقها ..!

وكان راى الثورة انه ليس هناك اقدر من العرب ولا أكثر جدارة منهم للدفاع عن حريتهم وعن استقلالهم ، ولهذا لا بد ان تتحقق لهم الحرية كاملة وان تهيأ لهم مقومات التسلح واسباب التخلص من التخلف ، ليصبحوا قوة تدافع عن الحرية التى تملكها والتقدم الذى تحققه .

وقد استنكفت الثورة المصرية أن تساوم أو أن تخادع أو أن تستغل الصراع الذى كان محتــدما بين ايدن ودالاس ، وهو استغلال لم يكن هناك ما يمنعه أو يعيبــه ، ولكنها أوضحت موقفها صريحا للطرفين وفى تصريحات وخطب علنية ..

ويدحض هذا ما ادعاه بعدئذ بعض الأمريكيين من أن حــل القضية المصرية كان بضغط من المستر دالاس على أيدن ، ومقابل وعد بالانضمام الى حلف بغداد تكث به بعدئذ ، وقد اعلنت سياسة مصر ومواقفها من الاحلاف قبل الاتفاق مع بريطانيا وبعده وخلال زيارة دالاس سنة ١٩٥٣ .

ورفضت مصر رفضا حاسما مشروعات دالاس ، وكان رفض مصر وتقديمها للبديل صدمة قلبت كل هذه المشروعات ، واذا بدأ الفشل هنا فلا بد أن يسرى ويمتد بعيدا ، ولهذا لم يغفر دالاس للثورة هذه « المعصية » بل كانت بداية المعــركة مع الولايات المتحدة .

كان طبيعيا وبعد رفض مصر أن يولد حلف الشرق الأوسط هزيلا ، والولادة هزلية أيضا .

بمجرد ان طرح دالاس مشروعه أسرع ايدن فى عجلة محمومة واستولى على الخطة وانتحلها لنفسه ، وقرر أن تقوم بريطانيـا باقامة الحلف وانها صاحبة « الدور الاول » .

وقرر ايدن أن يعتمد فى تنفيذ الشروع على نورى السعيد فى العراق « صديقى الحميم وقد بدأت صداقتنا منذ أول مرة التقينا فيها سنة ١٩٢٥ وظلت قائمة وحميمة منذ ذلك الحين » وأن يعتمد على الأسرة الهاشمية فى بغداد وعمــــان وعلى نورى السعيد اقناع مصر وعزلها عن المنطقة اذا ما أصرت على رفضها .

وخلال السعى لاقامة الحلف شهدت المنطقة صفحة هزليــة للصراع الانجلوأمريكى ، ومن الحقد الشخصى بين دالاس وايدن « كانت الولايات المتحدة صاحبة الفكرة والموصية بها » ولكنها

كانت تؤيد الحلف وتحاربه وتريد قيامه وتسعى لتعطيله ! »
وتدفقت أموال البترول السعودى لتساهم بسخاء فى هذا ، كما
قال ايدن بمرارة .

وكان دالاس يريد حلف الشرق الأوسط ، ولكن بزعامته
وقيادته ولتصفية كل نفوذ آخر ، ولهذا لم تشترك الولايات
المتحدة رسميا فى الحلف الذى سمى « حلف بغداد » ولم تعمل
الولايات المتحدة على عرقلته « كما قال ايدن » ولكن على أن يكون
المقام الأول للولايات المتحدة وان يتبعها الباقون ، وخاصة
بريطانيا .

وكانت الثورة المصرية فى معركتها ضد الحلف قد رات تعبئة
كل القوى الثورية العربية ضده .

واذا كانت بريطانيا تعتمد على نورى السعيد وعلى الأسرة
الهاشمية ، وسوف يعتمد هؤلاء على تعبئة القوى التقليدية
والموالية فلا بد أن تقود الثورة المصرية المعركة ، وأن تعتمد على
تعبئة كل القوى الوطنية والثورية ، وكل القوى الفتية والجديدة
فى المنطقة ..

وهبت هذه القوى وتشجعت فى الأردن وسورية والعراق
أيضا وهزمت مشروع الحلف وعزلته فى معارك شعبية عارمة ،
ولم تشترك فيه سوى دولة عربية واحدة هى العراق .. عراق
نورى السعيد وحده !

وانزعت هذه النتيجة الحليفين اللدودين دالاس وايدن على
السواء .. وقرر دالاس أنه أصبح ضروريا أن يلقن مصر درسا
يحطم كل الهيبة التى حققتها الثورة الجديدة فى مصر او خارج
حدودها سواء فى العالم العربى او فى العالم الآسيوى الافريقى ،
وأن يضعها فى مكانها وان يذكرها بالحقائق وبقوة الولايات
المتحدة وقدرتها .. وكانت وسيلته فى هذا جاهزة وهى
اسرائيل ..

الحمائم والصـــقور

كان أحد الاهداف الرئيسية للولايات المتحـــدة فى الشرق الاوسط هو « التحام » اسرائيل بالمنطقة ، وذلك لتحقق حــلم ترومان . وهو حلم شرحه صراحة فى مذكراته ، وان تغــدو اسرائيل القاعدة الصناعية والاستراتيجية والسياسية الرئيســية فى المنطقة ، وأن تصبح الدولة المهيمنة والحاسمة فى منطقــة متخلفة ولكن هامة وحاسمة .

كانت اسرائيل فى رأيهم معقل الحضارة الغربية « الأمريكية » وقاعدة الحرية والتقدم وسط الأخطار الشديدة التى تتهددها فى المنطقة ونموذجا للمشروع الأمريكى الخاص ، وهو الاسم المهذب الذى اطلقته الدعاية الأمريكية على الرأسمالية بعد أن أصبح الاسم الحقيقى شائنا ..

وقد كان هدف السياسة الأمريكية من تدبير انقلاب عسكرى فى سورية هو اقامة حكم قوى يفرض الصلح مع اسرائيل بالقوة ، وكان سعى أمريكا لتدبير انقلاب مماثل فى مصر يهدف بين ما يهدف الى اقامة نظام عسكرى قوى يفرض أو يقتنـــع بالصــلح مع اسرائيل . واذا ما تم الصلح مع مصر فلن تبقى مشكلة الصــلح

بين اسرائيل وبين أهم دولة عربية فى ظل السـيادة الامريكية ، يعنى مشكلة « الشرق الاوسط » ولن تعود هناك بعدئذ مشـكلة .. وسوف يتحقق الحلم وكل الاحلام . وبعد الثورة مباشرة اعلن دين اتشيسون وزير خارجية الولايات المتحدة ان هناك شرطين اساسيين ، لتأييد ومساعدة الولايات المتحدة للنظام الجديد فى مصر : وهما الاتفاق مع بريطانيا والصلح مع اسرائيل !

وبعد الثورة باشهر قليلة وفى اوائل عام ١٩٥٣ اعلن بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل وزعيم الجناح الامريكى فى الحركة الصهيونية وزعيم الصقور فيها : اعلن اعتزاله الحكم واعتزاله السياسة ورغبته فى التفرغ للتـأمل والعبـادة فى مستعمرة من مستعمرات النقب البعيدة فى الصحراء سد بوكر. وتولى السلطة بعده « موسى شاريت » زعيم الحمائم . فالصقور كانوا يريدون فرض اسرائيل وفرض الصلح على العرب بالقـوة والعنف ، والحمائم كانوا يريدون فرضهما بالسياسة والحيلة اولا ..

وبعد تولى موسى شاريت توالت الرسل بين باريس ولندن وواشنطن والى القاهرة وتل ابيب يريدون السعى للوساطة ، وعقد الصلح .. وكان من اكثرهم حماسا ونشاطا النائب العمالى البريطانى ريتشارد كروسمان وهو يجمـع بين « العمـالية » والحماسة « للصهيونية » والولايات المتحدة الامريكية .

واعلنت الثورة فى ذلك الحين انها قامت لتحرير مصر وبناء مصر اولا ، وانها لا تمانع فى بحث المشكلة العربية الاسرائيلية ، ولكن على اساس قرارات هيئة الأمم المتحدة ، فلا بد أن تقبل اسرائيل أولا هذه القرارات التى لم تعترف بها ورفضـتها جميعا ..

وبدا واضحا ان الوسطاء يريدون فرض الصلح بالشروط الاسرائيلية وفى أطار الاستراتيجيـة الامريكية ، ولا يـريدون

شيئا آخر ، ولم يكن ممكنا للثورة ان تبدأ بالتسليم لاسرائيل والاعتراف بها والصلح معها بشروطها ..

ولهذا رفضت سعي وشروط الوسطاء ، وزاد هذا من حنق وحقد المستر دالاس وتطورت الاحداث في الاتجاهات الاخرى ، ورفضت الثورة سياسة الاحلاف والانطواء تحت حلف الشرق الاوسط . وقامت لتعبيء قوى الثورة العربية والقومية العربية ضد الاستراتيجية « الكونية العامة » الامريكية ، وبدلا من التحام النظام في مصر ! بالصهيونية) وصلحه مع اسرائيل بدأ التحام الثورة المصرية بالثورة العربية ، واصبحت قيادتها وقاعدتها ..

ولهذا تقرر ان يعود بن جوريون من صومعتـه وتأملاته ، وكان دالاس معجبا أشد الاعجاب به ، حتى ليضعـه في نفس المرتبة التي يضع فيها أدناور . ويرى فيه رجـل الولايات المتحدة في المنطقة الذى تعتمد عليه فيها تماما كما كان يرى في أدناور رجل امريكا المؤتمن في أوربا الغربية ..

وعاد بن جوريون الى « وكره » المفضل وهو وزارة الدفاع الاسرائيلية وبعد قليل من أيام عودته فوجئت مصر بغارة اسرائيلية وحشية على قواتها في غزة في فبراير عام ١٩٥٥ ، كانت غارة تعكس كل تفكير وأسلوب بن جوريون وتلميـذه النجيب موشى ديان ! الهجوم المفاجيء الصاعق بقوة وقسوة بلا حدود لتحطيم قدرة وارادة العدو لزمن طويل .. !

لم يكن هناك مبرر للغارة الا ان تكون بداية خطة اسرائيلية امريكية لردع الثورة ، اراد دالاس أن يذكر مصر ان اسرائيـل ما زالت هناك ، وتستطيع ان تنزل الخسائر الفادحة بها ، وان أحدا لا يستطيع ان تكبح جماح اسرائيل ويوقف عدوانها سوى الولايات المتحدة وحدها .. !

وأراد دالاس أن يسقط هيبة مصر الثورة ، وهى على أهبة الذهاب الى باندونج ، والظهور لأول مرة بين دول آسيا وافريقيا كقوة جديدة .. تعلق عليها الآمال !

وأراد دالاس أن يهز هيبة الجيش المصرى ووحـدته ، وأن يثير القلق والسخط فى صفوفه . هذا الجيش الذى حقق الثورة ، والذى حقق الجلاء ، والذى يعد بتحقيق أمانى الشعب كلها ــ لا يستطيع حماية حدود مصر ، ولا ريب أنه سوف يطلب عدد من الضباط تلافى معاداة اسرائيل او الولايات المتحدة أن لم يكن الاتفاق معها ..

وأراد دالاس أن يذكر مصر أن الاسلحة الحديثة والحاسمة عند الولايات المتحدة وعندها فقط ، وأنه لا يحصل عليها سوى حلفائها الاوفياء ويحققون بها الانتصار ، فعلى مصر اذا ما ارادت أن تحصل عليها أن تسلك الطريق الوحيد الصحيح !

كان اول تحد بين المـــارد الامريكى وأداته الجـــاهزة فى الشرق الاوسط (اسرائيل) ، وبين الثورة الجديدة ، وافضـل طريق التحدى غير المتكافىء ضد أى مـارد انما هو مواجهتـه بلا خوف وتوجيه ضربة قوية ومفاجئة لم يتوقعها تذهله وتشل ارادته ، وتقلب كل خططه ومشروعاته ، وبهذا تـبدد اسطورته والخوف أو الرعب منه ، وبغير هذا يظل ارهابه قائما ودائما .

لقد تحدت الثورة وهزمت الاســتعمار القديم ، ولتبدأ معركتها ضد الاستعمار الجديد .. وهذا قدر مصر الذى لا مناص منه ..

ولقد تغير العالم وتغيرت موازينه ، ولم يعد قدرا ان تذعن دولة لارادة دولة من الدول العظمى ، والا فما معنى الثورة !

وقررت مصر أن ترد بأن تحصل على السلاح من روسيا .
وكانت ضربة لم يتوقعها دالاس ولم يدرجها فى حسابه ، وكان مطمئنا دائما الى أن حكام وقادة العالم « المتخلف » قد

يكرهون الاستعمار والغرب ، ولكنهم يخافون الشيوعية ويفزعون منها اكثر ، وظهر اليوم حاكم وقائد شاب فى منطقة حاسمة من العالم يكره الاستعمار ولا يخاف الشيوعية ويكسر القاعدة. وهو قد جرؤ على أن يمد يده لروسيا فى وقت دقيق بعد فيه دالاس للحرب الصليبية القادمة ..

كانت سابقة خطيرة واذا ما صارت مثلا فسوف تهدد كل الخطط فى آسيا وافريقيا .

وقد حدث حينما هاجمت الدبابات الانجليزية قوات البوليس المسلحة بالبنادق القديمة ، وابادت معظمهم فى معركة خسيسة فى الاسماعيلية فى يناير عام ١٩٥٢ — حدث ان اندفعت المظاهرات فى القاهرة تطالب بالسلاح من روسيا ، ولكن فى ذلك الوقت كان الحكام سياسيين لا ثوارا ، يفتقرون الى الشجاعة ويخافون الشيوعية والشعب — أكثر مما يكرهون الاستعمار ! وينطبق عليه وصف دالاس وقد جاء طلب القاهرة للاسلحة فى الوقت المناسب تماما بالنسبة لموسكو .

الســلاح من روسيا

كان ستالين هو اخصائى القوميات والمستعمرات فى الحركة الثورية الروسية ، وكان قد وضع كتابه « الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية » وكان ذلك بتكليف من اللجنــة المركزية للحزب الأشتراكى الديمقراطى الروسى ، واصبح ذلك الكتاب قبل الثورة الاساس الايديولوجى لسياسة الحزب ثم لسياسة الثورة نحو القوميــات والمستعمرات سواء داخــل الامبراطورية القيصرية « الروسية » أو خارجها نحو كل شعوب المستعمرات.

وكان ستالين روسيا قحا، لم يغادر روسيا ولم يعرف أوربا او يعش فيها مثل الثوار الآخرين ، وكان هو من جورجيا وهى من أشهر « القوميات المتعصبة والمشاغبــة » ، وقد بنى ستالين مجده على قدرته على معرفة روسيا من الداخل وفهمه الدقيق لشعوبها ، وقومياتها وخصائصها المختلفة ، وكان كتابه تطويرا للماركسية بذلك الفهم وعلى أساس ذلك الواقع ..

واصبح الاساس النظرى هو ضرورة الاعتراف لكل شعب بحق أساسى هو حق تقرير المصير . ان الشعوب متساوية ولكل شعب صغير أو كبير حق تقرير مصيره بنفســه ، واعترفت

الثورة الروسية بمجرد قيامها بهذا الحق لشعوب الامبراطورية الروسية السابقة ، وكانت السياسة الاستعمارية القيصرية تعمل على « روسنتهم » وتحويلهم الى « روس » من الدرجة الثانية ، واعترفت لهم بحق تقرير المصير حتى الانفصال بناء على اصرار لينين . وعلى هذا الأساس قامت الخمس عشرة جمهورية التى يتكون منها الآن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية اى الاتحاد السوفيتى !

وعلى هذا الاساس ايضا تقرر أن الكفاح الوطنى ضد الاستعمار فى اي بلد هو الحليف الطبيعى لكفاح العمال فى أوربا او امريكا من أجل الاشتراكية وضد الراسمالية .

ان الاستعمار امتداد للراسمالية وهو الاستغلال ضد الشعوب بأكمها ، وهو اعلى مراحل الراسمالية وآخرها ، وكل ضربة توجه ضده فى اى مكان هى هزيمة للراسمالية (الأم) فى العواصم الامبراطورية ، وهى انتصار غير مباشر لكفاح البروليتاريا (الاوربية) ، وعليها لهذا ان تتحالف وتتكاتف مع حركات وثورات التحرر الوطنى حتى لو كانت قيادتها بورجوازية ما دامت تقاوم الاستعمار .

وتطبيقا لهذه المبادىء ساعدت الثورة الروسية كل الثورات الوطنية التى نشبت فى ذلك الحين ، وساعدت الثورة الصينية بقيادة صن يات صن ثم تشيانج كاى شيك ، وساعدت الثورة التركية بقيادة أتاتورك ، وكانت المساعدة الروسية هنا حاسمة وسببا رئيسيا فى نجاح الثورة كما اقر اتاتورك فى معظم خطبه، وساعدت الثورة الايرانية بقيادة رضا شاه نفس المساعدة ، وتنازلت عن كل الامتيازات الروسية السابقة فى ايران ، وعرضت الثورة تأييدها واستعدادها للمساعدة على كل الثورات الوطنية ، واعلنت أن حليفا (صادقا) من بين الدول العظمى قد ظهر ، ويمكن للحركات والثورات الوطنية أن تثق به وتعتمد

عليه وهو الاتحاد السوفيتي ، ونشرت الثورة كل المعاهدات السرية التى اتفق عليها الحلفاء لتقسيم العالم بعد الحرب ، وكان بينها معاهدة « سايكس بيكو » بشأن تقسيم البلاد العربية .
ولكن الصراع داخل روسيا بين تروتسكى وستالين حول خط الشيوعيين المحليين من الثورة فى ذلك الحين وهم يتقدمون لانتزاع قيادة الثورة من البورجوازيين الوطنيين كما قال تروتسكى او يتحالفون حلفا طويل المدى مع البورجوازية الوطنية كما قال ستالين — قد ادى الى تخبط وتعثر فى هذه السياسة ..

وكان تنبه الاستعمار الى الخطر الجديد دافعا له الى محاولة عقد صفقات وتسويات واجتذاب قطاعات وفئات من « الوطنيين » الذين اقلقهم وازعجهم التحالف مع الشيوعيين ، وما لبث اتاتورك ان بطش بالشيوعيين الاتراك وجمد العلاقات مع روسيا ، وذهب خلفاؤه الى ابعد مدى حتى اصبحت تركيا قاعدة رئيسية لحلف الاطلنطى ضد روسيا !

وقام كاى تشيك بمذبحة أكبر فى شنغهاى قضى فيها على الشيوعيين الصينيين وعلى عدد كبير من الثوريين بلا تفرقة ثم قام بتسوية مع الغرب ، وشن حربا اهلية طويلة المدى انتهت به الى العمالة الكاملة للولايات المتحدة ، وفى وقت مبكر حول رضا شاه الثورة الايرانية الى امبراطورية ونصب نفسه امبراطورا عليها ثم انحاز للمحور ، وكاد يجعل من ايران قبل الحرب قاعدة لالمانيا الهتلرية ، وجعلها ورثته من بعده قاعدة للولايات المتحدة الامريكية .

ومن هذا التطور فقد « ستالين » ثقته فى البورجوازية الوطنية فى المستعمرات ، وغير موقفه الى تزمت شديد ضدها !

وبعد الحرب العالمية الثانية انتصرت الثورات الوطنية فى بلاد آسيوية كثيرة مثل الهند واندونيسيا ، ولكن لم يتغير

الموقف السوفيتي ، وكان الرأى أن قادة هذه الحركات « كلاب حراسة للامبريالية الانجلو امريكية » وهم يحققون استقلالا ولكن عقدوا صفقات سياسية مع الاستعمار خوفا من الثورة الاجتماعية التي تهددهم ، وان على الاحزاب الشيوعية لهذا ان تخلعهم ، وتحرر الثورة وتكملها وتمضى بها للاستقلال الصحيح والاشتراكية ..

واصطدم نهرو والحزب الشيوعى الهندى صداما سياسيا عنيفا ، وتطور بعد قليل الى صدام مسلح فى حيدراباد وانحاء أخرى من الهند .

واصطدم سوكارنو والشيوعيون الاندونيسيون صداما مماثلا وسقط فيه كثيرون ، منهم احد قادة الثورة واحد رفاق سوكارنو الكبار ..

وتحولت الثورة فى بورما الى حرب أهلية شاملة بين الوطنيين والشيوعيين استنفدت قوى الطرفين ..

وظل تأييد الدولة السوفيتية للحركات والثورات الوطنية على هذا قائما فى المحافل الدولية ورسميا ، ولكن على هذا التفسير العقائدى .

وفى عام ١٩٥٣ مات ستالين ، وبدأت بعد موته اعادة تقييم لكل السياسات والمواقف الداخلية والخارجية ، ومن بينها الموقف من الثورات الوطنية ، وكانت قد اشتدت وامتدت فى العالم المستعمر وبقيادات وأفكار وطرق كفاح جديدة .

وبدا واضحا ان تيارا جديدا وظواهر تاريخية فريدة تتتابع فى حياة العصر وثورات العصر ، وبدا واضحا أن البورجوازية الوطنية فى المستعمرات ليست تلك الطبقة التى دمغها ستالين ، ولكنها فئات وقطاعات : منها من يخون وينضم للامبريالية ، ومنها من يتقدم وينضم للجماهير وفى غياب طبقة عاملة

« بروليتاريا » واعية ومنظمة لا بد ان يظل للبورجوازية دور وطنى وثورى .. وخاصة فى فئاتها المتوسطة والصغيرة والمتفتحة على روح وأفكار العصر ..

وكان لا بد للفكر الماركسى ان يتفهم هذه الظواهر وان يواجهها ، وكان لا بد للدولة السوفيتية ان تحدد علاقاتها وموقفها من هذه الدول والنظم الجديدة ، فالتزمت الايديولوجى او السياسى سوف يعزل الدولة السوفيتية عنها . وفى مرحلة دقيقة بالنسبة لها وفى مواجهة سياسة « التحرير بعد الاحتواء » التى شرعها « الجمهوريون الامريكيون » كان لا بد للاتحاد السوفيتى من سياسة خارجية ايجابية لتفسد هذه الخطة وتكسر الحصار وتحول قواعد الانقضاض والتحرير الى قواعد امن وحسن جوار ، ولتحول الدول التى على حدودها الى دول صديقة وحليفة ..

وكان الاتحاد السوفيتى قد كسر احتكار الذرة ، وكان قد استطاع ان يعيد بناء ما دمرته الحرب ، بل حقق نموا قياسيا فى هذا الصدد ، واصبح فى استطاعته ان يقدم للدول الحديثة والمتحررة ما ترفض الولايات المتحدة وما لا يمكن بطبيعة نظمها وسياساتها ان تقدمه وهو وسائل التسليح والتصنيع الحقيقى ..

واصبح الراى السوفيتى السائد ان الدول الجديدة والثورات الجديدة ظواهر مبتكرة وخلاقة فى حياة العصر ، وهى تعبر عن شعوب ذات تاريخ وكيان اجتماعى وحضارات مختلفة ولا بد ان تتقدم الماركسية وتتطور وتتفهم . والماركسية علم لا بد ان يتقدم ويتطور ككل العلوم ..

واصبحت السياسة السوفيتية تقوم على انه لا بد للدولة السوفيتية ان تساعد هذه الدول مساعدات شاملة لتعزيز استقلالها ، وحينما تقوم فى آسيا وافريقيا دول مستقلة وقوية

عسكريا واقتصاديا وسياسيا ومعادية للاستعمار وصديقة للاتحاد السوفيتي سوف يكون امن الاتحاد السوفيتي مكفولا ، وسوف تفشل اية سياسات احتواء أو تحرير أمريكية ..

وكان الموقف السوفيتي من الثورة المصرية انعكاسا لهذا التاريخ والتطور .

وهو قد بدأ « متحفظا » فى البداية وزاده الصدام بين الثورة وبين « الشيوعيين » تحفظا وجمودا ، ولكن كثيرين من « المجددين » هناك تجاوزوا الظواهر « الثانوية » والتفصيلية واصروا على ان البحث الاساسى يجب ان يدور حول طبيعة الثورة ومستقبلها ، وانه لا يمكن التجاهل أو التباعد عن حدث يغير خريطة الشرق الأوسط كلها ، ويضيف الى الثورة المضادة ضد الاستعمار وانه فى المعركة المزدوجة للثورة المصرية ضد الاستعمار القديم والاستعمار الجديد لا بد ان يكون للاتحاد السوفيتي موقف وفى مواجهة سياسة التحرير بعد الاحتواء لا بد ان يخوض الاتحاد السوفيتي معركة فى الشرق الاوسط حتى لا يتحول الى قاعدة اكبر « للاحتواء والتحرير » ضد روسيا ، بل الى منطقة متحررة وثائرة ضد الامبريالية . والتقت الثورة المصرية والاتحاد السوفيتي وكل الظروف مهيأة لدى الجانبين ليكون اللقاء تاريخيا ومتكافئا وطويل المدى ..

كانت صفقة الأسلحة نقطة تحول ، ولكنها كانت مجرد بداية ..

المؤامرة

كانت سنة ١٩٥٥ سنة الاختبارات الصعبة والحاسمة بين باندونج وحلف بغداد وبين الاستسلام او كسر احتكار السلاح ..

ولهذا كانت سنة ١٩٥٦ لا بد ان تكون سنة المواجهة وفى كل مرة أنتزعت مصر حق الاختبار او مارسته تجمعت اوربا او قواها الرئيسية لتمنع هذا الخطر : حدث هذا فى عام ١٨٤٠ وفى سنة ١٨٨٢ ، وفى سنة ١٩٥١ ، وكان لا بد أن يحدث سنة ١٩٥٦ ، وفى هذه المرة لم تكن أوربا وحدها ، كانت معها الولايات المتحدة الأمريكية !

ومنذ اوائل ذلك العام تجمعت اربعة أطراف متباينة لأسباب واغراض مختلفة حول هدف واحد هو القضاء على خطر ناشىء داهم فى مصر ، ولم يكن رفض تمويل السد العالى سوى بداية الاستفزاز الذى يسبق الهجوم .

كان الطرف الأول اسرائيل .

كان بن جوريون رجل الولايات المتحدة الاول فى الشرق الاوسط ، وكان هو الذى نقل ولاء الحركة الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية من بريطانيا الى امريكا ، وتم ذلك فى مؤتمر بلتيمور الشهير فى تاريخ الصهيونية ، وقد عقد فى

فندق بهذا الاسم فى نيويورك ، واعلنت فيه الصفقة مقابل انشاء دولة كاملة فى الشرق الاوسط هى اسرائيل .

وقد خلع بن جوريون فى ذلك المؤتمر الطـــاقم البريطانى القديم بقيادة حاييم وايزمان ، واصبح بالفعل الرجل الاول ، وكان ذلك الطاقم البريطـــانى هو الذى يتصـــدر الحـــركة الصهيونية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، وكان هو الذى قام بنقل الولاء من المانيا الى بريطانيا مقابل وعد بلفور واقامة الوطن القومى فى فلسطين .

وقد ولدت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى فى كنف الامبريالية الالمانية — وكانت الاستعمار الجديد فى ذلك الحين — وكان شـــعارها — الزحف شرقا — اى نحو روســـيا وشرقى أوربا ، ثم النزول الى الشرق الاوسط حتى قلب آسيا وخلع الاستعمار القديم البريطانى والفرنسى والهولندى والحلول محـــله .

وكان امبراطور المانيا لهذا هو أول حام ووسيط للحـــركة الصهيونية لدى السلطان العثمانى لكى يمنح اليهود حقوقا فى فلسطين ، وتنفذ المانيـــا الى الشرق الاوســـط .. وقد قال هيرتزل لقيصر المانيا يومئذ « ستقيم دولة تتكلم بالالمانية فى الشرق الاوسط » .

وخلال الحرب العالمية الاولى وقرب نهايتها ادرك الراسماليون اليهود الكبار وهم الذين يتزعمون الحركة الصهيونية ويضاربون بها ان المانيا مهزومة لا مناص ، ولهذا سارعوا بنقـــل الولاء لبريطانيا عن طريق وايزمان ، بل ساعدوا فى التعجيل بهزيمة المانيا ، وهى المساعدة التى لم يغفرها لهم هتلر ، وكانت سبب حقده العارم عليهم .

وخلال الحرب العالميـــة الثانيـــة بدا واضحـــا ان شـــمس الامبراطورية البريطانية التى خدموها طويلا سوف تغرب ، وان

المستقبل للراسمالية والامبريالية الجديدة الأمريكية .. وسارع اقطاب الحركة الصهيونية بنقل الولاء ، وقام بن جوريون بعقد الصفقة ، وكان الطرف الآخر مستعدا مرحبا تماما بها .

كانت الامبريالية الجديدة قد اكدت وجودها الاقتصادى فى المنطقة بحقول البترول ، واكدت وجودها العسكرى بسلسلة القواعد الكبرى ، وكان لا بد ان تحقق وتؤكد وجودها السياسى بدولة كاملة تقيمها لحسابها .

وكان « بن جوريون » رجلا كما تتمنى امريكا تماما : كانت احلامه واسعة من النيل الى الفرات ، وكان يؤمن بالعنف اقصى العنف وانه وسيلة تحقيق كل شيء والرجـــل النموذجى عند الامبريالية الامريكية هو الرجل القوى « حامل المسدس » الذى يخضع منطقة باكملها ويفرض عليهـا استقبال الحضارة الامريكية .

كانت لديه آمال مفضلة من التوراة تقول : « سوف يرسلك الله الى الارض التى تذهب اليها لتملكها ، وسوف تتهاوى امم كثيرة تحت اقدامك .. سبع امم اكبر منك واقوى ، وسوف تقضى عليهم ، وسوف تدمرهم عن آخرهم ولا تعقد عهدا معهم تهزمهم وسوف تسوقهم امامك محطمين وحينئذ سوف تسحقهم كلهم ، وسوف تقضى عليهم ، وسوف تدمرهم عن آخرهم ولا تعقد عهدا معهم ولا تاخذك اية رحمة أو شـفقة بهم ولا تسكب عينك دمعة واحدة عليهم » وكانت هذه الامم بلا شك العرب ، وكان العنف والوحشـية نحو العـرب بالنسبة له تكليفـا وتفويضـا « الهيا » .

وكان بن بوجوريون يؤمن بان حرب سنة ١٩٤٨ « حرب لم تتم » حرب ناقصة لم « تدمر » فيها الامم السبع عن آخرها ، وقد افسدتها عليه الدول الكبرى « كذا » بتدخلها « لانقاذ » العرب ، لهذا ما زالت هناك حرب أخرى فى ذمة اسرائيل ،

وعلى عاتقها ، وهذه هى رسالة حياته التى نزل كأنبياء اسرائيل القدامى لتحقيقها ..

وبعد قيام الثورة فى مصر اعتقدت الولايات المتحدة الامريكية لبعض الوقت انها تهيمن على النظام الجديد ، وأنها تستطيع أن توجه ان لم تقرر سياساته ، واعتقدت الولايات المتحدة انها تستطيع ان تحل مشكلة المشاكل وعقدة العقد ، وان تعقد الصلح بين مصر واسرائيل تحت المظلة الامريكية ، وبذا يستقر الشرق الأوسط ويسود السلام « الأمريكى » .

وفى اواخر سنة ١٩٥٣ طلب الى بن جوريون ان يتنحى لتجربة اسلوب آخر فان « العنف العارى » لن يجدى مع النظام الجديد، ولهذا جىء بموسى شاريت وزير الخارجية وزعيم « الحمائم » فى اسرائيل وكلف بتشكيل الوزارة وان يكون وجهة مقبولة تستطيع عقد الصلح وتبادل الاعتراف بين مصر واسرائيل .

وخرج بن جوريون كارها ، وخلع على تنحيته ثوبا مثاليا وصوفيا ، وأعلن انه سوف يعتزل فى مستعمرة بعيدة فى النقب « سيد بوكر » للتعبد والتأمل ، ولكنه أشترط شرطا واحداً قاله وهو ان يتولى اثنان من اخلص تلاميذه وزارة الدفاع . ورياسة الأركان فى جيش الدفاع ، وكان الاول هو « بنحاس لافون » والآخر هو « موشى ديان » وكانت وزارة الدفاع هى معقل بن جوريون الأول ، وكان جيش الدفاع « القبضة المقدسة لتحقيق حلم اسرائيل » وطالما ظلت فى يده فلا خوف !

وكان « موسى شاريت » يعتقد أن العنف المستمر حلقة مفرغة لن تنتهى ، ولن تفيد ، ولا بد لاسرائيل من « سياسة » تنفذ منها الى العرب لكى تلتحم هى والمنطقة « وتغدو سيدتها وهذا هو مصيرها الأخير » .

وتوالت المساعى والوساطات ومن كل مكان كانت التنازلات المطلوبة من مصر وحدها وبلا اعتراف باى قرار من قرارات الامم المتحدة .

وفى فبراير سنة ١٩٥٥ كان دالاس قد انتهى الى ان النظام فى مصر قد « تمرد » وخرج من فلك الغرب نهائيـــا ، ولهذا لا بد ان يذهب ، وكذلك « الحمائم » فى اسرائيل ، لانها لم تخدع احدا واصبح لا بد من عودة « الصقور » والوحـــوش وزعيمهم الكبير .. وعاد بن جوريون اولا الى وزارة الدفاع قبل ان يعود الى رئاسة الوزارة ، وعاد مزهوا . اذ ثبت ان لا غنى عنه ، وان سياسته هى الوحيدة ، ولا بديل لها وكل تكهناته قد تحققت .

وبعد عودة بن جوريون الى وزارة الدفاع بأيام حدث غارة غزة الشهيرة والتى كانت نقطة التحول وقد اعترف « شريت » أنها تمت بعلم وتدبير بن جوريون الذى كان يعمل بلا كلل من « صومعته » فى المزرعة ، وقد دبرها من هنـاك ووضـع خطة شاملة » .

وكانت خطة بن جوريون التى رسمها فى الصحـراء وبدا تنفيذها تقوم على ثلاثة اركان :

* بدء حركة تخريب داخلية واسعة تقـــوم بها شبكات التجسس والتخريب الاسرائيلية داخل مصر ، وعليهـا أن تشيع القـلق والفوضى لتثبت عجـز النظام وتعطى الغـــرب مبـررا للتدخل .

وتنفيذا لهذا التخطيط بدات المخابرات الاسرائيلية بالعمليـة التى اشتهرت بعدئذ باسم « قضية لافون » وقام الجواسيس الصهيونيون بمحاولة لاشعال حرائق والقاء قنـــابل زمنية فى مكاتب الاستعلامات البـــريطانية والأمريكيـة فى مصر ، ولكن فشلت العملية بسقوط « الخلية » الاولى ثم ضـبط الشـبكة

كلها « بنحاس لافون » الذى كشف بعدئذ عن مسئولية بن جوريون ، واثار فضيحة اكبر .

* وبعد سقوط الشطر الاول كان لا بد من تعويضه فى تنفيذ الشطر الثانى ، وكان يعتمد على القيام بسلسلة غارات مركزة وبالغة العنف على مواقع الجيش المصرى على الحدود الاسرائيلية ، ولزعزعة ثقة المصريين والفلسطينيين والعرب عامة فيه .

وقد بدات الغارات بغارة غزة الشهيرة ، واستمرت بغارات اشد كان من اكثرها وحشية الغارة على « سوق غزة » حيث ضرب المدنيون بمدافع انهاون يوم السوق ، ثم غارات دير البلح وخان يونس والصبحة ، وتوالت غارات لا تقل ارهابا على الحدود السورية والاردنية حتى لقد اضطر همرشلد أن يصرخ « هذه بربرية ولا مبرر لها » واعلن الجنرال « بيرنز » رئيس لجنة الهدنة يومئذ انها « تثير لدى كل القلق والخطر حول المستقبل » .. !

ولم تجد مصر سوى ان يتسلح الفلسطينيون فى غزة لكى يدافعوا عن انفسهم ، وتكونت فرق « الفدائيين ردا على بن جوريون » فليس هناك رد آخر على العنف الصهيونى سوى الدفاع الذاتى الفلسطينى ، ولكن الرد الكبير كان فى صفقة الاسلحة .

وفى ذلك الوقت كانت القوات المسلحة المصرية لا تملك شيئا تقريبا ، كان لديها ست طائرات صالحة للعمل وثلاثون طائرة معطلة وليس هناك قطع غيار .

ورفضت بريطانيا بيع هذه القطع ، وكان ٦٠ ٪ من دبابات الجيش المصرى ايضا شبه معطلة ، وتحتاج الى اصلاح كبير ، وقطع غيار جوهرية ، وكان لدى الدبابات من الذخيرة ما يكفى ساعة واحدة من القتال ، وكانت المدفعية المصرية فى نفس

الحال ، بل حتى البنادق والاسلحة الصغيرة كانت قليلة لا تكفي، وبالطبع فشلت كل المحاولات للحصول على الاسلحة من بريطانيا أو امريكا .. وكانت هذه حقائق معروفة ..

* وكانت المرحلة الأخيرة والنهائية من الخطة التى وضعها بن جوريون بعد التخريب والغارات هى الهجوم والحرب الشاملة ضد مصر وتبدأ باجتياح سيناء ، وبعد أن تكون شبكات التخريب قد اشاعت الفوضى وبعد ان تكون الغارات قد اثارت الفزع وشلت الارادة تبدأ الحرب وتكون مجرد نزهة عسكرية .

وبعد فشل التخريب والرد على الغارات كان رأى بن جوريون حينئذ انه لا بد من الاسراع بالحرب ، وذلك قبل أن تصل الاسلحة الروسية « لا بد ان يسقط النظام فى مصر قبل ان تصل الاسلحة الروسية » كما قال صراحة .

وفى اكتوبر سنة ١٩٥٥ استدعى بن جوريون اخلص المريدين – موشى ديان – من فرنسا ليكلفه المهمة الكبرى ، وكان بن جوريون قد أرسله اليها ، وكان العسكريون الفرنسيون بعد هزيمة « دين بيان فو » فى الهند الصينية واشتداد الثورة وتوالى الهزائم فى الجزائر يشعرون بحقد خاص ضد النظام فى مصر ويحملونه مسئولية كل ما حدث ويحدث فى شمالى افريقيا .

وكان السفير الفرنسى فى « تل ابيب » صهيونيا متحمسا لا يمل الدعوة لحلف فرنسى اسرائيلى ضد مصر ، ولهذا ذهب موشى ديان بايعاز من بن جوريون ليدرس الاوضاع .

وذهب بعده لافون وشيمون بيريز شاريت الى فرنسا ووجدوا الابواب مفتوحة امامهم على مصاريعها ، ليحصلوا على اى نوع وأية كمية من الاسلحة .. ضد مصر !

وحينما احتاجوا الى السلاح الحاسم وهو « طائرات مستير ٤ » بكميات اكثر مما تستطيع فرنسا أرسل ايزنهاور ودالاس مبعوثهما السابق الى مصر « هربرت همفرى » يحمل التصريح لفرنسا بأن تحول طائرات « المستير ٤ » التى كانت تنتجها لحساب حلف الاطلنطى الى اسرائيل !

وبعد هذا طلب بن جوريون الى ديان ان يعد « خطة غزو كاملة لمصر » .

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٥ قدم ديان الخطة الكاملة ، وعرضت على مجلس الوزراء الاسرائيلى ، وطلب ديان واقره بن جوريون ان يبدا التحرك بعد شهر فى بدء العام الجديد ، ولكن « رغم دفاعه الحار وبرغم توسلاته – أى بن جوريون – رفض مجلس الوزراء وقالوا : انه لا بد من مبرر ، لا بد من ظروف اكثر ملاءمة » .

كما قال ديان فى مذكراته واضاف « وكان من السهل خلق المبرر » .

ولم يفت هذا فى عضد بن جوريون كان واثقا ، وصرح لمراسل النيويورك تايمس : « سوف تكون فى العقبة فى العام القادم ، وسوف نستولى عليها من البر والبحر والجو معا » .

وفى يونيه سنة ١٩٥٦ قرر بن جوريون اقالة موسى شاريت زعيم الحمائم الذى عارض الحرب ، وكان يتولى وزارة الخارجية بعدان أصبح بن جوريون رئيس الوزراء ، وعين بدلا منه جولدا مائير « اشهر المريدات » .

وقال شاريت : « ارغمنى بن جوريون على الاستقالة ، لانه كان يعتقد أننى العقبة فى سبيل ما كان قد استقر عليه ، وهو انه لا بد من حرب قريبة جدا مع مصر ، كانت الحرب قادمة ويجب الا اعارضها ، ولا بد أن أخرج وأنا لم اكن لاعارض الحرب تحت اى الظروف ، ولكن حكمتى كانت تختلف عن حكمته » .

وفى يوليو سنة ١٩٥٦ قرر موشى ديان ان القوات الاسرائيلية جاهزة تماما وكاملة الاستعداد للغزو .

ولم تكن مصادفة ان قرر دالاس فى ذلك التاريخ سحب الاشتراك فى تمويل السد العالى ..

وقد كتب مؤرخ حياة بن جوريون الرسمى بن زوهار يقول : « كانت الحرب ضد مصر مقررة لدى بن جوريون منذ عاد الى وزارة الدفاع فى فبراير سنة ١٩٥٥ » .

وكتب ايضا « كانت ازمة السويس بعدئذ طارئة ، وهى لم تغير فى شىء من خطط اسرائيل التى كانت ستهجم على اية حال ، ولكنها سهلت لها أصعب الامور وهو السلاح والحلفاء » وطبعا المبرر .

كان حقد بن جوريون على عبد الناصر بلا حدود .

كان يقول : « ان لليهود عدوين تاريخيين هما فرعون فى القديم ، وهتلر فى الحديث ، ولكن عبد الناصر فاق الاثنين معا » وقال : « بعد سقوط نجيب وانتصاره فى مارس ١٩٥٤ تيقنت انه لا بد من الحرب لاسقاطه » ! ولم يكن بن جوريون وحده فى هذا التصميم ، بل كانت هناك بريطانيا .

وفى الاول من مارس سنة ١٩٥٦ عزل الملك حسين ملك الأردن الجنرال جلوب باشا من قيادة الجيش عزلا مفاجئا ، وطلب اليه مغادرة البلاد فى اربع وعشرين ساعة .

وكان « جلوب » كل شىء فى الأردن ، وقد ارتبط اسمه بوجودها نفسه ، وكان عزله مفاجأة لم تسبقها اية مقدمات أو تكهنات .

وقد دهشت كل الأوساط العربية والغربية لهذه الاقالة ؟ ولم تتبين الأسباب الا بعد ذلك وكانت :

ترضية واستمالة للقوى الوطنية فى الاردن ، وهى القوى التى هبت وقاومت حلف بغداد ، وانضمام الاردن اليه ، والتى اثبتت يومئذ انها اقوى بكثير واقدر على الحركة مما كان يتصور الحكم فى الاردن ..

وكان الحكم قد قبل الانضمام الى حلف بغداد قبولا تاما ، ووافق على خطة ايدن فى قيام حلف عربى ــ بريطانى يعتمد على نورى السعيد وعلى الاسرة الهاشمية فى بغداد وعمان ، ويقوم بعزل القاهرة اذا عارضت ، ولكن انتفاضة القوى الوطنية اسقطت مشروع الانضمام الذى كان على وشك التوقيع ، وقلبت كل الخطط ، بل قدمت اثباتا لقوتها وقدرتها لم يتوقعه الملك .

وبعد هذا الفشل كان لا بد من ترضية لهذه القوى وخاصة فى الجيش ، ولا بد من تضحية احد تلقى عليه كل التبعية ، ولا بد من تعايش ولو مؤقتا بين الحكم وبين هذه القوى التى انبثقت فجاة ..

وكان عزل جلوب استمالة للولايات المتحدة الامريكية ، كان جلوب يمثل السيادة الامبراطورية القديمة ، وبقدر ما كان هذا الوجود عزيزا على ايدن يتشبث به ويقاتل من اجله بقدر ما كان ثقيلا كريها على الامريكيين وخاصة دالاس .

وبعد فشل ايدن والخطة البريطانية لمشروع الحلف بدأ الحكم فى الاردن يفكر ــ ببعد نظر فى نقل الولاء او بعضه للسيد الجديد الاقوى والاقدر ..

وقد عزل جلوب ايضا ، لان الملك كما قال فى مذكراته كان يريد حرية التصرف !

« وكان جلوب يسيطر على كل شىء تقريبا ، وكانت اصغر الامور واكبرها تعرض عليه وعلى السفير البريطانى قبل ان

تعرض على (أى الملك) وكان كل سياسى كبير أو صغير يذهب لاستشارته قبل ان يأتى الى . وقد طلبت روسيا ذات يوم ان نعترف بها فذهب رئيس الوزراء ليبحث مع جلوب والسفير البريطانى الأمر قبل ان اعرف انا الموضوع هذا فضــلا عن ان جلوب كان يرى الا يتولى الضباط العرب قيادات قبل عام ١٩٨٥ « كما روى فى مذكراته » .

وقد قرر الملك ان يكون عزل جلوب سرا لا يعرفه احد ، وان يقــوم به مفاجــاة ويتم فى اسرع وقت حتى لا يتسرب النبــأ ويقوم جلوب او انصاره بحركة مضادة ربما بانقلاب ضد الحكم .

ولم تعرف القاهرة باقالة جلوب قبل وقوعها ، وحينمـا وصلت الانباء وصلت غامضة ، ولم يستدل منها على اسـباب الاقالة أو ظروفها .

وقد تصادف أن كان سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا فى القاهرة فى طريق عودته من كراتشى ، وكان محددا له أن يقابل عبد الناصر فى نفس اليوم « واعتقد جمـال عبد الناصر يومها أن بريطانيا هى التى سحبت جلوب من منصبه .. وبدأ عبد الناصر حديثـه مع سلوين لويد قائلا : ان هذه خطـــوة ايجابية من جانب بريطانيا ، وان جلوب يمثل الاستعمار القديم ، ولا بد أن تتطور بريطانيا وتفهم الجديد فى العالم العربى » ووجم سلوين لويد واضمرها فى نفسه .

وكما قال : « تصورت أن عبد الناصر يهزأ بى ويتعمــد السـخرية بنــا .. ولم اعرف الحقيقـــة الا بعد ذلك بعشر سنوات » .

ولكن عزل جلوب « كان بالنسبة لابدن نهاية كل شىء ، كان « عضة ثعبان » افقدته الرشد ، كان جلوب يمثل الوجـــود البريطانى وطرده يعنى سقوط بريطانيا ، ولا يمكن ان يتم ، وفى

ثورة غضبه التى ايدن كل المسئولية على مصر ، ولا يمكن أن يكون هناك مسئول سوى عبد الناصر !

وقد اعتقد ايدن أن اتفاقية سـنة ١٩٥٤ لم تكن اعترافا بحقوق مصر او بحقائق العصر ، ولكنها مجرد صـفقة وامتـداد لمعاهدة سنة ١٩٣٦ وتنازلات من بريطانيا مقـابل حلف جديد ضمنى مع مصر ، واذا كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ ثمنا لوقوف مصر مع الحلفاء فى الحرب « القادمة » فان اتفاقية عام ١٩٥٤ لا بد أن تكون ثمنا لوقوف مصر مع بريطانيا فى حربها الباردة فى الشرق الاوسط سواء ضد الولايات المتحدة او ضد روسيا وقاعدة للوجود البريطانى فيه ، قاعدة اساسية « مصر مفتاح الشرق الأوسط » كما كان يقول دائما .

وقد ظل ايدن برغم كل الاحداث يفقد الأمل يوما ، ويستعيده يوما آخر بالنسبة لمصر حتى طرد جلـوب وكانت بالنسبة له النهاية .

وكتبت التايمس معبرة عنه تقول : « ان تحقيق الاستقرار فى الشرق الاوسط بالتعاون مع مصر سياسة انتهت تماما » .

واجتمع خبراء وزارة الخارجية البريطانية بعدها برياسة انتونى ناتنج لرسم سياسة جديدة تهدف الى « تصفية ناصر » واعدت مذكرة طويلة لسياسة مفصـلة ترمى اولا الى « عزل عبد الناصر عن باقى الزعماء العرب ثم البدء فى تصفيته » .

وبعد ان قرأ ايدن المذكرة استشاط غضـبا ، وامسك بالتليفون يبحث « عنى » (أى ناتنج) وكنت يومها اقيم حفل عشاء لهارولد استاسن السياسى الأمريكى ، وقمت الى التليفون ووجدت ايدن يصرخ فى التليفون : « ما هذا الهراء الذى كتبته حول حصار ناصر وعزله تمهيدا لتصفيته ؟ اننى أريد أن احطمه ، اريد ان اقضى عليه فور أن اتخلص منه تماما .. الا تفهم .. ؟

اريد ان ازيحه نهائيــا واذا كنت انت وخبراء وزارة الخارجيــة لا توافقون معى فيجب على الفور ان تأتوا لبحث الامر » .

وذهب ناتنج واخذ يهدىء من روعه » وحينما اقترحت انه قبل تحطيم ناصر والقضاء عليه لا بد من العثور على زعيم آخر معارض يحل محله لكيلا يؤدى ســـقوط ناصر الى الفوضى او الانهيار ـ صرخ ايدن مرة اخرى : لا اريد بديلا ولا يهمنى فى شىء ان تعم الفوضى او الخراب فى مصر .. ! »

وكان سلوين لويد يؤيد ايدن ، بل كان يفخر بقوله » فقدت الأمل فى ناصر قبل ايدن بزمن طويل ، وكنت أرى انه لا بد من الحرب بعد صفقة الاسلحة مباشرة ».

وبدأ سلوين لويد يقنع الامريكيين بالاشتراك فى تدبير انقلاب فى مصر على غرار انقلاب مصدق ، وكانت خطـــوة كبيرة لا تستطيعها بريطانيا ، ولا تؤمن عليها وحدها ، ولكن دالاس لم يكن متحمسا لانقلاب من اجل بريطانيا أو من اجل جلوب ، غير أن الموقف تغير تماما حينما اعترفت مصر بالصين الشعبية .

وقد عقد اول اجتماع لبحث « العملية » بين مندوبين من وزارة الخارجية البريطانية ومندوبين من وزارة الخارجيـــة الامريكية فى لندن ، واعد مشروع خطة باركه دالاس ، وحينئذ نقلت الخطة كلها للتنفيذ الى ادارة العمليات الخاصة » .

واشترك رجال المخـــابرات البريطانية وممثلون للمخابرات الامريكية فى تلك الاجتماعات ، وكانت السابقة التى يدبر على نسقها الانقلاب هى ايران والانقلاب الذى اطاح بمصدق ، ولكن بعد بحث طويل مفصل استقر رأى الجميع على أن نجاح المحاولة فى ايران كان يرجع الى وجود معارضة قوية وقادرة وملتفة حول الشاه ، ولكن الامر يختلف تماما فى مصر ، فليس هنـــاك معارضة منظمة أو اســـلحة ، وليس هنـــاك زعيم منـــافس

يعتمد عليه ، ولهذا القى المشروع جانبا ، وقرر ايدن ان لا مناص من الحرب .

« ان سياستنا فى الشرق الاوسط تقوم على حمـــاية مصالحنا فى العراق والخليج الفارسى وهى الآن فى خطر من مصر ونفوذ مصر بقيادة عبد الناصر ، ولا بد من الحرب لحمايتها والقضاء عليه » .

بالمرستون ضد (محمد على) ، وجلادستون ضد عرابى ، وكيرزون ضد (سعد زغلول) ، وكما قال احد مؤرخيه « فى مارس سنة ١٩٥٦ اتخذ ايدن قـــرارا نهـــائيا بان عبد الناصر وراء كل متاعبه فى الشرق الاوسـط ، وانه لا مناص من تحطيمه لرد هيبة بريطانيا ، ولرد هيبته الشخصية ، وادى به هذا الى حرب السويس حيث فقدت بريطانيا هيبتها ، وفقد ايدن كل مستقبله وصحته » !

وكان الطرف الثالث فرنســـا .. وقـد قامت الثـــورة الجـــزائرية فى الاول من نوفمبر سـنة ١٩٥٤ وكانت من اهم احداث العصر ..

وقد بدات الثـــورة فى بلاد شـــمالى افريقيا العـــربية فى الخمسينات ، وقد بدات فى تونس ، ثم امتـدت الى المغـرب ، ولكنها ظلت فى كلا البلدين قلقة ومتعثرة وظلت بعيـــدة عن الجزائر ، وكانت الجزائر قد انتفضت انتفاضة ضخمة بمجرد نهاية الحرب ويوم اعـلان الهدنة ، ولكنها قمعت وبضراوة قتـل ٤٥٠٠٠ جزائرى على الاقل !

وبدا بعدها ان الجزائر خامدة لوقت طويل ..

وبعد الثورة فى مصر وجدت ثورات المغرب العربى سـندا تعتمد عليها ، وهى حتى ذلك الحين كانت تعتمد على المســاعدة المتقطعة الضئيلة التى تقدمها الجامعة العربية .

قام نظام ثورى ملتزم فى مصر ، واعلن مسئوليته ازاء الثورة العربية والافريقية وبدأت مرحلة جديدة .

ولم يكن غريبا ان تقوم الثورة فى الجزائر وتسقط كل حواجز الحصار التى كانت تمنعها .

وقد افزع امتداد الثورة الى الجزائر الاستعماريين الفرنسيين اشد الفزع ، فقد سرى اللهب الى المقاطعة الفرنسية كما كانت تعدها الجزائر ، واصبح يهدد بأن تتحد الثورات الثلاث فى تونس والمغرب والجزائر ، وان تقف فرنسا مرة اخرى عاجزة ، وتغرق فى محيط واسع شاسع الأطراف من الثورة .

واقلقت الثورة الجزائرية الحلف الغربى كله فقد تمتد الثورات الثلاث بعد ان تلتحم الى ليبيا ثم تلتقى كلها ومصر !

واذا تم هذا فسوف يشتعل كل الشاطىء الآخر « العربى » للبحر الأبيض المتوسط ، وهو خط الدفاع الثانى عن اوربا وخط الدفاع الأول عن أفريقيا ، ويضم أهم القواعد العسكرية الامريكية والاطلنطية : كانت قاعدة هويلس الامريكية فى ليبيا هى اكبر القواعد خارج الولايات المتحدة وكانت فى المغرب خمس قواعد امريكية اكبر برية وبحرية وجوية وذرية ، وكان المرسى الكبير فى الجزائر اكبر قاعدة بحرية اطلنطية فى غرب البحر الابيض .. وكانت بنزرت فى تونس قاعدة فرنسية .. واذا ما تهددت كل هذه القواعد سقطت كل المشروعات والخطط الغربية ، وهذا خطر يدفعه الغرب منذ خمسة قرون أو اكثر ، وهو محور كفاحه فى هذا الجزء من العالم .

وتداركا لهذا الخطر تقرر الاسراع بمنح تونس والمغرب بعض التنازلات ، وافرج عن بورقيبة فى تونس ، واعيد الملك محمد الخامس للعرش فى المغرب ، وتولى الحكم فى البلدين

.الطاقم « الغربى » « الوطنى » وهو الذى يؤمن بالاستقلال فى اطار الغرب وبالتحالف مع فرنسا .

واحكم الحصار ـ أو هكذا بدا ـ حول ثورة الجزائر ، واتخذت كل الضمانات والاجراءات لتحييد ليبيا ، لتظل كما كانت دائما « منطقة حرام » وعازلة بين المشرق والمغرب .. واعلن بصراحة ان الهدف الأول والأخير هو ابعاد مصر .. مصدر كل المتاعب ..

وفشلت هذه السياسة ، واشتدت الثورة فى الجزائر ، وعمت ثورة شعبية كاملة نفذت الى اعماق القرى والبرارى والمدن ، ووقف امامها كل الخداع او البطش الفرنسى عاجزا ..

وقد ظل الجيش الفرنسى منذ الهزيمة الشائنة فى الحرب العالمية الثانية يخرج من هزيمة ليلقى اخرى ، وكانت آخر هزائمه واشدها وطأة حتى ذلك الحين فى الهند الصينية فى « دين بيان فو » وكانت نهاية فرنسا فى آسيا ، وبدأ الرعب من هزيمة تالية فى الجزائر سوف تعنى نهاية فرنسا فى افريقيا .. وفرنسا بلا امبراطورية ستغدو « دولة من الدرجة الثانية او الثالثة كالنمسا او هولاندا » وهو ما لا يمكن ان يحدث ابدا « كما قال احد أقطاب الاستعماريين الفرنسيين .

وكان العسكريون الفرنسيون يرفضون الاعتراف بهزائمهم ويلقون تبعتها دائما على الآخرين اى السياسيين الفرنسيين والاحزاب الذين طعنوهم من الخلف فى الحرب العالمية الثانية وعلى الشيوعيين الصينيين فى الهند الصينية ، ثم على عدو جديد فى الجزائر هو « المصريون » وخاصة قائد هذا النظام « عبد الناصر » .

ان ما يحدث فى الجزائر ما كان ليحدث لولا مصر ولولا عبد الناصر ، وكل المصاعب والمعارك التى تواجهها فرنسا فى شمالى

افريقيا من صنع عدو واحد هو المصريون ، ولم تكن الجزائر لتشتعل.ولم تكن لتستمر لولا هذا السيل من الأسلحة والمتطوعين والفدائيين الذى يتدفق من مصر .. واخماد ثورة الجزائر لابد أن يبدأ فى القاهرة ، ولا يمكن ولا فائدة من ان يستمر من أى مكان آخر .

قال جاك سوستيل حاكم الجزائر السابق واحد أقطاب الاستعماريين المتعصبين بعد ذلك :

« ان غزو عبد الناصر انما يعنى أن فرنسا تعرف كيف تضرب رأس الاخطبوط الذى يمتد بأذرعه ليلتهم شمالى أفريقيا الفرنسية ، ان المكاتب القذرة التى تصدر منها التعليمات لسفك الدماء ، والارصفة التى تشحن منها الأسلحة للقتل فى الجزائر ، والثكنات التى يدرب فيها الارهابيون — كلها سوف تقع فى قبضتنا ! »

وقد بدأت فرنسا منذ اشتدت ثورة الجزائر تبحث عن خطة ، واهتدت سريعا الى ان الخطة المثلى هى التحالف مع اسرائيل للقضاء على مصر ..

والتحالف مع اسرائيل لن يؤدى فقط الى تأمين شمالى أفريقيا ، ولكنه سوف يعيد فرنسا مرة أخرى منتصرة وغازية الى الشرق الأوسط ..

ولم تنس فرنسا قط ، ولا يمكن ان تنسى طردها من سورية ولبنان .. وبعد وجود كانت تعتقد انه طبيعى وتاريخى وأبدى منذ الحروب الصليبية ، ولذلك فلا بد ان يتم الحلف وان تسقط مصر سريعا ..

« ان مستقبل شمالى أفريقيا الفرنسية ، وربما مستقبل فرنسا فى الشرق يتعلق بما يحدث وما سوف يحدث فى مصر ! »

وأرسلت فرنسا سفيرا « صهيونيا » الى تل أبيب المسيو « جاك

جيلبرت » « لم يكن يفوقه فى تعصبه سوى بن جوريون نفسه » ليكون التنسيق سهلا وشاملا ..

وفتحت للسفير الفرنسى كل الابواب للعمل لتصحيح الاوضاع وموازين القوى فى الشرق الاوسط واعادتها الى وضعها الطبيعى » .

وارسيت اسس الحلف ، وكانت المنافع متبادلة ومتكافئة : كانت فرنسا فى حاجة الى غزو يسقط النظام فى مصر ، وكذلك كانت اسرائيل فى حاجة الى اسلحة كثيرة وخاصة الطائرات ، وكان الخوف والقلق من طائرات « الميج » الروسية التى سوف تحصل عليها مصر يزداد ، وكانت فرنسا تملك طائرات الميراج والميستير ، بل لديها الطيارون لو احتاج الامر ..

وسافر رسل اسرائيل وكان من بينهم « موسى شاريت » زعيم الخمائم ، ليعقدوا الصفقات ، وقدمت لهم كل التسهيلات والمساعدات من السياسيين وخاصة من العسكريين الفرنسيين ، واستطاعوا ان يحصلوا على كل انواع الاسلحة سرا وعلنا وصفقات معلنة او صفقات اخرى اكبر سرية ومهربة .

وفى اوائل سنة ١٩٥٦ جاء الاشتراكيون الى الحكم فى فرنسا بزعامة « جى موليه » وكان هـذا افضل شىء يحدث بالنسبة لاسرائيل وكان يعنى تصعيد ودعم الحلف الفرنسى ..

كان نفوذ اسرائيل فى الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الاوروبية « اليمينية » واسعا وكان حزبا المابای والمابام اكبر الاحزاب الاسرائيلية اعضاء قدامى فى الاشتراكية الدولية التى تضم هذه الاحزاب ، ولكن النفوذ الصهيونى فى الحزب الاشتراكى الفرنسى كان بارزا بالذات منذ عهد زعيمه « ليون بلوم » اليهودى ..

وكان الاشتراكيون الفرنسيون حلفاء مخلصين ومتفانين للحلف الغربى ، وقد كانوا اول من نقض حلف المقاومة مع ديجول

والشيوعيين ، وانحازوا للولايات المتحدة ، واصبحوا من أعمدة الوجود الامريكى فى فرنسا ، وكان بطل هذا التحول « ليون بلوم » .

وقد انتخب الاشتراكيون وجاءوا الى الحكم على اساس واحد هو حل المشكلة الجزائرية حلا عادلا اشتراكيا ، ولكن بمجرد ان تولوا السلطة نقضوا كل العهود واعلن « جى موليه » اقتناعه التام بعدالة قضية المستوطنين الفرنسيين ، ثم اقتناعه ايضا برأى العسكريين الفرنسيين ، وهو ان القضاء على التمرد فى الجزائر لا بد ان يبدأ فى القاهرة ، وهو كان داعية لهذا ، ولم يكن فى حاجة لمن يقنعه .

كان عبد الناصر شبحا مؤرقا له حتى قبل ان يتولى الوزارة ، وكان جى‌موليه مثل كثيرين من الفرنسيين من ابناء جيله يعانى مما يمكن ان يسمى عقدة ميونيخ ، ولما اصبح رئيس وزراء كانت المقارنة بين ناصر وهتلر محور حديثه ، كان يحتفظ بنسخة من كتاب عبد الناصر « فلسفة الثورة » ويستهويه دائما ان يشبهه بكتاب « كفاحى » لهتلر ، وكان يحرف مقاطع منه لكى يثبت ان عبد الناصر يطمع فى اقامة امبراطورية عربية اسلامية للثأر من اوربا كلها ، وانه يريد السيطرة على بترول الشرق الاوسط لكى يملى ارادته على اوربا وعلى الولايات المتحدة ايضا .

ولهذا فان القضاء على عبد الناصر كان ضرورة « حضارية » لحماية الغرب ، وليس مجرد ضرورة فرنسية للقضاء على ثورة الجزائر وتأمين الامبراطورية الفرنسية .

وبدأ العمل والتنسيق بين فرنسا واسرائيل قبل مجىء الاشتراكيين فى فرنسا ، ولكنه بلغ ذروته بعدهم ، وضعت اسرائيل كل « قدرتها » وكل « خبرتها » فى العمل ضد مصر وثورة الجزائر ، وفتحت الحكومة الفرنسية « ترسانة »

الاسلحة الفرنسية لتحصل اسرائيل على كل ما تحتاجه للعمل الكبير الحاسم : أي توجيه الضربة القاضية لمصر .

وقد باركت بريطانيا الحلف ، وباركته الولايات المتحدة « وكانت بريطانيا — وخاصة ايدن — تنظر بقلق وارتياب للحلف الفرنسي الاسرائيلي في البداية ،ولم تكن عودة الوجود الفرنسي الى الشرق الاوسط تستهوي بريطانيا التي ساهمت مساهمة رئيسية في طرد فرنسا منه ، ولكن بعد ان اتخذ ايدن القرار الحاسم « بتحطيم » ناصر اصبح مؤيدا ومتحمسا للحلف ومشجعا لأن تغمر فرنسا اسرائيل بالاسلحة بل متعجلا لان يبدأ الحلف .. العمل ..

ولم يكن هناك شيء في فرنسا بغير علم الولايات المتحدة .. كانت قبضتها محكمة هناك منذ نهاية الحرب ، وهي قد ازدادت احكاما بعد دالاس وبعد ان اسقط منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا لانه عارض سياسة ضم المانيا الى الحلف الغربي ، ولانه اوقف الحرب في الهند الصينية ، ولكن بعد ان تولى الاشتراكيون الحكم في فرنسا اصبحت هيمنة الولايات المتحدة مطلقة .

واعطيت الاشارة لاستمرار وازدهار الحلف ، لم تكن الولايات المتحدة تريد ان تسلح اسرائيل مباشرة ، حتى لا تحرج حلفاءها العرب ، وحتى لا تبدو معتدية ،ولهذا السبب ذهب هربرت هوفر مبعوثا خاصا من ايزنهاور الى فرنسا يحمل الاذن لها لكي تعطي اسرائيل طائرات « الميستير ٤ » التي تحتاج اليها والتي كانت تنتج لحساب حلف الاطلنطي وحده .. واضافت فرنسا انها على استعداد لتزويد الطائرات والطيارين ايضا .

وبذلك تحقق تفوقا لا شك فيه على مصر ، وتضمن نتيجة اية معركة قادمة .. والطيران هو السلاح الحاسم وخاصة في الشرق الاوسط ..

الضرب فى جبهتين

وكان الطرف الرابع والرئيسى هو الولايات المتحدة .. وقد جدت احداث تجعل من الضرورى ان تسرع وتعجل بالحركة وتكيل ما تريد من ضربات فى احسن وانسب الأوقات ..

وفى اوائل عام ١٩٥٦ عقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى .. وكان « ثورة داخل الثورة » اثار المؤتمر لاول مرة وعلى اوسع نطاق « المسألة الستالينية » وقدم صورة لستالين اثارت العالم كله وصدمته .. !

لم تكن صورة (ديكتاتور) ارتكب اخطاء كبيرة ولكن صورة « هولاكو » احمر استولى على روسيا وعلى الثورة الاشتراكية وقام بتشويه وتلويث معالمها ومبادئها ، وهو قد حولها الى اداة قمع بيروقراطية بوليسية ودموية لم يسبق لها مثيل فى روسيا ان لم تكن فى التاريخ ، ونصب من نفسه الها مطلق السلطة على روسيا ، واستباح كل الحقوق والحرمات ، وولغ فى بحر بلا نهاية من الدماء والأشلاء ، ولولا قوة الشعب وعمق الثورة والمبادىء الثورية ما قامت الاشتراكية وما انتصرت بالرغم من ارهابه .

وقد كان ستالين حتى ذلك الحين « تلميذ لينين العظيم » « وخليفته » « واخلص تلاميذه » « والمكمل لرسالته » وكان ستالين الذى « بنى الاشتراكية فى روسيا أول دولة اشتراكية على الارض » وهو الذى « حمى الاشتراكية » وهزم كل اعدائها العتاة من حروب التدخل حتى هتلر ، وكان هو الذى حمى روسيا مرة اخرى فى الحرب الباردة ، وبنى روسيا مرة ثانية بعد دمار الحرب العالمية الثانية ، ولهذا لم تنجب روسيا بعد لينين سواه ولولا شخصيته وحكمته واحاطته بكل شىء وكل صغيرة وكبيرة ما تحقق شىء سواء فى رقص الباليه او علم اللغة او زراعة القمح او صنع القنبلة الذرية .

وكان نقاد ستالين الاشتراكيون يذهبون أقصى ما يذهبون الى ان ستالين على اية الاحوال ضرورة تاريخية ، وانه كان لا بد من ستالين لينقل روسيا من القرن الخامس عشر او السادس عشر الى القرن العشرين ، ولولا صرامته وقوة شكيمته ما امكن تحويل الفلاحين « الروس الموجيك » بتخلفهم وفطريتهم الى فلاحين عصريين وتعاونيين يستعملون الآلات واحدث « التكتيك » !

ولولاه ما امكن استئناس الانتلجنسيا الروسية المتمردة بطبيعتها ، والتى لم تكف عن التحدى ، قبل الثورة ، وخلال الثورة ، وبعد الثورة وبعد موت لينين خاصة وكانت غالبية هؤلاء المثقفين ترى فى ستالين « حلفا » غير مثقف بما يكفى أن يقود الثورة العالمية ، ثورة العصر .

وكان رأى النقاد الإشتراكيين ايضا انه كان لا بد من ستالين لتصنيع روسيا وبناء الصناعة الثقيلة والخفيفة معتمدة على موارد روسيا وقواها وحدها ، وفى ظل التخلف الشديد الذى اورثته القيصرية وظل الحصار المحكم الذى فرضته أوروبا الراسمالية .

وكان رأيهم انه كان لا بد من ستالين لتجنيد وتسليح روسيا فى مواجهة اوربا المعادية التى تجمعت ضد روسيا مرة بعد الثورة

مباشرة ، ثم أوربا الفاشية التى جعلت رسالتها التاريخية ابادة البولشفية .

واخيرا كان ستالين ضرورة لتعبئة روسيا لمواجهة العدو الجديد فى حرب جديدة باردة وهى الحرب الروسية الامريكية ضد العملاق الامريكى .. اكبر قوة راسمالية !

ولهذا فان ستالين ـ مهما يكن ـ صانع تاريخ عظيم ، ارتكب حسناته ، ولكن جاء المؤتمر العشرون وقدم صورة مخيفة وبشعة تجاوزت كل شيء ، كل ما قدمه الاعداء الراسماليون او التروتسكيون .

وقد بدا يومئذ ان القيادة الروسية الجديدة رات محو آثار وخطايا الستالينية والتكفير عنها بطريق الصدمة ، وليكون علاجا وتطعيما وتحصينا ضد ان يقوم ستالين آخر تحت اى الظروف والا يحلم احد او يجرؤ على ان يكون !

ولم يكن الامر ليتم سهلا ، كان الطاقم الستالينى الذى ساد طوال ما يقرب من ثلاثين عاما وبلا ادنى معارضة ما زال قويا فى الحزب والحكومة والجيش ، وكان الأسلوب الستالينى ضاربا جذوره فى روسيا كلها ، ولم يكن سهلا اقتلاعه ، ولم يكن هينا ان يتوارى « الستالينيون » ويسلموا عن طواعية واختيار ..

ونشب صراع حاد وعنيف ..

وقد اجمع اكثر المعقبين فى الغرب على ان المؤتمر العشرين كان دلالة قوة وصحة ، وليس دلالة ضعف ، اذ اصبح النظام السوفيتى يملك الثقة لينتقد نقائصه وعيوبه ، ويدخل مرحلة جديدة وقد انتصرت روسيا فى الحرب الباردة ونمت قوى جديدة فتية فى داخلها تريد ان تتفتح على العالم ، وان تعايشه ، وعلى العالم « الغربى » ان يفهم هذه الظواهر ويقابلها فى منتصف الطريق ، ولكن كان راى دالاس ومؤيديه ان هذه دلالات ضعف ، بل الدلالات

التى انتظرها وتوقعها طويلا .. ان التناقضات قد تفجرت فى داخل روسيا وان سياسة الاحتواء قد اثمرت وقد بدا الانهيار ، ولم يبق الا المضى نحو التحرير !

لقد تفكك النظام وحانت الفرصة التاريخية لدالاس لكى يطويه .. « كالبساط » !

وقد سرت آثار المؤتمر العشرين ايضا الى اوروبا الشرقية « الاشتراكية » وكانت تعيش منذ نهاية الحرب فى ظل نظم « ديمقراطية شعبية » تتولى السلطة فيها جبهات شعبية تضم الشيوعيين والاشتراكيين وأحزاب الفلاحين والاحزاب البرجوازية الديمقراطية التى لم تتعاون هى والنازية وكانت تتصدر هذه الجبهات وتقودها الاحزاب الشيوعية وفى حماية الجيش الاحمر الذى قام بتحرير شرقى اوربا ..

وحققت الديمقراطيات الشعبية « الاصلاحات الجوهرية » التى طال انتظارها فى تلك البلاد التى عاشت قرونا فى ظل الامبراطورية العثمانية او النمساوية والتى كانت تسودها نظم اقطاعية شبه رأسمالية عتيقة ، تحققت المطالب الاساسية والملحة للشعوب مثل الاصلاح الزراعى وحرية ومجانية التعليم والتصنيع والتحرر من النفوذ الأجنبى ، والحد من سلطة الكنيسة التى كانت تهيمن بقدر كبير على الحياة السياسية وتساند الاقطاع والراسمالية !

وقد كان يمكن ان تتطور هذه النظم الى تجارب جديدة ومبتكرة فى الديمقراطية والاشتراكية لولا أن نشبت الحرب الباردة ، واشتدت وطأتها وبلغت ذروتها فى احداث تشيكوسلوفاكيا ، وتمردت يوغوسلافيا على الحلف الاشتراكى وخرجت عليه ، وادى هذا الى قلق ثم فزع ارتفعت بعده صيحة (الاشتراكية فى خطر !) « والحرب العالمية الثالثة على الابواب » !

وادى هذا الى استيلاء الاحزاب الشيوعية على السلطة كاملة واستئثار بها واحتكار لها وتصفية كل الاحـــزاب الأخـــرى او الغاء أى دور لها بما فيها الأحزاب الاشتراكيـة ، وســاد التزمت الفكرى « والايديولوجى » والتعصب السياسى ونصب كل حاكم فى شرقى أوروبا من نفسه « ستالين » يحكم وفق الاسلوب الستالينى وفى تفان وتبعية مطلقة .

واخمد اى صوت ارتفع للنقد او المعارضة بمحاكمات صورية تلوث المتهمين تماما — قبل القضاء عليهم بالخيانة والعمالة للراسمالية والغرب .

وتحولت الاحزاب الشيوعية الى طبقـة « جديدة » حاكمـة واجهزة بيروقراطيـة بوليســية تحكم بالارهـاب وفى عزلة عن « الجماهير » والبروليتاريا !

وبعد المؤتمر العشرين كان لا بد ان يتغير وينتهى كل هذا ، وما دام قد بدأ فى روســيا فلا بد ان يمتـد الى كل المجمـوعة الاشتراكية . !

وبدأت القيــادات والأجنحة المستنيرة داخــل الاحــزاب الشيوعية تطالب بتصحيح الاوضاع وتصحيح التطبيق الاشتراكى واقامته على دعائم ديمقراطية وقومية وانسانية .

وقد بدأ القلق فى بولندا ، ولكن بولندا كانت تقع بين روسيا والمانيا الديمقراطية ، ولم تكن هناك حدود مشتركة مع الغرب ، وكانت القيادة المستنيرة « قوية » ذات شعبية فى الحزب والجيش وبين المثقفين والجماهير .

ولذا تستطيع الســيطرة على الموقف والتحكم فيــه ، وحدث التغير بمصاعب ولحظات حرجة ، ولكن تم سلميا وجذريا .

ثم سرى القلق الى المجر ، ولكن كان الموقف مختلفا تماما .

وبلغت وطأة الحكم الستالينى أقصى مداها فى المجر ، وربما كان الحزب الشيوعى المجرى اصغر الأحزاب واضعفها فى شرقى اوربا ، وكان للمجر تاريخ طويل فى عداء الشيوعية وعداء روسيا ، وهى قد اشتركت فى الحرب العالمية ضد روسيا كحليفة لهتلر وبجيش بلغ ربع مليون جندى .. فى الحرب الاوربية الصليبية ضد الشيوعية .

وكان للمجر ايضا حدود طويلة مع الغرب ، مع النمسا التى كانت مركزا رئيسيا للمخابرات الامريكية وعملياتها فى اوربا .

ولذا كانت المجر اصلح نقطة يبـدا منها « تحرير » دالاس لشرقى اوربا .. بعدها تتساقط البلاد الاخرى ، ثم يتهاوى النظام فى روسيا نفسها ويغير دالاس وجه التاريخ :

ولا بد ان يكون عام ١٩٥٦ عامه واوج مجده .. سوف يوجه ضربة قاضية ضد الاشتراكية عدوه الاول فى وسط اوربا .

وسوف يوجه ضربة مماثلة الى باندونج والحياد فى الشرق الاوسط عدوه الثانى ، الفاشى ولن يلوث يديه .. سيظل بعيدا يمسك بكل الخيوط ، ولكن تتحرك وتعمل كل الدمى فى شرقى أوربا ، وسوف تشجع كل القوى داخل المجر . وتستشار كل القوى فى شرقى اوربا وغربها .. وتجمد « ثورة الحرية » فى المجر .

وفى الشرق الاوسط سوف تتحرك اسرائيل وهى تكفى ..

الفصل الثالث عشر

معركة الســـد

قالهيرودوت منذ آلاف السنين قوله المشهور : ان مصر هبة النيل ؛ وقال كثيرون بعده : انها ستظل هكذا ؛ ولكن مصر هي هبة الشعب اولا ، وهي ابداع التحدى والتكامل بين النهر والشـعب والارض ، وهذا هو ما منح مصر شخصيتها وحضارتها ، وهو ما أعطى العالم المدنية .

« بدات اول حكومة ونظام حكم مركزى لكى تنظم اسـتغلال ماء النيل ولتنظيم الرى وتوزيع الميـاه وزراعة الارض ، وكانت الحاجة الى التكهن بالفيضان هى التى ادت الى اختراع التقـويم السنوى العام وقسمة السنة الى ٣٦٥ يوما ، وكانت هى التى ادت الى كشف علم الفلك ، وكانت الحاجة الى الحيـاة الجماعيـة هى التى ادت الى أول وحدة قومية لشعب متجانس » وذلك فى راى أكثر علماء الآثار .

وعلى ضفاف النيل بنى الهرم واقيم معبـد الكرنك ونحـت تمثال نفرتيتى ، ولكن ترعرع اعظم « الآثار » وهو الانسان المصرى وما زال النيل لم يكشف عن كل اسراره ، وما زال المصرى يبحث ويتحدى ويكتشف ويجد !

وافضـل مقياس لقدرة الحـاكم في مصر انما هو قدرته على استعمال مياه النيل وعلى توزيعها وعلى اقناع النهر ؛ ليهب اكثر باطراد . قال نابليون : « مصر صراع بين الماء والصحراء ، وبالحاكم الطيب يتغلب الماء ، وبالحاكم الآخر تزحف الصحراء ! »

والرمز الباقي لبداية الثورة ولانتفاضـة مصر على القـرون الوسطى ولدخـولها الى العصر الحديث كانت « قناطر محمد على » .

وكان خزان اسوان هو « رمز » العهد البريطاني وتسـخير العلم والتكنولوجيا والنيل لخدمة الاستعمار والاستغلال ، ولكى تقـوم مزرعة القطن الخصيبة التابعة « للانكشاير » .

وحينما تنتصر ثورة مصر لا بد ان تتجـه أول ما تتجـه الى النيل ، وليس هناك سواه « وفى كل مرة تتجه مصر الى النيـل لا يمكن ان يخيب املها ابدا » كما قال المهندس البريطاني ويلكوكـس الذى بنى خزان اسوان .

ولا بد ان يقوم على النيل اثر يفوق كل ما شيد .. وفى هذه المرة لن يهب النيـل ماءه للفرعـون ولا للولاة ولا للباشـوات او للأجانب ، ولكن للفلاحين ؛ ولهذا لا بد ان يكون عملا شـامخا بقدر عظمة الحدث .

وكان المشروع موجودا محفوظا فى « الأرشيف » وكل حـلول مشـاكل مصر معروفة وكامنة فيها كما قيل .

وفى سنة ١٩٤٧ توصـل مهندس مصرى من اصـل يونانى يدعى « دانينوس » الى فكرة السد العالى ، ووضعها فى مشروع كامل ، وعرض المشروع على المجمع العلمي الذى رحب به ؛ وعرض المشروع على المسئولين الذين يملكون تنفيذه ؛ فتنقل المشروع من جهة الى اخرى ،واختلفت الآراء حوله ، ووصف احيانا بأنه خيالى وغير ممكن ، ولكنه ظل ملفات وأوراقا تبحث وتحول !

وبعد اسبوع من قيام الثورة حمل المهندس « الحالم » مشروعه الى الثورة : « تيقنت ان الوقت قد حان لينفذ المشروع الذى لم يكن ممكنا من قبل »

وبعد دراسة مفصلة تبنت الثورة المشروع ، وقررت البدء فى تنفيذه على الفور .

كان عملا ضخما هائلا « اعظم عمل هندسى من نوعه فى هذا القرن » وكان حجمه يبلغ سبع عشرة مرة حجم الهرم الاكبر ، ولكنه كان « فضل اساس لبناء الاقتصاد الوطنى » الثورى » وتوفير الحياة « الفضلى » فى مصر .

وكان فى مصر كل مقومات الزراعة ، وكانت تملك ايضا كل مقومات الصناعة ولكن فى ظل الحصار الاستعمارى كان لا بد ان تعيش فى اطار زراعة متخلفة وصناعة محدودة ! .

وكان لا بد من ثورة تحقق الاستقلال ، لتستطيع مصر استخراج الحديد ، وتقيم صناعة الحديد والصلب اساس كل الصناعة .. وقد ظل خام الحديد ملقى مهملا منذ اكتشافه قبل نصف قرن .

وكان لا بد من ثورة لكى تستطيع مصر ان تتوسع فى اكتشاف البترول ، وكانت الشركات والاحتكارات تستخرجه بحساب لأن « البترول ، والمصريين معادلة خطيرة » .

وكان الراى ان هناك بحيرة بترول غنية تحت صحراء تمتد من ايران الى المغرب ، ولكنها تقف وتختفى عند حدود مصر حتى اكتملت سيادة المصريين على صحاريهم ووجد البترول .

كان هناك بالطبع قلق شديد من ان تستكمل مصر مقومات سيادتها وتحررها الاقتصادى ، ومن أن تقوم قاعدة صناعية فى الشرق الاوسط .

وكانت الولايات المتحدة خاصة لا تنظر بارتياح لقيام الصناعة الكبيرة او اسبابها فى مصر ، فقد قرر الرأسماليون الامريكيون ان

القاعدة الصناعية فى الشرق الاوسط يجب ان تكون اسرائيل وحدها، ، والا تقوم قاعدة اخرى ، .

وكان تصنيع « الدول المتحررة » وخاصة مصر عملا غير مأمون ، ولهذا فان المشروعات الكبرى التى تقلب الاقتصاد وتغيره وتحرره كانت تقابل بحذر شديد ، وتدرس بدقة ؛ ليعرف اثرها على المصالح « الجوهرية » ، وكان التريث « والتلكؤ » واضحا فى مشروع السد العالى ! . '

وكان هذا هو موقف الغرب من قبل إزاء طلب مصر شراء السلاح ولنفس العوامل والهواجس كان « التسليح والتصنيع » هما الاحتكار الذى بنى عليه الغرب قوته ، وحرص على الا ينتقل الى الشرق .

وكانت الكهرباء اهم ما تحتاج اليه مصر ، واذا لم تملك الفحم فهى تملك الكهرباء كبديل ، وفى النيل مورد معطل لا ينفد ولا ينتهى منها .

ولكن فى سنة ١٩١٢ قدم نفس المهندس « دانينوس » مشروعا لاقامة محطة لتوليد الكهرباء فى اسوان ، ورفض المشروع وتمت تعلية خزان اسوان مرة اولى وتمت تعليته مرة ثانية ، ولكن استخراج الكهرباء شىء مختلف ، والكهرباء تعنى التصنيع — فى المدينة والريف — وهذا ما لا يمكن !

وبعد ان حصلت مصر على شىء من استقلالها اعد مشروع مصرى لكهربة خزان أسوان سنة ١٩٣٧ .

وبدا الوقت ملائما تماما لتنفيذه ، ولكن تكاتف المؤامرات الحزبية والقوى التى كانت تحركها عطلت المشروع وتمت عرقلته ، اذ لا بد ان تظل مصر فى عصر الماء ولا تدخل عصر الكهرباء . !

وكان على الثورة أن تعنى بازاحة كل هذا الميراث ».

لابد ان تستغل مصر الارض المزروعة إستغلالا عصريا افضل ولا بد ان تضيف اليها ، ولا بد ان تستصلح مساحات واسعة لتحل مشكلة الارض .. المشكلة الاولى .

ولا بد ان تحقق مصر ثورة صناعية كاملة ، لانه لا حل لمشاكلها المتراكمة والمعقدة الا بالتصنيع ، وبه فقط تتوافر الحياة والعمل لعشرات الملايين المحرومة ، وفى ظل مستويات العصر .

وكان لا بد ايضا من استكمال وتامين استقلال مصر .

وفى اوائل القرن قال المهندس البريطانى « ويلكوكس » : ان بحيرة فكتوريا هى مفتاح نهر النيل . ومن يتحكم فيها يمسك بخناق مصر وبمصيرها ، بل ويضعها فى قبضة يده .. وكان التهديد بمياه النيل سلاحا بريطانيا استعمل كثيرا ، وظل التلويح به قائما حتى سنة ١٩٥٦ .

وقد ارادت الثورة ان يقوم المشروع على اسس اقتصادية وتجارية بحتة ، وان يعتمد اساسا على موارد مصر ، وان تحصل على الخبرة والقدرة الاجنبية او على المساعدة الدولية فى حدود السياسة المصرية ، وكانت دقيقة الحرص على هذا .

وارادت الثورة أن تكون المساهمة الدولية مساهمة مشروعة عن طريق مؤسسات الامم المتحدة التى قامت لهذا الهدف ، واذا كانت من دول تتبعها فيجب ان تكون « مساهمة غير مشروطة » فى نطاق مواثيق الدول الكبرى وتصريحاتها عن « السياسات الجديدة الجريئة » التى تهدف الى تقديم كل مقومات التقدم للدول المتخلفة .

وضمانا لهذا قدمت مصر المشروع فى البداية لشركة المانية « غربية » لتقوم بالابحاث الاولية التحضيرية ، واستغرق هذا عامين تقريبا ، ووجدت الشركة ان المشروع اكبر من ان تحققه وحدها ، ورات انه من الافضل ان تشاركها مجموعة من الشركات

الاوروبية والفرنسية والانجليزية ، وأن يساهم البنك الدولى فى المشروع الذى أثار خيال العالم كله ، وتقدمت المؤسسات والشركات الامريكية – ولم تكن لتظل بعيدة عنه – لتشترك وتساهم أيضا .

ووجدت الشركات ان مساعدة الحكومات ضرورية ايضا ، فانتقلت الدراسات من الشركات الى الحكومات ومن الاقتصاد الى السياسة .

وقد كانت كل الابحاث جاهزة معدة فى نهاية عام ١٩٥٤ تنتظر اشارة البدء فى العمل ، ولكن بدا أن هناك تباطؤا ان لم يكن هناك تلكؤ فى اقرار التنفيذ .

وبدا واضحا ان سياسات مصر والمبادىء التى ارسيت عليها هذه السياسات هى السبب الذى يقف وراء ركود المشروع .

وفى منتصف عام ١٩٥٥ بدأت الاخبار والشائعات تترى فى صحف الغرب ودوائره الدبلوماسية والسياسية عن تحول مصر الى « الشرق » وعن صفقة اسلحة عقدت بين مصر وروسيا .

وقد ثارت التكهنات حول هذا التحول « الخطير » واشتد حوله الجدل ، واستغرق التثبت والتيقن منه بعض الوقت .

وحينما بدا أن الامر صحيح جاءت بعثة كبيرة من البنك الدولى فى اغسطس سنة ١٩٥٥ لكى تقوم بدراسة شاملة للمشروع تحيط بكل جوانبه ، وتقدم تقريرا كاملا عنه .

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٥ أعلن جمال عبد الناصر فى خطاب تاريخى عقد صفقة الأسلحة « التشيكية » وزلزل الاعلان كل دوائر الغرب السياسية .

وبسرعة كلف البنك الدولى أن يعجل فى الاجراءات ، وكما يقول مدير البنك فى ذلك الحين يوجين بلاك : أدت صفقة الاسلحة الى أن تقتنع أمريكا وبريطانيا بالمشروع ، وتتحمس كلتاهما له وتهتم به » .

وفى اكتوبر سنة ١٩٥٥ اصدرت وزارة الخارجية الامريكية تصريحا يقول : « ان الولايات المتحدة على استعداد للمساهمة فى تمويل مشروع السد العالى وفى تمويل مشروع وادى الاردن وكان مطروحا حين ذاك ، وان هناك « مشروع مارشال » الامريكى للشرق الاوسط على نمط المشروع « الاوربى »

وطلبت الولايات المتحدة ارسال مسئول مصرى كبير لبحث المشروع هناك ، فسافر وزير الاقتصاد فى نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

وتباحث الوزير المصرى ورجـال البنك الدولى والدوائر الامريكية المسئولة وممثلو الحكومة البريطانية وتم الاتفاق .

وفى منتصف ديسمبر سنة ١٩٥٥ اصدرت الحكومتان البريطانية والامريكية بيانا مشتركا اعلنتا فيه مساهمتهما فى تمويل المرحلة الاولى للسد العالى بما قيمته ٧٠ مليون دولار ، تدفع منها الولايات المتحدة ٥٦ مليون دولار ، وتدفع بريطانيا ١٤ مليون دولار ، ويقرض البنك الدولى مصر ٢٠٠ مليون دولار دفعة اولى ، ثم تزيد الى ٤٠٠ مليـون ، وتبحث الحكومتان بعدئذ اشتراكهما فى المرحلة الثانية .

ولكن نص البيـان الذى ارسل الى مصر كان مختلفا ، فقد كان يحوى شرطا بان : « تقدم مصر ضمانات بانها سوف تركز كل جهودها وبرامجها فى التنمية على اقامة السد العالى ، وانها لن تبعثر مواردها على مشروعات أخرى ، وانها سوف تفرض قيودا كافية على اقتصادها تمنع الانفاق الضخم على السد العالى من أن يؤدى الى التضخم المالى ! »

ولم يكن هذا هو الشرط الوحيد ، بل كان هناك شرط آخر يقضى بأن : « يعلق قرض البنك الدولى على أن تقـدم مصر ضمانات كافية بالا تعقد اى قرض خارجى ولا اية اتفاقيات دفع بغير موافقة البنك ! » .

وقد اثارت هذه الشروط كل القلق لدى الحكومة المصرية ؟ اذ كانت تعنى انه لا بد ان تأذن الدولتان لمصر قبل ان تبدأ اى مشروع تنمية آخر حتى لا تبعثر مواردها !

ولا بد ان يأذن البنك الدولى حتى تعقد مصر اى قرض او اتفاقية دفع .. مع اية دولة اخرى ! ، وكانت الدولة المقصودة هى الاتحاد السوفيتى .. طبعا .

وكان هذا تدخلا صريحا ان لم يكن وصاية وحماية على الاقتصاد والسيادة المصرية ، فرفضت مصر شروط المذكرة .

وكلف مدير البنك الدولى يوجين بلاك أن يسافر الى القاهرة ، وان يبحث أسباب الرفض مع السلطات المصرية ، وجاء مدير البنك فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، ولكن أصرت على موقفها .

وفى نفس الوقت انعقد فى واشنطن اجتماع بين ايدن ودالاس لحسم المشاكل المعلقة بين البلدين والمشاكل الملحة فى العالم ، وفى مقدمتها مشكلة الشرق الأوسط .

وكان راى الاثنين متفقا على انه لا بد من حل حاسم ، وكان راى ايدن « انه لا بد من مواجهة فاصلة مع عبد الناصر ، وان مفاوضات السد التى تجرى فى القاهرة مع يوجين بلاك هى الفرصة الاخيرة » .

كان ايدن يعتقد أن الثورة فى مصر سوف تبقى أو ربما لا تبقى « بما تستطيع او لا تستطيع أن تقدمه للملايين من الفلاحين الجائعين . وهؤلاء هم الذين قدمت لهم الثورة قانون الاصلاح الزراعى ، وكان أول ما قدمته ، ولكنه لا يكفى ، ولا تستطيع ان تقدم شيئا حقيقيا الا عن طريق السد ، ولهذا فان بقاء عبد الناصر مرهون باقامة السد ، ومن هنا يمكن ارغامه على أن يتعاون ويستجيب لنا » ، « يستجيب أى يستسلم » كما قال بلاك بعدئذ .

ولم يكن دالاس ليختلف معه « فلاول مرة اتفقا على سياسة واحدة فى الشرق الاوسط » .

وقال ايدن :

« تجمعت لدينا من كل المصادر السرية وغيرها معلومات عن نشاط المصريين فى كل انحاء الشرق الأوسط : فى ليبيا والاردن ولبنان والعراق والسودان .

وفى كل مكان كان صوت العرب ينشر العداء ، ضد الغرب وضد اذناب الاستعمار ، كما كان يسمى اصدقاءنا ، وذلك فى نفس الوقت الذى كانت تطلب منا فيه الاموال لبناء السد ، وقد بحث سلوين لويد المسالة مع الأمريكيين ووجد تأييدا » .

وقال ايدن ايضا : « اشتكى نورى السعيد شكوى مرة ، وكذلك كميل شمعون ، من أن مصر تحصل بتهديداتها على ما تريد من الغرب وعلى أكثر مما يحصل عليه الحلفاء المخلصون ! » .

وكان دالاس يرى ان مفاوضات السد العالى هى الفرصة بتحقيق هدف آخر سياسى ، وهو تحقيق الصلح والتسوية مع اسرائيل .. مرة اخرى .

ووضع هربرت همفرى ــ وكان يعمل وكيل وزارة الخارجية ومستشار دالاس فى شئون الشرق الاوسط ، وكان من رجال شركات البترول الامريكية ومن ابطال الانقلاب الايرانى الذى قامت به المخابرات المركزية ضد مصدق واسقطته ــ وضع مذكرة بخطه تقضى بأن يكون « السد مقابل الصلح »

وكتبت النيويورك تايمس وهى لسان حال وزارة الخارجية الأمريكية تقول : « تربط حكومة الولايات المتحدة بين مقترحاتها بمساعدة مصر مساعدة طويلة المدى على مدة عشر سنوات لبناء السد العالى وتسوية النزاع المصرى الاسرائيلى ، وتعتقد حكومة الولايات المتحدة أن المساعدة الاقتصادية لمصر تستطيع ان تؤدى الى تسوية عامة للموقف فى الشرق الاوسط » .

ولم يرد الشرط فى المذكرة المشتركة ، ولكن حمله مبعوث خاص من الرئيس ايزنهاور الى جمـــال عبد النـاصر هو المستر « اوبرت اندرسون » .

وكان الـرد بانرفض ، وفى ذلك الوقت كان بن جـوريون منهمكا فى شن غاراته الارهابية على كل مكان من الحدود ، وكان قد انتهى من اعداد خطة الحرب الشـاملة ضد مصر ، بل أعلن بن جوريون انه لا بد أن يقابل عبد الناصر وجها لوجه ، وان اية مفاوضات مع مصر للصلح لا بد أن تكون علنية ومباشرة .

وقد انتهى اهتمام الولايات المتحدة بمشروع السد العـــالى بعد رفض شروط الولايات المتحدة وبريطانيا ، وظهرت تعليقـات امريكية مختلفة تقول :

« اختفى مشروع السـد العالى من اية مناقشـــة فى وزارة الخارجية بعد فشل محاولة اندرسون » !

« طالما لم نستطع شراء الصلح العربى الاسرائيلى مقابل السد فقد مات الحماس ! »

« ان السبب الرئيسى لتخلينا عن السد العالى هو اننـا لم نستطع تحقيق صفقة شراء الصلح العـربى الاسرائيلى مقـــابل السـد ! »

وقال فولبرايت فى تقرير رسمى اعدته لجنة الشـــئون الخارجية للكونجرس :

« تثبت الادلة أن الحكومة الامريكية قد بدات تراجع قرارهـا للرجوع عنه بعد بضعة أسابيع فقط من تقديمه » .

وكان هناك عرض قائم لبناء السد من الاتحاد السـوفيتى ، وقد تقدم به بعد صفقة الاسلحة بقليـل ، واكده بعد ذلك .. ولم تشأ مصر بحث العرض او مناقشته الا بعـد أن تنتهى الى رد نهائى مع الذين بدات معهم المشروع .

وكان طبيعيا أن يبـدأ البحث مع الاتحـاد السوفيتى بعد ما انتهت اليه المباحثات مع الغرب ، ولهذا ثار الجدل والقلق مرة اخرى فى الغرب .

ووضع جمال عبد الناصر حدا للشائعات وصرح للنيويورك تايمس :

« ان العرض السوفيتى لبناء السد العالى حقيقة ، ونحن لا نهدد به احدا ولا نناور به مع احد ، ولكنه عرض عـام ، ونحن لم ندرس كل تفاصيله » .

وكانت الاتهـامات قد انهالت على مصر بأنهـا تلعب على « الحبلين » وانها « تفرط فى استقلالها للسوفيت » .

وفى يونيه سنة ١٩٥٦ جاء وزير خارجية الاتحاد السوفيتى شبيلوف ليشهد احتفالات جلاء آخر جندى بريطانى ، واشتدت الشائعات بأن شبيلوف سوف يعقد الاتفاق السوفيتى على بنـاء السد العالى مع مصر خلال زيارته ، وتحرك الاهتمام مرة اخرى بالسـد ، وكلف يوجين بلاك السفر الى القاهرة لتبين المسـألة وتقصى الحقائق .

واستدعى السفير المصرى الى وزارة الخارجية الامريكية ؛ وسافر الى القاهرة ليعود بالايضاح .

وتأكيدا لان مصر « لا تلعب على حبليـن » ولا تنقض اى اتفاقات كلف السفير المصرى أن يبلغ الحكومة الامريكية أن مصر ما زالت على استعداد لقبول العرض الامريكى ، وقد عدلت صياغة الشروط التى وردت فى المذكرة بحيث ترضى السيادة المصرية .. وقبل الطرفان ..

وعاد السفير المصرى الى واشنطن ، ولـكنه ذهب يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٥٦ ليقابل وزير الخارجية الامريكية دالاس ، فقابله المقابلة الشهيرة كما روى جورج الان وكيل وزارة الخـارجية الامريكية .

« قـرر دالاس أن يلقن مصر درســا ، وان يكون مدويا ومرعبا » :

« دخل السفير المصرى الى مكتب دالاس ، وكان هناك هربرت هوفر وانا وكان السفير حسين متـأمركا جـدا ، وكان يرهق عبد الناصر دائما بمكالماته التليفونية التى يحثه فيها على تأييد امريكا وبعاطفة شديدة ، وقال حسين لدالاس : انه قلـق من العروض الروسية وما سوف تثيره ، وانه لا بد أن تقـوم الولايات المتحدة ببناء السد وباسرع وقت » .

فرد دالاس بهدوء قائلا : « اننا بحثنا الامر جديا ، ونقـدر اهميته ، ولكن بصراحة ان موقفنا الاقتصادى يجعل من المتعـذر على الولايات المتحدة الاشتراك ، ونحن نـسحب العـرض الذى قدمناه ! »

كان ذلك مثل اللكمة فى البطن او مثل البصقة عـلى الوجه كما وصفها .. احد الامريكيين .

كان اول تفسير قدمه دالاس هو الذى جاء فى المذكرة التى اذاعتها وزارة الخارجية بعد المقابلة وتقول : « تبين ان مقـدرة مصر على تخصيص موارد كافية لنجاح المشروع غير مؤكدة ، وهى أصبحت غير مؤكدة الآن أكثر منها فى اى وقت مضى » .

وهى مذكرة لا تشكك العالم فى اقتصاد مصر فحسب ، ولكنها تؤكد لشعب مصر عجزه وتشـككه فى قدرته وفى نظـامه الجديد !

وقد انفجر بلاك الذى ادرك بعدئذ أنه كان مجرد لعبــة فى مناورات ايدن ودالاس ضد مصر ، ووصف البيان بأنه كذب وضيع وقال : « ان دالاس لا يملك الحكم على الاقتصاد المصرى ، وهذه هى مهمة البنك الدولى ، وقد كلفنا أن نجيب عن ســؤالين محدودين هما : هل المشروع ممكن ؟ وهل يتحمله الاقتصـاد المصرى ؟

« واجاب البنك عن السؤالين بالايجاب ، وقال بلاك : انه عندما عاد من القاهرة فى يونيه سنة ١٩٥٦ قابل بنفسه دالاس ومساعديه وقال لهم فى الفاظ واضحة تمام الوضوح : « انه ليس هناك اى شك فى مقدرة الاقتصاد المصرى ، وانه ليس هناك دليل واحد على خلل او تدهور هذا الاقتصاد ، وقد كتبت خطابا بهذا المعنى للحكومة المصرية » .

ولكن اشترك ايزنهاور فى التبرير بكذبة اكبر قال :

قدم عبد الناصر الى يوجين بلاك فى مقابلته الاخيرة مقترحات مضادة ، بعضها لا يمكن ان يكون مقبولا من الدول الثلاث الكبرى، وحينما ابلغنى فوستر هذه المقترحات الغريبة وغير الطبيعية اتفق رأيى ورأى فوستر على ان عبد الناصر ليس جادا فى المشروع او حريصا على اتفاق جدى ، ولهذا اعتبرنا الموضوع منتهيا من كل الوجوه !

ورد عليه يوجين بلاك : « على العكس تماما سألنى ناصر : لماذا لا يحصل على رد نهائى وحاسم من امريكا ؟ واخذت اشرح له مصاعب دالاس والكونجرس ، .ولم يتقدم بأى مطالب مصرية غريبة !

ورد ايزنهاور : « تفسير آخر اتفق فيه مع دالاس وقال : ان صفقات الاسلحة الروسية قد جعلت محصول القطن المصرى كله مرهونا لروسيا ، وجعل هذا من المتعذر على مصر ان تفى بالتزاماتها فى بناء السد » .

واجابه السناتور فولبرايت : « كانت صفقة الاسلحة هى السبب فى الاسراع بعرض المساهمة ، وكانت هى السبب فى سحب العرض .. اى منطق عجيب ؟ »

واضاف فولبرايت : ان الاسباب التى اعلنت لم تكن من الاسباب الحقيقية بالطبع ، ولم تجد اللجنة اى دليل على ان الاقتصاد المصرى قد ساءت حالته قبل سحب العرض » .

وأيد هذا الراى السفراء الغربيون الثـلاثة فى القاهرة : الأمريكى ، والفرنسى ، والبريطانى . وقرر السفير الامريكى بايرود « ان صفقات الأسلحة الروسية لم ترهق الاقتصـاد المصرى بأية حال » . وقد دفع منصبه بعدئذ ثمنا لهذا ..

وقدم دالاس اظرف المبررات وقال أمام الكونجرس الامريكى : « وجدنا أن نصيب مصر في المشروع بالعملة المحلية يشـكل عبئـا لا طاقة لمصر على احتماله ، كان هذا العبء يتطلب تقشفا كاملا لمدة بين اثنتى عشرة او خمس عشرة سنة ، ووجـدنا أن هـذا سوف يكون شيئا لا يحتمل ولا يقـوى الشعب المصرى على احتماله ، واذا ما حدث فسوف يلقى الشعب المصرى كل المسئولية علينا نحن ، وبدلا من أن يحبـونا فانهـم سوف يكرهوننا ! » واثارت انسانيته الفياضة بسخرية الجميع !

وحينما وجد دالاس ان التغيير الاقتصادى لا يقنع احـدا تماما اخرج التفسير السياسى والمذهبى ، وفى مؤتمـر صحفى اعلن :

اعترف المصريون بالصين الشعبية قبل ايام من طلبهم ردا محددا على تمويل السـد ، وكانوا أول دولة عربية تفعـل هذا ، وقد ارغمونا على مواجهة اختبار لم يكن لدينا سوى رد واحـد عليه وهو : هل الدول التى تلعب على كلا الجانبين تحصل على معاملة أفضل من الدول التى تقف معنا وتعمـل فى صـفنا بصلابة ؟ ان حلفاءنا الأوفياء الثابتين يراقبون بعنـاية ليروا مـاذا يكون جوابنا وبين هؤلاء الحلفاء الصناديد حلفـاء هرب فى بلاد مجاورة لمصر !

ولم تكن سياسة مصر غريبة على دالاس ولا مفاجئة له وهو قد عرفها تماما وشرحت له « بالفاظ واضحة غاية الوضـوح » منذ زيارته الاولى سنة ١٩٥٣ وقد ذهبت مصر الى باندونج ؟ واكدت تمسكها بمبادىء وقرارات المؤتمر امام العالم كله .

ولم يكن غريبا أن نعترف بالصين الشعبية بعدئذ ، بل ولم يكن الاعتراف بالصين الشعبية طعنة دامية لأمريكا ، لأن اسرائيل ربيبتها كانت معترفة ، ولأن بريطانيا الحليفة الأولى كانت معترفة، ولأن باكستان اخلص حليفة للولايات المتحدة فى آسيا على حد قوله كانت معترفة بها .

وكان حياد « باندونج » عند دالاس « انتهازية » « ولعبا على الحبلين » ، وكانت مبادىء باندونج عنه « قصيرة النظر حمقاء لا اخلاقية » - ولكن لم يمنع هذا دالاس نفسه ان يقف امام الكونجرس الامريكى فى يونيه سنة ١٩٥٥ أى بعد باندونج بقليل ليدافع بحرارة عن « ان نواصل المساعدة ليوغوسلافيا لأن تيتو رجل على استعداد لتقبل المساعدة من اية جهة ما دامت لا تمس استقلال بلاده ، وان تخفيض المساعدة له سوف يرغمــه على العودة للانطواء تحت لواء المعسكر الشرقى وبذلك نفرض الانحياز على دولة تريد ان تظل فى كلا المعسكرين » .

كان حياد يوغوسلافيا وسيلة للعمل ضد روسيـا ، ولهذا يباركه ، اما حياد مصر فقد اضاف دالاس وصفا له هو « ابتزاز » وفى خطاب على القاه قال : انا رفضنا ان نستمر فى مشروع السد العالى ، لأننا احسسنا ان الحكومة المصرية تريد ان تبتز بالتهديد مساهمتنا فى هذا العمل ، ونحن نكره كلا من التهديد أو الابتزاز ! »

ووافقه ايزنهاور ورد قائلا :

« كان عبد الناصر يعتقد انه يستطيع ان يلعب بالغرب ضد الشرق لكى يبتز من الاثنين » .

وحينما فشلت كل التفسيرات والتبريرات لجا دالاس فى يأسه الى تفسير مبتكر فقال :

« ان عبد الناصر كان يعمل منذ عامين للاستيلاء على قنـاة السويس ، وكان ينتظر فرصة مناسبة ، وهو كان يعلم جيدا انه

لو الح فى طلب نهائى منه فسوف يكون جوابه الرفض ، لأن الكونجرس كان على وشك الانعقـاد ، والكونجرس كان يعـارض المشرع » .

وأكد دالاس : « لقد خلق عبد الناصر متعمدا هذا الموقف ليستولى على القناة ! »

وقال يوجين بلاك :

« تفسير خرافى هزلى .. مستحيل »

وقد عرف بعد الرفض ببعض الوقت كيف اتفق ايزنهاور ودالاس على هذا الرفض ؟ وكيف كانت تحسم المسـائل الكبرى بينهما ؟

« كان ايزنهاور يقضى عطلة فى مزرعته فى جنسبيرج ، وطلبه دالاس بالتليفون وقال له : ان الحكومة المصرية قد ابلغت انها تقبل كل شروط الغرب لتمويل السد كما هى .. وانه ـ اى دالاس ـ يعتقد أن السبب فى ذلك هو أن عبد الناصر قد طلب الى روسيا تمويل السد ، ولكن روسيا رفضت ، ولهذا عاد عبد الناصر الى الغرب ، وقبل كل الشروط ، واضاف دالاس انه انذر المصريين من قبل بأن أمريكا لم تعد فى الموقف الذى يسمح لها بالمضى فى المشروع بسبب معارضة الكونجرس ، وبسبب تغير الرأى العام فى أمريكا .. ووافق ايزنهاور على الفور »

وبعد اسبوع وقبل أن يذهب دالاس لمقابلة السفير المصرى جاء مع هوفر الى ايزنهاور ، وقضيا معه اثنتى عشرة دقيقة اطلع فيها على البيان الذى تقرر اذاعته ووافق عليه وخرجا » .

كانت كل التصرفات والتبريرات مثلا تاريخيا لقدرة الوزير « القديس » والرئيس « البطل » على الكذب والتآمر .

ولم تعلن الأسباب الحقيقية ـ كما قال فونبـرايت ـ ولكن السبب الأول كان ان الحلف الغربى قد استقر « لأول مرة » على هدف واحد .

وكما قال ايدن : « اتفقت السياسة البريطانية والامريكية هذه المرة ازاء مصر ، وقررنا ان مستقبل سياستنا فى الشرق الأوسط يعتمد الى أكبر قدر على عبد الناصر ، واذا ما أثبت لنا استعداده لتعاون والتحالف فسوف نقابله بالمثل • وقد استقر راى الامريكيين على ان المباحثات التى تتم الآن مع بلاك بخصوص السد العالى هى الامتحان ، وهى التى سوف توضح حقيقة ما يريد عبد الناصر ، واذا ما قرر هنا وفى المسائل الأخرى الا يتعاون والا يستجيب .. فان علينا نحن الاثنين ان نعيد النظر فى سياستنا نحوه » .

وكما قال يوجين بلاك بعدئذ : « يستجيب يعنى بالطبع يستسلم »

واتفق ايدن ودالاس « لأول مرة » .. على ان السد العالى هو حياة مصر ومستقبلها ، ولذا ليس هناك فرصة افضل « لاحتواء » عبد الناصر ، ولن تستطيع مصر ان تبنيه الا بمساعدة الغرب ، ولن تتجه الثورة الى الطرف الآخر ، لان هذا يعنى وضع الاقتصاد المصرى كله « تحت رحمة الروس » وليس أمام مصر سوى أن تذعن •

وقد أكدت المخابرات الامريكية ان الروس قد عدلوا نهائيا عن عرض بناء السد العالى ، وانهم أشاروا على مصر بمشروعات صناعية صغيرة ومتفرقة ، لانهم لا يريدون المجازفة بمواردهم فى مشروع هائل وفى مكان غير مأمون لهم •.

وصدق دالاس هذه المعلومات ، وقرر انها الفرصة ليوجه ضربة لا يمكن الرد عليها .

وكان السبب الآخر هو باندونج ، ولم يغفر دالاس لعبد الناصر ذهابه الى باندونج ، ولكنه لم يغفر له أكثر عودته مظفرا من هناك .

وقد نجح مؤتمر باندونج نجاحا تاريخيا ، واصبح أمل كل شعوب آسيا وافريقية ، بل نفذت دعوته الى « قدس الاقداس » فى امريكا اللاتينية .

وظهرت الصين الشعبية لاول مرة كقوة اكبر .. وتزعزعت قوائم احزمة الحصار التى اعدت لاقامتها حولها ، واعترفت بها معظم الدول الآسيوية والافريقية ومنها مصر .

وايد الاتحاد السوفيتى مؤتمر باندونج ، وايد « ميلاد » المجموعة الافروآسيوية ودورها الجديد ، واعلن استعداده اثباتا لتأييده ، لكل المساعدات « غير المشروطة » التى تحتاج اليها لتعزيز استقلالها او تقدمها ..

وقامت مصر بدور بارز وحاسم فى المؤتمر ، حققت كل الآمال التى تعلقت بها ، وبهر المؤتمر قائد الثورة الشاب الذى كان يخرج من بلاده لاول مرة ، وعاد زعيما لمصر ، وزعيما للعرب ، وبزعامة جديدة كاحد اقطاب العالم الثالث والزعيم الاول فى الشرق الاوسط وافريقية .

وكان دالاس لا يطيق الزعامات « التاريخية » وخاصة فى المناطق الاستراتيجية الحاسمة ولا سيما فى الشرق الاوسط .

وكان احد الاسباب الوحدة العربية وارتفاع صيحة القومية العربية والثورة العربية ..

وقد ايقظت المعركة ضد حلف بغداد كل قوى الثورة العربية ، ومادت الأرض تحت كل الانظمة الرجعية العربيـــة ، واصبح للثورة العربية قيادة تاريخية ، واصبح لها قاعدة اكبر فى مصر، أهم دولة عربية ..

وامتدت السنة اللهب الى شمالى افريقية حيث استقلت الجزائر فى ثورة عارمة ، وهددت كل القـــواعد والمصـــالح الغربية والأمريكية الكبيرة .

« ولم تكن الولايات المتحدة تكره شيئا بقدر ما تكره الوحدة العربية ، وكانت في رايها اكبر خطر يهدد المصالح البترولية الامريكية ، ويهدد أمن اسرائيل وسلامتها ، وربما كانت الولايات المتحدة على استعداد لان تسلم بزعامة عبد الناصر العربية في مصر ، ولكن ان تتجاوز حدودها الى كل العرب فهو ما لا تقبله ، وربما تقبله بشرط واحد ، هو أن يستعمل عبد الناصر زعامته هذه في عقد الصلح مع اسرائيل ! » كما يقول كينيث لوف الامريكى .

وكان من الاسباب ان زارعى القطن في جنوب الولايات المتحدة قد عارضوا مشروع السد العالى ، لانه سوف يمكن مصر من التوسع في انتاج القطن الطويل التيلة مما يضر بمصالحهم وينافسهم ، ولزراع القطن كتلة قوية في الكونجرس الامريكى وقريبة بآرائها من قلب دالاس .

ولهذا رفض تمويل السد العالى ، واستقر الراى على سياسة موحدة هي اسقاط النظام بزعامته .

استقرت بريطانيا بزعامة ايدن على ضرورة اسقاط النظام وايدت الرفض . فقط كان ايدن يود « لو تم الرفض في هدوء وبلعبة طويلة المدى » .

واستقرت فرنسا بزعامة جى موليه على ضرورة اسقاط النظام .

وكان رأى دالاس مستقرا منذ اختيار الثورة لباندونج على ضرورة اسقاط النظام .

وقد رفض تمويل السد لانه كان يعتقد « انه بعد نعش عبد الناصر » كما يقول يوجين بلاك :

« وكانت المذكرة الامريكية تحوى تلميحا للشعب المصرى بالا يفقد الامل في المساعدة الامريكية ، وذلك اذا ما تخلص من حكومته بالطبع . وهو تحريض سافر يشبه تماما ما جاء في

المذكرة التى ارسلت الى حكومة مصدق فى ظروف متقاربة .. والتى سبقت الانقلاب الذى اسقط تلك الحكومة والذى دبرته المخابرات المركزية ، واعترفت بفخر بتدبيره » .

وكان راى بن جوريون بالطبع تابعا لراى دالاس ، فقد صرح بعد مارس سنة ١٩٥٤ بانه لن يمكن فرض صلح مقبول لاسرائيل مع مصر ، ولا بد من اسقاط النظام » .

ولكن اسقاط النظام فى مصر كان لا بد ان يحدث بهجوم من الخارج باتفاق مع كل الاطراف .

وفى مايو سنة ١٩٥٦ اتفق دالاس وايدن ــ اللذان كانا نادرا ما يتفقان ــ على ضرورة تدبير انقلاب داخلى ضد النظام القائم فى مصر .

واعدت المشروع الاول المخابرات البريطانية ، وكان ايدن متحمسا شديد الحماس لاتمامه ونجاحه .

واجتمع مسئول فى وزارة الخارجية الامريكية وممثلون لوزارة الخارجية البريطانية فى لندن ، واقروا الخطة المشتركة وحولت للتنفيذ « المشترك » بوساطة المخابرات المركزية الامريكية وقلم المخابرات البريطانى ، ولكن بعد بحث مستفيض انتهوا الى أن الموقف فى مصر غير الموقف فى ايران ، وان الانقلاب غير مضمون النتائج ، لانه ليس هناك فى مصر قوى موالية كافية وقادرة كما كانت الحال فى ايران ، ولهذا ليس هناك وسيلة لاسقاط النظام فى مصر سوى الهجوم من الخارج والحرب .

ولم تكن مصادفة أن يصدر ايزنهاور أمره الى فرنسا بأن تسلم اسرائيل طائرات « ميستير ٤ » التى كانت فرنسا تنتجها لحساب حلف الاطلنطى وحده وفى سرية مطلقة ، وكانت هذه الطائرات هى التى قامت بدور هام فى حرب ١٩٥٦ بقيادة طيارين فرنسيين .

ولم يكن دالاس يتطلع الى ضربة قاضية ضد الخطر الكبير ضد روسيا ذاتها ، اذ كانت احداث ما بعد المؤتمر العشرين فى روسيا وشرقى اوربا توفر فى رايه فرصة لم تسنح من قبل لكى يحقق حلمه الكبير فى تحرير شعوب شرقى أوربا « الأسيرة » ، وفى خلخلة النظام القائم فى روسيا وطيه « طى السجل » بوساطة متناقضاته ، وسيضرب لذلك فى المنطقتين الرئيسيتين : الشرق الأوسط وشرقى اوربا ..

ضربة القنـــاة

حينما تبدأ وحوش الغاب فى التحرش قبل الانقضاض فلا بد من الخروج اليها ، لا بد من المواجهة مهما يكن الثمن ، ولا بد من « ضربة هرقلية » تخلع قلوبها وتدير رءوسها ، وتبدد اى خوف او فزع منها ..

وقد كانت صفقة الاسلحة من روسيا ردا على « الوحش » الامريكى ، وكان لا بد من ضربة اكثر دويا ، ردا على رفض تمويل السد ، وخطط الغزو ومشروعاته وعلى الوحوش مجتمعة !

ولم يكن ما حدث ـ كل ما حدث ـ مفاجاة للثورة ، كانت القيادة برؤيتها الملهمة تتوقعه وتدرك منذ البداية ما لا بد ان ينتهى اليه تلاحق الاحداث .

وحينما عاد بن جوريون الى الحكومة فى فبراير سنة ١٩٥٥ ووقعت غارة غزة بعد اسبوعين • قال مراسل النيويورك تايمز فى القاهرة : « ان بن جوريون لم يعد لمجرد اعداد غارة فى غزة ! » وبدا البحث عن اسلحة انتهى بصفقة الاسلحة مع روسيا .

وحينما جاء السفير المصرى فى واشنجطون فى يوليو سنة ١٩٥٦ ـ وكان ما زال مناصرا جـدا لامريكا ـ واكد ان الولايات

المتحدة سوف تمول السد وانه يحتاج لظروف مساعدة فقط ، أكد له عبد الناصر أن شيئا من هذا لن يحدث ، وان لم يمنعـــه ان يجرب قدراته .

كان عبد الناصر يدرك انهم يريدون مواجهة وبشروطهم ، وكان لا بد ان يخرج للاقاة الخطر الكبير وهزيمته .

وفى ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٦ اعلن : « لن نلتفت اليهم ، ولن نلتفت الى غيظهم ولا الى طمعـــاتهم ، لاننا نؤمن بانفسنا ونؤمن بقوتنا ، ونؤمن بعزتنا .. نؤمنن بمصر ، ونؤمن بأبناء مصر وبشعب مصر ، واذا قامت فى واشنجطون ضجة تعلن - وقد تجردت من اى مبدا من المبادىء التى تقوم على اساسها علاقات الدول - تعلن كذبا وخداعا وتضليلا أن الاقتصـــاد المصرى لا يساعد ، وان الاقتصاد المصرى يدعو الى الشك - فانى انظر اليهم واقول : موتوا بغيظكم ، فلن تستطيعـــوا ان تتحكموا فى مصر ، ولن تستطيعوا ان تستبدوا بنا ، لاننا نعرف طريقنا ، طريق الحرية ، طريق الشرف ، طريق العزة ، طريق الكرامة ».

وقد كان واضحا ان البيان الامريكى ليس فقط تشكيكا فى النظام القائم ، ولكن دعوة للشعب المصرى لكى ينتفض عليه ، وقد شبهه معلقون امريكيون بالخطاب الذى ارسله ايزنهاور الى مصدق برفض مساعدة الولايات المتحـدة قبل الانقـــلاب المشهور فى ايران ولكن يؤكد تأييده للشعب الايرانى .

وربما كان ممكنا فى ذلـك الحـين أن تتلقى مصر الرفض الامريكى فى صمت ، وتستدير لتقبل العرض الروسى الذى كان قائما ، ولكن ادرك عبد الناصر ، انهم يريدون تحديا ، ولا بد أن تثبت مصر انها لا تخاف التحدى ولا تخشاه .

كانت اقاصة لديه ، وكما قال فيه ابعد : « اذا استسلمنا للتهديد فان ذلك يشعر جميع الدول الصغيرة بانها لا تستطيع ان تحقق الحرية والاستقلال ، اننا عازمون على المحـافظة على

كرامتنا وسيادتنا واستقلالنا ضد الاستعمار الجماعي والاستعمار المقنع .. !

وبعد رفض تمويل السد العالي بأيام كان عيد الثورة الرابع في (٢٣ يوليو) ..

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ في الاسكندرية في الذكرى الرابعة لطرد الملك فاروق وقف جمال عبد الناصر وسط الملايين ليعلن القرار الذي تجاوبت أصداؤه في العالم كله ، كان العالم كله وخاصة الغرب يترقب ، كيف يرد ؟ وماذا سوف يفعل ؟

« لن نكرر الماضي بل سنقضي على الماضي ، سوف نستعيد حقوقنا في قناة السويس ، هذه الأموال أموالنا ، وهذه القناة ملك مصر ، شركة مساهمة مصرية ، حفرت القناة بوساطة أبنائها، ومات ١٢٠ الف مصري في حفرها ، شركة قناة السويس القائمة الآن في باريس شركة مغتصبة ، اغتصبت امتيازاتنا ، وعندما جاء دبلسبس الى مصر كان مجيئه يشبه مجيء بلاك الى مصر للتحدث معي .

والتاريخ لن يعيد نفسه ، بل على العكس سنبني السد العالي، وسنحصل على حقوقنا المغتصبة ، سنبني السد العالي كما نريد ، وسنصمم على هذا . ٣٥ مليون جنيه كل سنة تأخذها شركة القناة فلتأخذها مصر مائة مليون دولار كل سنة تحصلها شركة القناة لمصلحة مصر » . وعندما وردت كلمة دلسبس في الخطاب كانت اشارة متفقا عليها ، وتقدمت مجموعة من الرجال الى مكاتب الشركة وادارتها في كل مكان في أرض مصر لتعيد الحق ولتصحح التاريخ .

« تقدمت مجموعات من الرجال الى مكاتب وادارات الشركة في القاهرة والسويس والاسماعيلية وبورسعيد ، واستولت عليها لتدير العمل وتحميه ضد أي محاولة للتخريب » .

وتم كل شيء ـ تماما كما أعد ـ وبسهولة لم يتوقعها المنفذون وغسل عار كبير عمره أكثر من مائة عام .. !

***

كانت فكرة القناة بين البحرين فكرة قديمة قدم الفراعنة ، وتجددت فى العصر الحديث خلال حملة نابليون ، وكانت بين اهداف الحملة الرئيسية . كانت بريطانيا تسيطر على طريق راس الرجاء الصالح ، وتسيطر به على التجارة مع الشرق ، وكان « التجار » الفرنسيون يريدون حفر القناة لتتحول التجارة مع الشرق مرة أخرى الى البحر الابيض المتوسط ، وعن طريق السويس وتحت سيادة « فرنسا » ولكن اخطا مهندسو حملة نابليون فى قياس مستوى البحرين الابيض والاحمر وقالوا : ان هناك فرقا بتسعة امتار بينهما مما يجعل من المتعذر شق القناة .. ولم تبق الحملة فى مصر طويلا لتصحح الخطا .

وورث المشروع بعدئذ « السان سيمونيون » وهم اتباع (سان سيمون) المفكر الاشتراكى « الخيالى » الفرنسى ورأوا فيه أحد المشروعات العصرية « والتكنولوجية » لاصلاح الكون والتقدم بالانسانية ..

وجاء الى مصر زعيم الطائفة « بروسبرانفنتان » وحاول ان يقنع (محمد على) بالمشروع ..

ولكن هذا برؤيته « الواقعية » قال : انه لا يريد « بوسفورا جديدا » وكان يفضل انشاء القناطر على النيل ، ولهذا رفض المشروع .

وبعد نهاية (محمد على) بدأ زحف سيل الاجانب يتدفق على مصر : جاء طالبو الامتيازات ، وممثلو البنوك والشركات ، والمغامرون من كل نوع ، وأصبح الطريق سهلا ميسرا أمامهم .. وبداوا يقبمون كل « اصناف » المشروعات والشركات الوهمية والاستغلالية لمجرد الثراء السريع .. !

وبلغ السيل حدا مقلقا فى عصر الخديو سعيد الذى « كان رخوا مترهلا مترددا ضعيف الشخصية يبهره الأجانب ويخيفونه ويتخاذل تماما امامهم » .

وكان من اشد المقربين اليه نائب القنصل الفرنسى فرديناند الذى كان هو وابوه على صلة وثيقة بالأسرة المالكة المصرية منذ أيام محمد على ، اذ كان ابوه قنصـــلا أيضـــا فى الاسكندرية .

وكان فرديناند « بمكانته لدى الاسرة المالـــكة » يقدم كل الخدمات المكنة ، ويعمل وسيطا لكل طالبى الامتيـــازات من كل الجنســيات انفرنســيين أو البريطانيين او الالمان ، ولكنه كان يتحيز بالطبع للشركات الفرنسية التى ازداد « الوافدون » باسمها زيادة اثارت القنصل البريطانى حتى كتب : « ان هذه الشركات تريد السيطرة وتريد القضاء على سلطات الوالى ومحوها تماما ومعظمها فرنسية » .

وكان سعيد يمنح الامتيازات بلا تمييز ، واذا ما ثارت مشكلة او ضجة دفع « التعويض » او اشتراها مرة اخـرى للحـكومة المصرية . وقد اشترى بخمسة امثال الثمن شركة وهمية لجر البضائع فى النيل سميت الشركة الانجرارية ! »

ولم يكن صعبا على دبلسبس فى أول عام يتولى فيه ســعيد ان يحصل لنفسه على « الغنيمة » الكبرى وعلى امتياز حفر قناة « البحرين » حلم التجار والراســـماليين الفرنســيين منذ عصر نابليون ، وقد تجدد هذا التطلع بعد تولى لويس نابليون الذى كان يريد اعادة مجد عمه الامبراطورى ، والذى كانت زوجتـــه « اوجينى » المغامرة الحسناء على قرابة بدلسبس .

ولم يكن صعبا ان يقتنع سعيد بان « البوسفور الجديد » سيخلد اسمك (أى اسم سعيد) فى التاريخ ، ولن نكون ســببا على الاطلاق فى المساس باستقلال مصر ، بل على العكس سوف بكفله ، وأن تضمن كل الدول حيدة القناة »

وحرر دليسبس الامتياز سنة ١٨٥٤ كما اراد ، وحشده بكل النصوص والبنود الملائمة والتى يستطيع بعدئذ تفسيرها كما يريد .

« والامير العظيم يجب أن يعيش هادئا خالى البال ليتفرغ لشئونه الخاصة وهو يكره المطالب والمنازعات والايضاحات ، وهو يعتمد دائما على تخليصه من اى المتاعب » كما كتب دليسبس .

وقد استغل هذا وافاد منه فى تدبير راس المال ، وكانت تركيا وبريطانيا منذ البداية تعارضان المشروع معارضة عنيفة ؛ وقررت بريطانيا عرقلة المساهمة والاكتتاب فى المشروع فى اوربا ، ولم يكن متحمسا له سوى الفرنسيين ، وكان تدبير راس المال اللازم لتنفيذ الامتياز مشكلة لا بد أن يقع عبء حلها على مصر .

ويروى « نوبار » الذى اصبح بعدئذ وزير خارجية مصر !

« افتتح دليسبس اكتتابه العام فى لندن وباريس وبرلين وفيينا ، وفشل الاكتتاب ، ولكن اعلن دليسبس بجراة ان الاكتتاب قد اكتمل ، وبجرة قلم وبدون علم سعيد اكتتب باسمه بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهى التى بقيت ، وعاد دليسبس الى مصر ، وذهب الى سعيد باعتباره موكله ، وقدم له قصاصة ورق عادية صغيرة عليها كل الحسابات ، وكان سعيد مشهورا بالضجر والملل ، ولهذا سلم الورقة مباشرة الى سكرتيره دون ان يطلع عليها !

وبعد أيام جاء دليسبس بابتسامته المعهودة الى سعيد ، وطلب اليه أن يصدر أمره بسداد الدفعة الاولى من اكتتاب مصر !

ـ اى دفعة ؟

ـ اكتتابك بمبلغ ٨٨ مليون فرنك » .

ـ اكتتابى أنا ؟
ـ نعم اكتتابك .. ان مولاى يعلم انى اكتتبت باسمه ولحسابه ، ولو لم افعل ذلك لفشل المشروع الذى سيخلد اسمه فى التاريخ وسيكفل الاستقلال ، وقد قلت ذلك وكتبته من قبل لسموكم .
ـ قلت وكتبت اين ؟ ومتى ؟
ـ فى الورقة التى قدمت فيها اليكم الحساب عن الاكتتاب.
وامر سعيد باحضار الورقة ، ووجد مكتوبا على ظهرها ٨٨ مليونا باسم صاحب السمو !
وقال ديلسبس :
ـ هاندا ترى يامولاى اننى كتبت ذلك ، وانك كنت على علم به ، وقد وافقت عليه بسكوتك ، وعلم بذلك كل رجالى الذين يعملون معى والذين يحملون لك كل الحب والاحترام .
واعترض سعيد مرة اخرى ، ولكن امر ديلسبس على ان السكوت فى المرة السابقة معناه الرضا ، وتكلم سعيد عن الازمة المالية المستحكمة ، ولكن ديسلبس طمانه وقال : انه سيعمل على تفريجها بكل ما يستطيع .
ولم يكن لدى سعيد ما يقوله بعدئذ سوى ان يردد بلهجته السوقية « لقد اعطانى خازوقا مغربيا » !
وقال سعيد قبيل وفاته بوقت قصير :
« كان كل ما طلبت ٣٠ الف سهم ، فاذا بى اتورط فى ٨٠ الف سهم ، ولم استطع ان اعترض ، ولم احاول وقد انتهى الامر، وهم الآن يزينون لى عقد قرض يمكننى من دفع قيمة الاسهم ، ولكننى لم اقرر شيئا ، ولم تعد لدى ارادة ولا عزيمة » .
ولم تكن الاسهم لتعنى شيئا بالنسبة لديلسبس بغير ثمنها ، ولهذا الح على سعيد لكى يعد قرضا فى اوربا يسدد منه ثمنها ،

وكان هو الذى زين لسعيد واقنعه بعقد أول قرض أجنبى تعقده مصر » وكان فاتحة وقوع مصر فى أنياب المالية الدولية ، وكان القرض بمبلغ ٦٠ مليون فرنك ، وبدفع على ثلاثين عاما ، ولكن حينما يتم سداده يكون قد استوفى ثلاثة أمثال الدين ! » .

وقد تردد سعيد فى عقد القرض الثانى لا لشىء ألا لأن حالة البلاد كانت سيئة الى أبعد حد .. كان « بداية التدهور » كما سمى عصر سعيد .. وتولى اسماعيل واصطدم هو والشركة سريعا ، واتفق الوالى الجديد ووزيره نوبار الجزء الاكبر من جهودهما فى الفترة من عام ١٨٦٣ — ١٨٦٩ فى المنازعات التى لا نهاية لها مع شركة القناة ، وكان ديلسبس يختلق المنازعات لكى يحصل على التعويضات حتى تعطل كثير من الاصلاحات ، وتعرقل تطور البلاد : الاقتصادى والاجتماعى .

ولم يكن ديلسبس فى الحقيقة يسعى لعمل يثرى منه ثراء واسما فحسب ، أو لاقامة عمل هندسى وعلمى كبير ينفع به العالم والناس ، فهو لم يكن مهندسا ولا عالما ، ولكنه كان يريد أن يرسى دعائم شركة على غرار الشركات « الاستعمارية » الكبرى التى سيطرت على آسيا ، والتى كانت تستعد للسيطرة على افريقية : كانت طلائع الصراع من اجل افريقية قد بدات ، وكان يريد اقامة قاعدة استعمارية جديدة على نمط شركة الهند الشرقية البريطانية او شركة جزر الهند الشرقية الهولندية او غيرهما من الشركات التى تبدأ بالتجارة او الملاحة او الصناعة ، ثم تنتهى بالاستيلاء على السلطة وكل الدولة !

وكانت فرنسا قد جربت الطريق العسكرى خلال حملة نابليون ، ولم تنجح ، وجربت الطريق السياسى غير المباشر خلال عصر « محمد على » ، وارادت أن تجعل منه تابعا ينفذ سياسة فرنسا ، ولكنها لم تنجح ، وهى الآن بعد سقوط (محمد على) وبداية التدهور تجرب طريقا آخر : الاستعمار « الاقتصادى » .

وكان هذا هو الهدف الرئيسي وراء مشروع ديلسبس .

« كثيـرا ما كانت تتباهى شركة القنـاة بأنها حيث برزخ السويس ، وادخلت المدائن والعمران في مصر ، وكسبت مديرية جديدة لمصر ، ولكن هذه المديرية كانت في الحقيقـة مصـطبة استعمارية على ابواب الدلتا » .

« ولم يكن ديلسبس يريد ان يشق قناة فقط في المنطقة الشرقية ، ولكنه اوضح منذ البداية انه يريد انشاء مستعمرة زراعية عسكرية يكون قوامها الفلاحون والبدو المتنقلون ثم البدو الجزائريون ثم بعض المسيحيين من الشام ، وهو قد أراد ان يستخدمهم كعمال في البداية ، ثم يتوطنون بعدها تماما ، وقد أرسى ديلسبس قواعد مشروعه الاستعماري هذا منذ عام ١٨٥٦ وكان سيؤدي في النهاية الى احتلال فرنسي » .

ولم يكن ذلك خافيا وقد تقدمت تركيا التي كانت تتصرف بوحي من بريطانيا بمذكرة الى الحكومة المصرية تقول :

« ينص عقد الشركة أن لها الحق في جميع الجهـات التي تمتد اليها القنوات والمطالبة بملكية الاراضي التي على ضفافها ، ولا توجد أية قوة تمنع الشركة متى شاءت ان تنشىء في مواقع هامة من اراضي الدولة مستعمرات شبه مستقلة عن الدولة » .

وتصاعدت احلام ديلسبس بعد تفاقم النفوذ الأجنبي في عهد اسماعيل .

وفي ٦ يونيو عام ١٨٦٢ وصل الى مصر فجأة الأمير عبدالقادر الجزائري وكان قد نزل عن كل تاريخه ، وأصبح من رجـالات فرنسا ومن اعوان ديلسبس .

واجتمع مع مجلس ادارة شركة قنـاة السويس اجتماعا استثنائيا ، وقرر الموافقة على اقتراح من ديلسبس بمنح الأمير قطعة ارض مساحتها « الف هكتار » ..٢٤٠ فـدان من ارض

السويس ، وذلك بعد ، تصديق الامبراطور نابليـــون ، كانه الحاكم الشرعي للبلاد !

وتنبهت الحكومة المصرية الى ما تدبره الشركة مع الأمير ، ولذلك طلبت اليه أن يغادر البلاد على الفور .

ولم تتراجع الشركة ، وما لبث الأمير عبد القادر أن عاد مرة أخرى بناء على دعوة من ديلســبس ، وحينئذ قدمت الحكومة المصرية احتجاجا رسميا .

وكان مشروع ديلسبس يرمي الى توطين الأمير عبد القادر الجزائري مع خمسين اسرة جزائرية موالية لفرنسا ، وتكوين نواة يلتف حولها البدو من مصر والشام والجزائر ، واقامة قـاعدة استعمارية « فرنسية » جديدة .

واحبطت الحكومة المصرية هذا المشروع ، وصاح اسماعيل فى قنصل فرنسا قائلا :

« ان حكومتك تتهمنى بعدم الميل الى فرنســـا ، وهذا غير صحيح ؛ ولكننى لا استطيع ان استبيح لكم دمى وبلادى ! ان الشركة تنظر الى مصر كأنها بلد محتل ! » .

وصاح مرة أخرى :

« ان الشركة ما فتئت تعمل فى كل مناسبة على اذلال مصر ومعاملتها معاملة التابع للمتبوع ، كأنما كانت مصر للقناة لا القنـاة لمصر ! » .

واستفزت أساليب الشركة حتى قنصل فرنسا يوجاد فكتب :

« ان الشركة تتصرف احيانا كحكومة مستقلة او دولة داخل الدولة ، ولهجتها فى رسائلها الى الحكومة المصرية تبعث على القلق وسوء الظن وفى وقت يجب أن تتسم سياستنا فيه بالحكمة » .

وقد طردت الشركة هذا القنصل من مصر .

وقد كان امتياز القناة سنة ١٨٥٤ يعطى مصر حق اقامة تحصينات على القناة ، ولكن عمل ديلسبس حتى اسقط هذا النص فى سنة ١٨٥٦ والا يكون لأحد حق اقامة تحصينات فى القناة « وقد كان اهمال التحصينات سببا فى أن وجد الانجليز سنة ١٨٨٢ منطقة القناة عوراء فاقتحموها الى القاهرة ! » .

وكان ديلسبس هو الذى اقنع « عرابى » بان الانجليز سيحترمون « حيدة » القناة ولن يخترقوها .

وقد بدا العمل فى القناة سنة ١٨٥٩ ، واستنزف فيه كل قوى شعب مصر وعرقه ودمه .. !

وكان الإمتياز ينص على أن الحكومة المصرية تقدم العمال بناء على طلب المهندسين المشرفين على العمل وتبعا للحاجة ، كما ينص ايضا على ان تحديد عدد العمال يجب أن « تراعى فيه حاجة الزراعة الى اليد العاملة فى أوقاتها » .

وقد اتفق على ان تقدم مصر شهريا عشرين الف عامل ، ولكن ديلسبس طالب « بجيش كامل من العمال قوامه ثلاثون الفا على الأقل » ، وكان عدد العمال الذين يجندون فى الواقع يبلغ ستين الفا ، وهذا يبين مدى السخرة والوطأة على الزراعة وفى بلد لا يزيد تعداده على خمسة ملايين ! »

وكانت الشركة تنهك عمالها وفيهم أطفال عديدون بالعمل المرهق المضنى ، ولا تعنى بأحوالهم الصحية سواء أجورهم أو غذاؤهم ، وكان العمال الصعايدة يضجون بالشكوى من البسكوت العفن الذى كانت توزعه عليهم الشركة ، ومن ندرة الماء الذى يشربونه ، ومن عدم توافر وسائل الطهو والعيش .. وفتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى كانوا يموتون كالذباب وبالآلاف « وقد اضطر الوالى سعيد أن يرسل فرقة من الجيش كانت من فرقه المفضلة وقوامها ٥٠٠٠ جندى ، وحملتهم سفينته البخارية الخاصة فى النيل حتى القاهرة ، ومنها انتقلوا الى السويس ،

وعلى الرغم من اوامر الحكومة لم يستطيعوا البقاء يوما ، وتمردوا على ضباطهم فى اليوم التالى لوصولهم وفروا هاربين !

وحاق بالزراعة المصرية خسارة جسيمة بسبب مطالب الشركة الملحة التى لا تنتهى .. وقد ظلت أكثر من اربعة اعوام تسخر جيشا من العمال المصريين قوامه فى المتوسط - ثلاثون الف رجل - يستبدل بهم غيرهم فى كل شهر ، وكان العمل يجرى فى مناطق وعرة وخطرة :

قال المهندس الفرنسى أوليفاريت كبير مهندسى الشركة : « وكان العمال يخوضون فيها فى الطين والماء ، ويحملون الطين السائل لينساب ويغمر اجسادهم على حين يعملون فى جحيم من حرارة الشمس ، ويزيد من حرارتها انعكاسها على رمال الضفتين وهذه هى السخرة ، والبؤس والجوع والموت لجماهير غفيرة من العمال والفلاحين ! »

ولم ينس ذلك المهندس ان يقرر ان العمال المصريين اذا احسنت قيادتهم رائعون حقا ، وهم ذوو جلد عظيم ، وفى كل يوم يزدادون خبرة ومهارة ، وقد رأيت عن كثب فرقة عمال شحن وتفريغ ، فبهرت بها ، وبعض هؤلاء الرجال يشتغلون عشر ساعات فى اليوم تحت وطأة اثقال فادحة وبنفس راضية معبرة كنفس الطفل ، وهؤلاء شعب عريق ، ولن يكون من السهل الاستغناء عن معونتهم لنا وخاصة فى الصيف ! »

وقد اثارت « مأساة » العمال المصريين حتى تركيا .. وارسلت فى مذكرة للحكومة المصرية احتجاجا بأنه على الرغم من الغاء السخرة فى جميع بلاد الدولة العثمانية وعلى الرغم من اصدار الرسوم الأخير بتحريمها من لدن والى مصر فان اعمال شركة السويس لا تزال تتم بمقتضى هذا النظام ! ، وان الادارة المصرية ترغم كل شهر عشرين الف رجل على ترك اسرهم واراضيهم للاشتغال فى القناة ، وهم مضطرون للعودة على

نفقتهم ، واكثرهم يقطعون مسافات طويلة ، وهـذا بخلاف ما يحيق بهم من خسائر بسبب اكراههم على ترك مصالحهم » ..

ولم تكن الحكومة المصرية تملك شيئا ازاء الشركة .. وحينما فاضت الحال ارسلت مذكـرة تستصرخ ضـمير الحـكومة الفرنسية :

« فى كل شهر تجمع الحكومة المصرية بالقوة عشرين الف رجل وترسلهم الى القناة ، والواقع ان عددهم الحقيقى ستون الفا ينتزعون شهريا من شغلهـم وذوى قرابتهم ، أى ٧٢٠ الفا فى السنة ، وفى أى بلد حتى من أجل الدفاع يمكن أن يحشد مثل هذا العدد الضخم ؟

ان فى مصر ٤ ملايين نفس منهم ستمائة الف فى المدن معفون من السخرة وثلاثة ملايين وأربعمائة الف متفرغون للزراعة ، فاذا اسقطنا عدد النساء والأطفال والعجائز كان العبء كله واقعـا على سبعمائة او ثمانمائة الف فلاح ، يكرس كل منهم فى العام شهرين من حياته للشركة .

وزيادة على ذلك فان الفلاح الذى يشتغل للشركة يتحمل نفقات الطريق والاسفار ، ولا يتقاضى من الشركة سوى (قرشين صاغ) فى اليوم مع أن أجره فى بلده يبلغ ٥ ـ ٦ قروش ، ويظل غائبا عن اهله قرابة شهرين » .

وذهب نوبار وزير خارجية مصر الى باريس ليبحث الامر ضمن كل الامور المعلقة بين الحكومة والشركة ، وحينما لم يجد أية استجابة هددت الحكومة المصرية بسحب العمال المصريين من القناة .. وحينئذ فقط اضطرب ديلسبس وخاف أن يتوقف العمل تماما فى القناة ..

وبصلاته بالامبراطور والامبراطورة طلب الى الامبراطور ان يتدخل وأن يكون الحكم بينه وبين مصر فى كل المشاكل المعلقة ،

وقبلت مصر هذا الاحتكام الذى لم تطلبه ، والذى رتبه ديلسبس .

والف الامبراطور نابليون الثالث « لجنة » اعدت له تقريرا مفصلا ، واصدر حكمه وكان كما وصف فى ذلك الحين : « مثار دهشة كل القانونيين فى أوربا » اذ كان نموذجا للتحيز والاجحاف !

ذلك ان الحكم قضى فى البند الخاص بالعمل بأن على الشركة ان تستخدم الآلات والمعدات الميكانيكية الحديثة ، وان تزيد عدد العمال الأوربيين وتحلهم محل العمال المصريين ، وعلى الحكومة المصرية من جهتها ان تدفع للشركة تعويضا عن هذا قدره ٣٨ مليون فرنك ! »

وقد علق المهندس الفرنسى أوليفييه ربت على هذا فقال :

(ان احلال الآلات والعمال الأوربيين محل المصريين لا يبرر اطلاقا اكراه مصر على دفع ٣٨ مليون فرنك ، وخصوصا ان الآلات الحديثة والعمال الفنيين كان لا بد منهم فى مرحلة التوسيع والتعميق النهائية ، والواقع أن الشركة هى التى كان يجب ان تدفع تعويضا لمصر عن خسائرها) ، وبرغم ذلك دفع التعويض وانتهت السخرة قانونا ، ولو انها استمرت مع الاستغلال فى الواقع !

وحدث ان احتاجت الشركة الى « جهد استثنائى » لتطهير خمسين كيلو مترا من ترعة الاسماعيلية ، واستجاب اسماعيل الذى كان قد سقط تماما فى الديون فى قبضة الأجانب .

وارسل الخديو فرقة من ١٥ الف رجل برياسة المهندس على مبارك قامت بالعمل على خير وجه ..

واستشارت المهندس الفرنسى الكبير « اوليفييه ربت » فكتب يقول :

« فى أى بلد آخر غير مصر يوجد ١٥ الف رجل فى استطاعتهم أن يتموا فى أقل من خمسين يوما حفر ونقل ما يقرب

من نصف مليون متر مكعب على حين أن ارجلهم فى الطين ولا شىء يظلل رءوسهم سوى السماء ؟ » .

وبعد حفر القناة كان قد مات من العمال المصريين اكثر من ١٢٠ الف عامل ..

وكانت مصر قد دفعت من النفقات والتعويضات والالتزامات ما يقرب من ثلثى نفقات القناة « ٢٥٣ » مليون فرنك من النفقات التى بلغت ٤٣٢ مليون فرنك .

وتم حفر القناة وافتتحت فى نوفمبر عام ١٨٦٩ فى الحفل الذى وصف بأنه ابهى حفلات القرن ، وقد استدان اسماعيل قرضا بمليونى جنيه ، ليقيم هذا الاحتفال ، وكانت ضيفة الشـــرف الامبراطورة اوجينى امبراطورة فرنسا التى خطب زوجهـــا فى الجمعية الوطنية الفرنسية بمناسبة نهاية العمل ، ولم يشر بكلمة واحدة الى مصر او الى المصريين فى ذلك الخطـــاب ، ونسب الفضل كله الى فرنسا وعبقرية فرنسا ..

وافتتحت القناة !

وبعد اتمام العمل بدأت المرحلة الثانية من خطة دبلسبس وهى أقصاء مصر تماما عن القناة والاشتراك فى ادارة القناة .

وكان لها هذا الحق بمقتضى الأسهم التى تملكها ١٧٦٠٠٠ سهم وبمقتضى بنود الامتياز ..

وقد عقد الامتياز الأصلى سنة ١٨٥٤ بمنح حق « تعيين مدير الشركة يكون دائما بوساطة الحكومة المصرية التى تختاره ما امكن من بين كبار المساهمين » ولكن ظل ديلسبس يسعى حتى اسقط هذا الحق فى تعديل سنة ١٨٥٦ ، وأصبح تعيين المدير من حق مجلس ادارة الشركة فقط .

وقبيل نهاية العمل تم الاتفاق بين اسماعيل وديلسبس على تسوية عامة بشأن كل مخالفات الشركة تدفع مصر بمقتضاها ٣٠ مليون فرنك تعويضا للشركة ..

ولما كانت خزائن الحكومة المصرية خاوية وقد استهلكت ديون اسماعيل كل شيء وأتت على كل الموارد ــ فقد طلب ديلسبس ان يكون السداد عن طريق تسليم الشركة كوبونات الاسهم التى تمتلكها مصر وبالقدر اللازم لسداد الثلاثين مليونا .. !

وبعد الاحتفالات استصدر ديلسبس قرارا من الجمعية العمومية للمساهمين بأن المالكين لأسهم مجردة من الكوبونات لا يحق لهم الاشتراك فى الجمعية العمومية ، وكان المقصود مصر .

ولم يمض قليل حتى باع اسماعيل كل ما تملك مصر من اسهم لبريطانيا فى الصفقة المشهورة وبأبخس ثمن ، وبذلك أصبحت مصر مبعدة تماما عن القناة .. ولم تعد الى الاشتراك فى ادارتها الا سنة ١٩٤٩ حينما سمح أن يكون مصريان فى مجلس ادارة الشركة تعينهما الحكومة المصرية ..

ولم تكن القناة هى كل ما خسرته مصر ، بل كانت المقدمة ، وهى كانت نموذجا « دل الجميع على الفرصة والوسيلة » واصبحت مصر فى عهد اسماعيل اكبر سوق فى العالم للمضاربات والتعويضات : أصبح فيها ١٧ دولة داخل الدولة بعدد القنصليات ، وكان رعايا الدول من تجار ومقاولين وغيرهم يخلقون الفرص لايجاد نزاع مع الحكومة على طريقة ديلسبس ، ويحتالون فى تأويل العقود والاتفاقات واللوائح لمطالبة الحكومة بتعويضات ضخمة ، وكان القناصل يتواطئون معهم فى سلب الخزانة المصرية ، ولا يحجمون عن تهديد الحكومة بأساطيلهم ، لذلك بدأت مصر تفاوض فى انشاء المحاكم المختلطة ، وهى محاكم من قضاة اجانب ومصريين لنظر قضايا الأجانب ..

ولكن فرنسا اقامت العراقيل خلال تسع سنوات كاملة حتى تمت القناة خوفا من ان تحل سلطة قضائية محل السلطة الدبلوماسية التى كان يستند اليها ديلسبس » .

ولم يقدر لديلسبس مع هذا أن يخدع كل الناس كل الوقت ؛ فقد اصطدم مشروعه الثانى وهو « قناة بناما » والمصالح الامريكية، وانكشف أمره الذى لم يكن لينكشف فى مصر أو بسبب مصر .

وفى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ حكمت محكمة جنايات باريس على فردیناند دیلسبس وابنه شارل بالسجن خمس سنوات بتهمة النصب والرشوة .

« كان يرشو الصحف والساسة والدبلوماسيين وثبت ان ١٥٠ نائبا وشيخا فى مجلس البرلمان الفرنسى كانوا يتقاضون منه مرتبات وعمولات ، وان رؤساء وزارات ووزراء كانوا يتقاضون بطريق مباشر أو غير مباشر آلاف وملايين الفرنكات على سبيل الرشوة .. ومن بينهم « كليمنصو » اشهر رؤساء وزراء فرنسا حتى الحرب العالمية الاولى ..

وقد عاشت « قناة السويس » فى تاريخ وحياة مصر جرحا عميقا داميا يتوارثه جيل بعد جيل .

وكانت الشركة تدرك « ضخامة » الحساب الذى لا بد انه سوف يسوى يوما ؛ ولهذا كانت تبحث دائما عن ضـمانات ، وتريد دائما ان تؤجل هذا اليوم ..

وفى بداية القرن العشرين وقبل ستين عاما من نهاية الامتياز الذى كان « ٩٩ عاما » طلبت الشركة مده .. وتوقف المشروع حينما قضت رصاصات شاب مصرى وطنى على رئيس الوزراء الذى طرح المشروع ..

ومنذ سنة ١٩٥٥ وبعد أن وضحت سياسات مصر ومبادئها الجديدة بدا جورج بيكو مدير الشركة الفرنسى يبدى مخاوفه وقلقه حول الموقف بالنسبة لقناة السويس فى سنة ١٩٦٨ وهو موعد نهاية الـ ٩٩ عاما ونهاية الامتياز ، وطالب « بتنسيق بين فرنسا وبريطانيا وامريكا حتى تتلافى ازمة انتقال القناة الى المصريين الذين لا يستطيعون ولا يعرفون كيف يديرونها ! » وطالب

ايضا بان « تظل الشركة بعد سنة ١٩٦٨ وفى ظل اتفاق خاص هى القائمة على شئون القناة حتى لا تضطرب او تفسد ! »

وفى اوائل سنة ١٩٥٦ حذرت جريدة التايمس البريطانية شركة قناة السويس « من ان تخضع لضغط مصر » وان تزيد عدد الموظفين المصريين وهم الموظفون التابعون لحكومة عسكرية وطنية مما يؤدى الى اختلال شئون القناة ..

وفى يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ اعلن قائد الثورة ، رئيس الجمهورية ، باسم الأمة :

« تاميم الشركة العالمية لقناة السويس لتصبح شركة مساهمة مصرية » .

وبذلك تم تصحيح التاريخ !

ثــورة القراصنة

كان السير أنتونى ايدن فارس الامبراطورية ، وحامل وسام ربطة الساق ، ورئيس وزراء المملكة المتحدة — يقيم حفل عشاء ساهر فى المقر الرسمى لرئيس وزراء بريطانيـــا « ١٠ دوانتج ستريت » ولضيف عزيز على الامبراطورية .

وكان ايدن يجلس محاطا بكل أقطاب الوزارة واولاد وحفدة بناة الامبراطورية أعظم امبراطورية عرفها التاريخ ، والتى كانت الشمس لا تغرب عنها ، ويجب الا تغرب !

اللورد سالسبورى ، والسير أليك دوجلاس هيوم ، وهارولد ماكميلان ، واللورد كيلمور ، والمستر سلوين لويد .. الخ وكل بالقابه واوسمته المتلالئة وبتاريخه « فى خدمة الامبراطورية » .

وكان ضيف الشرف الغالى هو جلالة الملك فيصـــل الثـانى ملك العراق ومعه رئيس وزرائه السيد نورى السعيد ..

وكان السير أنتونى ايدن سعيدا بالغ الســـعادة ، يتأمل باعجاب ضيفه « الشاب كأفضل نموذج للحاكم الشاب الذى يرعى شعبه ويحرص عليه ، متواضع فى حياته ، « بسيط » فى تصرفاته ، وحينما سمعت خطبته فى العشاء الذى أقيم له بالامس فى بكنجهام بالاس سرح خيالى بعيدا الى أول لقاء لى مع جده

منشىء العراق وعميد الاسرة الهاشمية .. رافق لورنس طوال مسيرته ، وظل حليفنا منذ الحرب العالمية الاولى .. ان (فيصل) الاول فخور بحفيده هذا المساء » .

وحينما انتقل بتاملاته لنورى السعيد توالت ذكريات حافلة ايضا : « اول لقاء لنا فى بغداد سنة ١٩٢٥ ، ومن يومها اصبحنا صديقين حميمين ، وكان تاريخا طويلا .

بدأ فيصل الأول قائدا للثورة العربية سنة ١٩١٦ وانتهى واجهة حققت السيطرة والاستقرار « البريطانى » فى العراق .

وتولى بعده ابنه « غازى الاول » ، ولكنه اخطأ وانضم للوطنيين ، ومات بعد فترة حكم قصيرة فى حادث غامض مما تخصصت المخابرات البريطانية فى مثله لمن يعارضون مصالح الامبراطورية ينحرفون عن خدمتها .

وتولى بعده ابنه الطفل فيصل الثانى ، وكان لعبة طيعة فى يد خاله الوصى عليه « عبد الاله » ثم فى يد رئيس الوزراء نورى السعيد ، رجل بريطانيا واملها الباقى .

وكان نورى هو امل ايدن الاول والاخير ، كان نورى قد اصبح اقل سمعا ، ولكنه ما زال صارما ، واشد عزما وتصميما ، وكان ما يعنيه ويهمه هو الحاضر ، وكان على وعى عنيف حاد بالخطر المميت الذى يحيط به .. من ناصر .

وهذا ما يجمعهما الآن .. اذا تمردت مصر بقيادة ناصر فما زال هناك العراق ، وما زال هناك نورى يصحح الموازين والأوضاع !

وقطع على ايدن تاملاته العذبة سكرتير وضع ورقة امامه على مائدة العشاء قراها ، وامتقع وجهه واصفر اصفرارا شديدا .

ووقف ايدن منفعلا كما لم ينفعل « لورد » بريطانى عريق .. واعلن النبأ .. « لقد امم عبد الناصر قناة السويس ! » .

وفى حفل آخر مختلف ، وقف غريمه الاول « الفــلاح » عبد الناصر واعلن وسط جموع حاشدة من لابسى الجلاليب تأميم أهم ممر مائى فى العالم .

وفى صمت ووجوم أكمل المدعوون الى حفل العشاء الساهر عشاءهم بسرعة ، ثم انفض الحفل مبكرا .

وغادر الضيفان « العظيمان » الحفل ولم ينس نورى السعيد وهو ينصرف أن يشد على يد ايدن مشجعا وناصحا وأمينا .. « اسحقه .. اسحقه الآن وبلا تردد .. اسحقه وبلا رحمة » .

ودعا ايدن مباشرة الى اجتماع لمجلس الوزراء فى الفــرنة المجاورة .

« كان الكل ببدلة السهرة ، وبكل الاوسمة ، وبدأ البحث عن الباقين فى سهرات لندن وحفلاتها ، وجاءوا واحدا بعد الآخر .. باطقم مختلفة .. جاء مونتباتن ببدلة السهرة العسكرية وبكل أوسمته ووسامته ، وجاء كل رؤساء اركان الحرب ، ودعى السفير الفرنسى وكان الوحيد الذى جاء ببدلة عادية حتى وصل القائم بالأعمال الامريكى الذى دعى لأن السفير ذهب فى الصــباح ليقضى اجازة مطمئنا » .

وعقد « اغرب اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى » لبحث مسألة من « أخطر المسائل التى واجهت بريطانيــا بعد الحــرب العالمية الثانية » .

« وكان اجتماعا محموما » كانت هناك درجات متفاوتة من الجهل والحقد ، ولكن لم يكن هناك اختلاف أو معارضة ..

وقرر ايدن الحرب على الفور ووافقوا جميعا .. وكان أكثرهم انفعالا وبهلوانية « ماكميلان » ..

وفى صباح اليوم التالى أرسل ايدن رســالة مطولة الى ايزنهاور تقول :

« آن الاوان لموقف حاسم ونهــائى من مصر ، ان نفوذكم ونفوذنا سوف يضيع الى الابد وبلا رجعة فى الشرق الاوسط اذا لم نحسم كل شىء ، ويجب الا نسمح لانفسنا بان تستغرق فى الحجج القانونية ، حول حق حكومة فى التاميم او عدمه ، وحول مقدرة المصريين المالية على دفع التعويض او لا ، فان الامر اخطر من هذا ! ..

وانا وزملائى فى الحكومة مقتنعون تماما باننا يجب أن نكون مستعدين آخر الامر لاستعمال القوة لكى نعيد عبد الناصر الى رشده ، ونحن من جانبنا مســتعدون لهذا ، وقد اصــدرت تعليماتى هذا الصباح الى رؤســاء اركان الحرب لاعداد خطة عسكرية للعمل فورا ، وعلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة تنسيق مواقفها » .

واختار ايدن بالفعل القائد الذى تسند اليه العمليــة وهو الجنرال « ستوكويل » الذى اخلى حيفا ذات يوم والذى عمل فى منطقة القناة ، وارسل فى استدعائه من المانيا « ليقدم فى اسرع وقت ممكن خطة الهجوم » !

وكان دالاس يوم التاميم فى امريكا اللاتينية فى « ليمــا » عاصمة بيرو ، حيث ذهب فى جــولة تفتيشــية فى عواصم الامبراطورية !

لقد ردع مصر واطمأن ، واذا كان هناك نبأ قد يأتى بعدئذ من الشرق الاوسط فلن يكون سوى رد الفعل ، ولا يمكن أن يكون غير تخلخل قواعد النظام فى مصر أو تمــرد الشعب المصرى ، وانتفاضته ضد النظام .. أو النبأ الحــاسم وهو ســقوط ناصر .. !

وقد سخرت وزارة الخارجية الامريكية من تحــذير وجهه السفير الفرنسى فى واشنجطن كوف دى مورفيل الذى ادرك بعد نظر وبمعرفة وثيقة بشئون مصر « أن مصر قد تؤمم قناة السويس

ردا على الرفض الأمريكى لتمويل السد » ولكن استبعد هذا الاحتمال تماما ، ولهذا ذهب دالاس الى « ليما » ، وذهب الباقون الى عطلة « الويك اند » .

وحينما وصلت رسالة ايدن الى ايزنهاور ، ورأى قرار ايدن بالحرب مباشرة وعلى الفور ارتبك وقرر أن يوفد « مورفى » وكيل وزارة الخارجية الامريكية اليه لكى يهدىء ايدن قليلا حتى تتضح الامور » .

وفى باريس سادت الهستيريا ، واستدعى وزير الخارجية الفرنسى بينو السفير المصرى ، وجرت مقابلة عاصفة فقد فيها بينو اعصابه واولويات المجاملة الدبلوماسية ، وانهال بالشتائم على مصر ، ثم قذف للسفير بمذكرة احتجاج قذفها له السفير المصرى بدوره فى وجهه ، واغلق الباب بعنف وخرج هائجا ..

واستدعى بينو السفير الأمريكى بعده ، واعلن له فى سورة غضب « ان تاميم القناة عمل لا يختلف فى شىء عن احتلال هتلر للراين ، واذا لم يرد الغرب بسرعة وبعنف فان بترول الشرق الاوسط وكل خطوط وانابيب هذا البترول سوف تؤمم بعد ثلاثة اشهر ، وسوف تقع اوربا بهذا تحت رحمة العرب » .

وطلب بينو الى السفير الأمريكى ايضا « أن تسمح امريكا لفرنسا بأن ترسل على الفور سربين آخرين من طائرات المستير المخصصة لحلف الأطلنطى الى اسرائيل » .

وأكد بينو للسفير الأمريكى « أن فرنسا وبريطانيا على أهبة احتلال القناة ، وهذه المهمة لن تكون صعبة ، ولن يستطيع الروس حماية مصر او مساعدتها ! » .

وكما حدث على الشاطىء الآخر للمانش اختير قائد للحملة الفرنسية وكان الجنرال « بوفر » على أن يكون نائب القائد للقوات المشتركة الانجلوفرنسية ، واخطر الجنرال ديجول بقرار

الحرب ، ووافق لكنه اعترض على اسناد القيادة العامة للبريطانيين ، ووضع القوات الفرنسية تحت قيادة بريطانية ، ولهذا تقرر أن تظل القوات الفرنسية مستقلة فى اطار العملية المشتركة ..

اصبح الفرنسيون يرون أن المعركة معركتهم مباشرة ..

لم تعد مهمة فرنسا تسليح اسرائيل ، لتقوم بهجوم يؤيدونه ولكن اصبحت حربها ، ولا بد أن يكون لها مباشرة مجد اسقاط النظام فى مصر .. !

وسافر بينو الى لندن لتنسيق العمل مع لندن ، ووصل مبعوث ايزنهاور ليجد الموقف على حافة الحرب وشفا الانفجار .

وكتبت التايمس فى افتتاحية اعتبرت « بيان » اعلان الحرب قالت فيها :

« اذا سمح لعبد الناصر أن يفوز بهذه الغنيمة فان كل المصالح البريطانية ومصالح الغرب فى الشرق الاوسط سوف تنهار ، وقد عانى العالم المعاصر من تصرفات عدة مماثلة مثل زحف هتلر على الراين وقضاء ستالين على الحرية فى تشيكوسلوفاكيا ، وقد تمت كلها تحت اسم تأكيد للسيادة الداخلية ، ولكنها كانت عدوانا على التاريخ . وان استيلاء عبد الناصر على قناة السويس عمل مماثل ، ولكنه نقطة تحول ايضا ، وان السفسطة حول احتمال ان له الحق قانونا انما هى حمق قد يرضى المذعورين او يخفف عن ذوى القلوب الرقيقة ، ولكنه يهرب تماما من مواجهة القضايا الحقيقية ، وأول هذه القضايا واضح وبسيط ، وهو أن حرية الملاحة فى قناة السويس فى الحرب أو فى السلم مصلحة غربية رئيسية ، ولا ضمان لهذه الا اذا كانت القناة فى أيد أمينة ، واستيلاء ناصر على القناة بغير حق وخطاباته التى صحبت هذا الاستيلاء انما تبدد كل الصداقة والثقة .

والقضية الثانية هى قضية حقول البترول ومنشآته الكبرى فى الشرق الاوسط ، وهى قاعدة من القواعد الرئيسية للصناعة وللأمن البريطانى والأوروبى عامة ، وكل من يعتقد أن فوز ناصر بالغنيمة لن يشجع المتطرفين الآخرين على أعمال مماثلة ضد شركات البترول وضد القواعد الاستراتيجية الغربية لا بد أن يكون احمق أو اعمى البصيرة ..

وأما القضية الثالثة فهى أوسع وأعم ، وهى انه لا استقرار ولا أمان فى العالم طالما كانت الاتفاقات تمزق كقصاصات ورق هكذا بلا اكتراث ! » .

والتايمس جريدة محترمة وثورة طالما كانت المصالح الامبراطورية فى أمان .

وقد استفزت هذه الافتتاحية واسلوبها بريطانيا امينا هو « السير فريدريك ليث روس » فكتب ردا قال فيه : « ان الحديث عن السفسطة وما اليها قد يكون لائقاً برئيس تحرير ، ولكنه قطعا لا يمكن أن يكون موقفا لحكومة مسئولة ، وان تأميم القناة لم يغير شيئا من ادارتها أو من سير العمل فيها ، ولهذا فان الحديث عن ادارة مطلقة لها حديث لا حكمة ولا عقل فيه ، وأما الحديث الاهوج عن استعمال القوة فانه يتجاهل أهم الحقائق، وهى انه لا يمكن ادارة القناة وتامينها على اى ظروف بغير معاونة المصريين والعرب ، ونحن فيما يبدو ننسى دائما انه اذا ما استقل بلد ما فانه يستطيع أن يتصرف تصرفات مستقلة » .

وقد كان السير فريدريك ليث روس محافظا للبنك الأهلى فى مصر لمدة طويلة ، وكانت هذه اصواتا وحيدة ضائعة ..

وصرح متحدث فى وزارة الخارجية البريطانية : سوف تكون متوحشين مع ناصر ونحن نبحث عن انسب الطرق !

وفى اليوم التالى لوصول مورفى الى لندن تناول الغداء مع ايدن وسالسبرى وماكيلان « وكانوا على ثقة من أن الولايات

المتحدة سوف تنضم إلى الخطة البريطانية ــ الفرنسية للقضاء على مصر ، وكان ايدن يرى ان لا ضرورة لأية مساعدة مباشرة من الولايات المتحدة الا اذا تدخلت روسيا ، وحينئذ علينا ان نعنى بأمر الدب » .

« واكد ايدن أن القرار بغزو مصر قد اتخـذته الحكومة البريطانية ، وهو قرار نهائى ، لا رجعة فيه » .

وارسل مورفى لأيزنهاور : « لا حل هنا بغير القوة وتؤكد الحكومة البريطانية ان المهمة سهلة وسريعة وتقدر القوات اللازمة بفرقة او فرقتين على الأكثر ، وقد اعتمد مبلغ خمسة ملايين جنيه ، ويؤكد ايدن ان الشعب البريطانى كله وراءه ، وان هناك اجماعا من المحافظين والعمال على هذا » .

وكانت الحكومة والمعارضة حقيقة فى موقف واحد ، وقد وقف جيتسكيل زعيم العمال فى البرلمان واعلن : « اننا من جانبنا نأسف على هذا العمل التعسفى الذى لا مبرر له ولا شرعية فيه من جانب الحكومة المصرية ! » .

واعلن جيتسكيل :

« يباهى الكولونيل ناصر دائما بعزمه على اقامة امبراطورية عربية من الأطلسى الى الأطلنطى ، وهذا شىء معروف ، وهو نفس ما واجهناه من هتلر وموسولينى وما يجب الا يتكرر ! » .

ووقف هربرت موريسون قطب حزب العمال ، واشار للمحافظين مشجعا : « لا تترددوا ولا تخافوا » .

واطمأن ايدن ودهش اللورد ستانسجيت العمالى فى مجلس اللوردات من أن خطاب جيتسكيل كان أكثر « عدوانية ودعوة للحرب من خطاب ايدن فى نفس الجلسة » .

وتعجب اللورد ستانسجيت الذى كان يعرف مصر جيدا أن يكون زعيم المعارضة العمالية « اقل تعقلا وحكمة » من رئيس الوزراء المحافظ !

وقرر ايزنهاور ان يستدعى دالاس من أمريكا الجنوبية ليذهب فورا الى لندن .

وفى الطائرة تفتقت عقلية دالاس عن مشروع ذى خمسة مبادىء تسوى على اساسها المشكلة .. وهى :

١ ـ لا يسمح ابدا بأن تكون القناة تحت سيطرة دولة واحدة وبغير ارادة دولية .

٢ ـ لا بد ان يكون اتفاق ١٨٨٨ هو اساس المناقشة لتجنب المضاعفات بالنسبة لقناة بناما .

وكانت هذه اول مشكلة ازعجته بعد قرار التاميم .. لا بد من تأكيد ان السويس تختلف تماما عن بناما .. والسويس ممر دولى لا بد ان تديره كل دول العالم الملاحية والتجارية المشتركة .. اما قناة بناما ، فهى مجرد ارض استأجرتها حكومة الولايات المتحدة من بناما ، وقامت شركة امريكية خاصة بشق قناة فيها .. وهى لهذا مشروع تجارى امريكى لا تشابه بينه وبين قناة السويس ، بل لا وجه مطلقا للمقارنة بين القناتين !

٣ ـ القوة هى الطريق الأخير الذى نلجأ اليه ، ولا تستبعد الولايات المتحدة استعمال القوة اذا ما فشلت الوسائل الاخرى .

٤ ـ لا بد من تعبئة الراى العام العالمى فى صف الادارة الدولية للقناة .

٥ ـ لا بد انحاول الحصول على تأييد اغلبية الثلثين فى مؤتمر نعقده للدول المستغلة للقناة .

وفى أول اجتماع عقد فى لندن يوم وصوله وهو الأول من اغسطس سنة ١٩٥٦ أعلن دالاس لايدن وبينو رايه واضحا وكاملا :

« لا بد ان نجد طريقا لنجعل عبد الناصر يتقيأ ما يحاول التهامه ! ولا بد ان نقوم بجهد حقيقى لكى يؤيد الراى العام العالمى

اقامة ادارة دولية للقناة ، ولا بد ان نخلق رأيا عاما دوليا مضادا لناصر لكى يمكن عزله ، وحينئذ اذا ما تقرر القيام بعمليـــة عسكرية فان نجاحها يكون مضمونا ومضاعفاتها تكون اقل ممـا لو تمت على الفور ! » .

واكد دالاس لايدن « انطباعا كان حقيقيا ودقيقا بانه ـ اى دالاس ـ كان معاديا لعبد الناصر ومعاديا لمصر ، وكما قال ايدن : « تشجعنا بتصريحات دالاس وآرائه ، وكان متفقا معنـا فى ان الاستيلاء على هذا الممر الدولى الهام امر لا يمكن الســماح به لمصر ، وخاصة ان عبد الناصر لا بد ان يتقيأ ، أو لا بد أن يرغم على ان «يتقيأ» كما قال .. وكانت هذه كلمات صريحة ومباشرة وقد ظلت ترن فى أذنى لأشهر طويلة » .

واكد ايدن وبينو للمستر دالاس بنفس الكلمات الصريحة : « ان بريطانيا وفرنسا مصممتان على استرداد القنـاة بالقوة إلا اذا تراجع ناصر واستسلم تماما ، والقضية الحقيقية هى ناصر وليست القناة ، ان بريطانيا سوف تنتهى تماما اذا ما سـمح لناصر ان يفوز بالقناة ، وان مركز فرنسا فى شمالى افريقيا كله انما يعتمد على هذه القضـية .. واذا ما نجـــح ناصر فان الجزائريين سوف يتشجعون ، وسوف يحصلون على تأييد وعلى اسلحة اكثر من مصر ، وسوف يدمرون الوجود الفرنسى ! » .

وصدر عن الاجتماع الثلاثى بيان يدعو لمؤتمر فى لندن للدول المستغلة للقناة ويبحث الامور التالية :

١ ـ تكوين الهيئة الدولية التى سوف تتولى ادارة القناة .

٢ ـ وضع الضمانات لحرية الملاحة فى القناة على اساس اتفاقية ١٨٨٨ .

٣ ـ تنظيم التعويض لمساهمى الشركة .

٤ ـ تحديد الرسوم التى تفرض على استعمال القناة .

٥ ـ واخيرا فى مقابل الحلول محل الادارة المصرية يضمن لمصر نصيب عادل من التعويض .

كان البيان يؤيد كل ما اراده ايدن « الذى كان على ثقة من ان « عبد الناصر » سيرفضه ». ولهذا سيبرر اللجوء فورا الى الحرب » .

وعاد دالاس الى واشنجطون ليصرح بقوله : « ان الاعمال العسكرية ليست بعيدة الوقوع ، واذا ما بدأت فمن الصعب التكهن بما اذا كان يمكن حصرها او تتسع » .

ولم يقل دالاس لايدن او بينو رأيا حاسما حول الحرب : هل يؤيدها او يعارضها ، ولكن قال ايدن :

« لم اخف شيئا على دالاس ، وقلت له : ان الملحق البحرى الامريكى يطلب معلومات عن استعداداتنا العسكرية ، ونحن لا نمانع فى اعطائه كل المعلومات ، ولكن اريد ان اتيقن ان الولايات المتحدة تريد هذه المعلومات لشىء جدى » واجاب دالاس : ان الولايات المتحدة تتفهم تماما الهدف من استعداداتنا العسكرية ، وانها تعتقد انها ذات اثر فعال ، وان كان من الافضل الا تحصل الولايات المتحدة على معلومات مفصلة » .

كما ، قال ايدن بعدئذ : « كانت مشكلتى مع دالاس هى ان احدد دائما ماذا تعنى كلماته ، والمغزى الذى يريده سواء من اقواله او من تصرفاته .. وهو مبشر كبير فى السياسة الدولية ، ولكنه يبدو احيانا كانه لا يكترث كثيرا لنتائج كلماته » .

وبعد سفر دالاس بايام قليلة عقد فى وزارة الحرب البريطانية اكبر اجتماع عسكرى حضره مائتان من كبار الضباط لكل الاسلحة وبرياسة اللورد « مانتباتن » لاقرار الخطة النهائية للعمل ..

وتقرر فى الاجتماع أن تحطيم ناصر لا بد ان يبدأ بتحطيم القوة العسكرية التى يستند اليها ناصر ، وتحطيم هذه القوة لا بد ان يبدأ بتحطيم السلاح الجوى المصرى ، ثم القضاء على الجيش المصرى كله .

ووضعت خطة الغزو على ان تبدأ من الاسكندرية ، ثم يبدأ الزحف الى الدلتا بعد أن يكون السلاح الجوى البريطانى قد قضى على الطيران المصرى ! ..

وتحدد للغزو يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، وفى ذلك اليوم سوف يطلب من المرشدين الأجانب الانسحاب من العمل فى القناة ، وسوف يرتبك العمل وتتدهور الادارة لعجز المصريين ، وحينئذ يبدأ الهجوم بحجة الاستيلاء على القناة لادارتها وضمان استمرار الملاحة ..

وصرح متحدث عرف انه بريطانى بعد : بان اى تسوية للقناة مستحيلة طالما كان ناصر فى السلطة .

وذلك قبل انعقاد مؤتمر لندن باسبوع واحد ..

ولا ريب أنه قد وصلت هذه المعلومات عن الاستعدادات العسكرية الى واشنجطن ، ولهذا توالت الرسائل من أيزنهاور ودالاس للتريث وضبط النفس ، ولانه من الخطأ مقابلة العنف المصرى بالعنف ، الى أن تتضح نتائج المؤتمر القادم وتستنفد كل الوسائل للحلول السلمية .

ولكن تسربت المعلومات أيضا الى الشعب البريطانى ، وبدأ بسرعة تحول حاد خوفا من الحرب ومضاعفاتها ، واجتمعت الهيئة البرلمانية لحزب العمال البريطانى ، وقررت مطالبة الحكومة ببيان يؤكد أن الاستعدادات العسكرية الانجلوفرنسية ليست استعدادات لتدخل عسكرى مشترك ، وبدات صحف العمال تنتقد وتندد ، بالبطولة الوهمية الزائفة التى يفتعلها المحافظون

وصحافتهم لتبرير الحرب ، وبدا انشقاق فى الاجماع البريطانى الذى كان يعتمد عليه ايدن فى بريطانيا .

وبدا ايضا انشقاق فى الاجماع الغربى الذى فرح به ايدن وكان يعتمد عليه اكثر ..

وقد قال انصار دالاس : انه كان لا يقل رغبة عن ايدن وبينو فى الخلاص من ناصر ، ولكنه لم يكن يرى القناة سببا كافيا ، ولأنه ايضا كان يحمل تحفظات كثيرة على القضاء عليه بالتحالف مع دولتين استعماريتين هما بريطانيا وفرنسا ..

وقد رد ايدن بعدئذ ردا لاذعا : بان سيطرة الولايات المتحدة مثلا على ليبيريا او السعودية والارباح الخرافية التى يستنزفها راس المال الأمريكى من هذين البلدين استعمار يفوق اى استعمار مارسته بريطانيا فى تاريخها .

كان دالاس يريد القضاء على ناصر وعلى النظام فى مصر بل وعلى مصر ذاتهـا ان اسـتطاع ، ولكن ليس لحـسـاب ايدن او لحساب بينو ، والحرب التى يريدها ايدن تعنى عـودة النفوذ البريطانى الى الشرق الأوسط ، وتعنى خروج ايدن كبطل يرد هيبة بريطانيا ونفوذها .

وكانت الكراهية بين الاثنين تاريخية ، وبلا حدود كما قال مورفى فى مذكراته :

كان الرأى السائد فى واشنجطون أن ايدن رجل كريه ، وكان ايزنهاور يرى أنه يريد ان يستخدم الولايات المتحدة كمخلب قط لحماية المصالح البريطانية ، وكان رجال الخارجية الأمريكية يرونه ثقيل الظل وغير متعاون ، وكان دالاس يمقت على الأخص موقفه من اوربا ، وكان هوفر لا يطيقه ، وكان ثمة شبه اجمـــاع على انه ليس هناك من هو اكثر صلفا ولا غباء منه .. !

وكان ايدن يعرف تماما موقف دالاس منه :

وقد قال باكيا : كان اتشيسون وزير خارجية ترومان لا ينسى قط ما هو واجب لحليف مثلنا ، وكان يعمـل ويتصرف بروح الشريك المتساوى فى شركة السند للسند حتى لو كانت الولايات المتحدة هى التى تحمل العبء الاكبر ، ولكن دالاس كان يريد تبعية كاملة ..

وكما قال مورفى : كان ايدن لا يدرك الى اى مدى تدهورت قوة بريطانيا بالنسبة الى امريكا وروسيا ، وهى حقيقة لم يكن دالاس ينساها قط .

كان ايدن عقبة امام دالاس يريد ازاحتها تماما كما كان يريد ازاحة ناصر ، وهو يفضل ان يقضى كل منهما على الآخر ، ولكن ان تنتهى الحرب الى عودة الوجود البريطانى فهذا مستحيل ..

ولم يكن الأمر ليختلف مع فرنسا . فقد كان مسموحا لفرنسا ان تسلح اسرائيل ، وان تساهم فى احكام الحصار حول ناصر ، ولكن ان تعلن الحرب بنفسها وان تستعيد قناة السويس ، وان تعيد الوجود الفرنسى فى الشرق الاوسط ، وان تثبته فى شمالى افريقية فهو امر مختلف تماما لا يود دالاس ان يكون .

ولم تكن سيطرة بريطانيا وفرنسا على قناة السويس محل اعجاب الاحتكارات والمصالح الامريكية البترولية ، وخاصة فى المنطقة ، وكان سعى امريكا لتحتل مكانا اكبر فيها لا يكل ، وهى لم تكن لتاسف لنهاية هذه السيطرة ، ولان ترث امريكا هذه القناة كما ورثت بريطانيا نصيب الاسد من فرنسا ذات يوم .

وقد كان قائد الاسطول الامريكى بيرج ــ من اكثر المتحمسين لاسقاط النظام فى مصر ، وكان يرى ان سيطرة الاسطول الامريكى على قناة السويس ضرورية لسيطرته على البحر الابيض ، وضرورية لسيطرة الولايات المتحدة البحرية عامة .

وكان السر وراء مساعى السلام الامريكية ان دالاس قد وضع خطته الخاصة لاسقاط النظام فى مصر بلا مضاعفات دولية

خطيرة ، ومن طريق اسرائيل ، وبحرب محدودة بين دولتين من دول المنطقة ..

وقد تحدد موعد الهجوم الاسرائيلي على مصر في الاسبوع الاول من نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وكان هذا الموعد هو انسب الاوقات لانه كان الاسبوع الاخير لانتخابات الرياسة الامريكية التي كانت تجرى في ذلك العام ، وسوف يكون الرأى العام الامريكى مشغولا ، ولانه في نوفمبر ايضا سوف يكون الموقف في شرقى اوربا قد بلغ ذروته على حسب تقديرات واستعدادات المخابرات الامريكية ، وسوف تكون روسيا مستغرقة تماما في مشاكلها بحيث لا يكون لها فرصة للتدخل في الشرق الاوسط .

كان دالاس يريد حربا امريكية وغير مباشرة وليكون سقوط النظام في مصر لحساب الولايات المتحدة وحدها ، ولذلك سعى دالاس بكل ما يستطيع لتأجيل الحرب ولمواجهة موقف جديد لم يكن لديه حل جاهز له .

ولكن مرة اخرى اختلفت ترتيباته وحساباته مع ايدن كما حدث ذات يوم حول حلف بغداد الذى وضع دالاس خطته ومشروعه وانتزعه ايدن ، لكى يكون بطله ،وحقق التاميم هدفنا اوليا ، وهو خلق الارتباك والانشقاق في صفوف الاعداء .. !

مندورات قبل العدوان

انعقد مؤتمر لندن كما اقترح دالاس فى ١٤ من اغسطس١٩٥٦ لبحث ازمة القناة ولبحث المشروع الذى اعده وزير خارجية امريكا « الملهم » وحضرت المؤتمر ٢٢ دولة ، ولم تحضر مصر ، وكان فى نية مصر ان تحضر .. بل بحثت فكرة ذهاب الرئيس عبد الناصر بنفسه ليرأس وفد مصر ، ولكن تكفل ايدن أن يجعل حضور مصر او ناصر مستحيلا ، فقد ذهب الى التلفزيون البريطانى والقى حديثا هاجم فيه مصر وقيادتها هجوما مقذعا وبذيئا دفع مصر الى رفض حضور المؤتمر .

وقد انقسم المؤتمر منذ الجلسات الأولى انقساما طبيعيا ومتوقعا الى الفريق الغربى الذى يضم الاغلبية الساحقة من اعضاء المؤتمر وهم ثمانى عشرة دولة يقفون مع الاقتراح الأمريكى ، ويقضى بتشكيل ادارة دولية للقناة تشترك فيها مصر بشكل ما ، وكان الفريق الآخر وهو اقلية يضم اربع دول هى روسيا والهند واندونيسيا وسيلان وتقف مع اقتراح تقدمت به الهند التى كان يمثلها كريشنا منون .. ويقضى بأن تظل الادارة مصرية على ان تعاونها هيئة استشارية دولية .

ولما كان الاتفاق قد تم بعد جدل طويل على أن يكون التصويت بالاجماع لا باغلب الاصوات ، فلم يقدر لأى الاقتراحين أن يكون قرار المؤتمر ، وبهذا لم ينته الى شيء .. ولم يتقـــدم بالازمة خطوة ..

وكان ايدن سعيداً بفشل المؤتمر ، لانه يعنى ان لا حل سوى الحرب ، وكان دالاس راضـــيا ، فقد حقق المؤتمر هدفه من المناورة لكسب الوقت ولكسر اندفاع ايدن نحو الحرب .

ومع فشل المؤتمر اقترح دالاس لكسب مزيد من الوقت ايفاد بعثة تحمل اقتراح الاغلبية الى مصر وتحاول اقناعها به .. لم يكن لدى اى احد امل فى نجاح البعثـة ، لانه لم يكن لدى المصريين مبرر واحد فى قبول الاقتراح كما قال روبرت مورفى مساعد دالاس ، ولكن تقررت البعثة ، واختير لرياستها من بين كل الاعضاء روبرت منزيس رئيس وزراء اســـتراليا ورئيس وفدها للمؤتمر .

وكان اسوأ اختيار (وربما كان أفضل اختيار لبعثـــة كان مقصودا تماما ان تفشل) .

وكان منزيس منذ بدأت أزمة القناة يهاجم بأعنف الأوصاف واقذعها مصر والنظام فيها وقيادتها ، وقد فاق ايدن ، وحينمـا لفت البعض نظره لحدة تصريحاته تفاخر بأنه استعمارى عتيـق من سلالة اسكتلندية عريقة !

وجاء منزيس الى مصر ليقوم باستعراض العضلات وباسم ثمانى عشرة دولة من بينها كل دول الغرب العظمى .. فى اول جلسة له مع ناصر بدأ يتكلم بلهجة من يحمل انذارا لا من يعرض مقترحات ، وبكل هدوء اغلق عبد الناصر الملفات أمامه ، ونظر اليه وقال : ليس هناك ما اناقشه معك ، ولا نرى أى نقـاش معك ! وتدخل لوى هندرســـون الأمريكى على الفـــور ، ومن ساعتها تكلم منزيس بحكمة تماما .

وكان منزيس قد صرح قبل مغادرته الى لندن بأن « فرص فشل هذه البعثة ٩٩ ٪ » وبعد أن جاء الى القاهرة استكملت فرص الفشل الباقية .

ولم تكن البعثة اكثر من فصل من الحرب الباردة المستعرة بين دالاس وايدن .

وكان الوقت يمر سريعا ويقترب من الموعد الذى حدده ايدن لبدء الغزو وهو ١٥ من سبتمبر ١٩٥٦ .

ولهذا تقدم ايزنهاور باقتراح ان تنقل القضية الى هيئـــة الامم المتحدة .. والى مجلس الامن ، وهذه هى الهيئة التى عليها بحث المشاكل والتوصل الى حلول ومنع وقوع اى عدوان .

وايد الفكرة وتحمس لها مع ايزنهاور حزب العمال المعارض فى بريطانيا ، وايد الفكرة من بين المحـــافظين ومن بين رجال وزارة الخارجية البريطانية واحد فقط هو انتونى ناتنج الذى حاول ان يقنع بها سلوين لويد .

وصرح ايدن فى وجه ناتنج مرة اخـــرى : انا لا يهمنى اذا ما كان جيتسكيل يؤيدنى او لا ، والامم المتحدة هراء وضياع وقت ، ولا بد ان تضع فى راسك ولا تنسى ابدا انه لا بد من القضاء على هذا الرجل ناصر قبل ان يقضى علينا !

ولكن سلوين لويد اقتنع حتى لمجرد الشكل واستكمال كل الوجهات الشرعية بأن الامم المتحدة عناء لا بد ان تمر فيه ، ولم يكن ايدن ليستطيع على اية حال ان يخرج على اقتراح اكـده ايزنهاور واصر عليه ، ولهذا انتقلت القضية الى الامم المتحدة ..

ولكيلا تدور الامم المتحدة فى الفراغ ابتكر دالاس مشروعا جديدا من مشروعاته هو جمعية المنتفعين ، ويتضمن أن تتكون من كل الدول المنتفعة بالقناة جمعية تقوم بادارتها كاملة تماما ، كما كانت تفعل الشركة المؤممة ، وتؤدى الى مصر حصتها ، وكان مشروعا

غامضا مختلطا حتى انه حينما سئل كيف تدير الجمعية القناة ؟ قال : يمكن من على سطح سفينة تقف فى البحر الأبيض !

واعتبرت هزلا سياسيا ، ولشرح فكرته عقد دالاس مؤتمرا صحفيا اعلن فيه بصدد جمعية المنتفعين اننا لا ننوى بالطبع ان نشق طريقنا فى القناة بالقوة ، ولم يترك السير أنتونى ايدن انطباعا عندى بانه اتخذ قرارا بأن يشق طريقه بالقوة .

وكان سخرية بايدن ، وكان أيضا انذارا له .

ولهذا فاضت به الحال وانفجر ، وكان تصريح دالاس اعلانا مجانيا لعبد الناصر بانه يستطيع أن يرفض جمعية المنتفعين بلا عناء .. واضاف ايدن : هذه السياسة الأمريكية المخادعة العابثة ذات مائة الوجه وتجاه حلفاء رئيسيين انما تقضى على المشاركة الحقيقية ، وهى لا تترك أمام الحلفاء سوى اختيار واحد : اما الانفصال تماما عن الحلف أو الرضوخ لعلاقة السيد والتابع فى السياسة الخارجية .

ولم يكن دالاس جادا فى تقديم مشروع جمعية المنتفعين ، ولم يكن مقتنعا بامكان نجاح الاقتراح ، واذا كان لديه أى اقتناع بامكان نجاح هذه الفكرة فاننى لم أعرفه . كما قال اوبرت مورفى الرجل الثالث فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ولكنه كان يريد المزيد من الوقت ويريد أيضا وضع ايدن فى أصعب المواقف واحرجها . كان الهدف أن يرث قناة السويس خلال الأزمة ، ولهذا قرر ايدن التمرد نهائيا وان ينفصل ، ويخرج على الطاعة الأمريكية ، وان يقوم بالغزو ويواجه دالاس والعالم والعرب بانتصار حاسم وبضربة خاطفة وسيكون ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ تاريخا .

وكانت الخطة الموضوعة والتى استقر عليها ايدن ومولية فى ذلك اليوم ان ينسحب كل المرشدين الاجانب فجأة ومرة واحدة من العمل فى القناة ، ويعجز المصريون من ملء الفراغ ، ويضطرب

ويرتبك سير العمل .. وحينئذ تتقدم قوات الغزو البريطانية أولا ومعها القوات الفرنسية للاستيلاء على القناة حماية للتجارة العالمية وضمانا لاستمرار الملاحة فى هذا الممر الحيوى !

وانسحبت الغالبية العظمى للمرشدين الاجانب بالفعل ، ولكن كانت هناك مفاجاة تنتظر ايدن من المصريين الذين وجهوا له كل الضربات الحقيقية :

صمد المرشدون المصريون القلائل الذين كانوا يعملـــون فى القناة ، ووقفوا بوطنية بلغت ذروتها ، ووقف معهم القلـــة من المرشدين الاجانب اليونانيين الذين رفضوا تهديد الشركة واغراءها للانسحاب ، وانضم المرشدون الذين جاءوا من الدول الصديقة ، ولم تقف الملاحة ، ولم تسقط الادارة ولم تتعرقل التجارة الدولية لحظة ، ولم يجد ايدن اللدبعة التى بنى عليها كل خططه ..

وكان حدثا .. وفغر جورج بيكو مدير الشركة فى باريس فاهه ، ولم يملك الا ان يصيح : « اداء مدهش ! هذه ادارة قديرة باى المقاييس » كان الغرب متيقنا أن المصريين لن يستطيعوا أن يقوموا بالمهمة ، وقد حدد ايدن هـــذا اليوم ليبـــدأ الغـــزو أوتوماتيكيا .

ولكن هذا الغرب قد ظل لأكثر من قرن يتجاهل المصريين ويقلل دائما من شانهم ، ناسيا ان هؤلاء المصريين هم الذين كانوا يسيرون الملاحة بطول نهر النيل لأكثر من خمسة آلاف عام ، وهى مهمة تحتاج الى براعة اكثر مما يحتاج اليه ارشاد مركب تسير بالآلات عبر قناة ساكنة ليس بها أى موج .. !

ولم يكن هناك مناص من أن يؤجل الغزو الى يوم آخـــر ، ولتوجد ذريعه أخرى ، وتحدد الموعد الجـــديد ١٩ من سبتمبر سنة ٥٦ .

وفى يوم ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ تلقى ايدن صـــفعة اخرى ، فقد أصدر الاتحاد السوفيتى بيانا قال فيه : ان الاتحاد

السوفيتى لا يمكن ان يقف ساكنا ازاء اى اخلال بالسلام فى الشرق الاوسط »، لان اى اخلال لا بد أن يمس أمن ومصالح الدولة السوفيتية ..

وكانت لغة جديدة واعلانا بان الشرق الاوسط ليس منطقة نفوذ خالصة للغرب يفعل فيها ما يشاء ، وان السلام فيه اصبح من مسئوليات الاتحاد السوفيتى .. وقد كان بين غلطات ايدن القاضية انه لم يدرك مغزى البيان الادراك الصحيح .

وتوالت الاستعدادات للهجوم والغزو من كل الأطراف التى كانت تستعد : كل بطريقته ولهدفه الخاص ، ولكن بدات ايضا المتناقضات تطفو وتحتدم بينهم .

ولم تكن اسرائيل بالطبع بعيدة عن تطور الاحداث ، ولكنها اصبحت تدرك أنها لن تستطيع ان تنفرد بالغزو للخطة التى جاء بها بن جوريون الى الحكم ، والتى وضع تفاصيلها ديان ، والتى تحدد لها اخيرا الاسبوع الأول من نوفمبر ، والتى كان يقف وراءها بلا شك ويباركها دالاس .

ادركت اسرائيل انه لم يعد ممكنا ان تهجم وتسقط النظام القائم فى مصر ، وتخلع عبد الناصر ، ثم تدخل الدولة العظمى لكى تعقد الصلح وتقر السلام ، ولكى ترسم من جديد خريطة الشرق الأوسط كما تريد !

وقد تدخلت بريطانيا وهى تستعد الآن استعدادا محموما متصلا لكى تقوم بالغزو ولتكون قوته الرئيسية ، ولكى تستعيد القناة وتستعيد الشرق الأوسط كله .

وتدخلت فرنسا ، واصبحت طرفا مباشرا ، اصبحت طرفا يستعد للغزو ويشترك فيه ، لتعود فرنسا للقناة وللشرق الأوسط.

ولهذا رات اسرائيل ان افضل ضمان لخماية خطتها أو لكلا يتم الغزو بدونها ان تنضم لحلف الغزاة ، واذا لم تقم به وحدها فيجب أن يتم معها .

وعرض موليه على ايدن ان تشترك اسرائيل وان يأتلف الثلاثة في القيام بالغزو ، وتردد ايدن .

كان يعرف بالطبع ان بن جوريون انما ينفذ سياسة دالاس ، ونصح رجال وزارة الخارجية البريطانية ، ونصح الدبلوماسيون البريطانيون فى الدول الغربية الا تشترك بريطانيا فى غزو مشترك مع اسرائيل ، وكان رأيهم أن فرنسا واسرائيل اكبر دولتين مكروهتين لدى العرب ، وان اشتراك فرنسا مع بريطانيا عبء كاف وحده ؛ولكن اشتراك اسرائيل سوف يعقد الموقف تماما ، وسوف يضع الحكام والنظم العربية الموالية فى احرج المآزق ، وسوف يدفع شعبية عبد الناصر دفعة جديدة اكبر بين الجماهير العربية .

ولكن فرنسا كانت تلح على اشتراك اسرائيل ، لان فرنسا مهما كان الحلف الجديد والمؤقت مع بريطانيا لا تثق تماما فى ايدن وفى سياسته ، وقد تستأثر بريطانيا بكل الغنيمة والصراع البريطانى الفرنسى قديم وتقليدى فى الشرق الاوسط .

وقد وضع الجنرال شال الفرنسى خطة جديدة تقضى بان تهاجم اسرائيل مصر عبر سيناء ، وحينما تعبرها تتدخل بريطانيا وفرنسا وتدعو الدولتان الى ايقاف الحرب .. واذا لم تقف تحتلان القناة ، وذلك حتى لا تتوقف الملاحة .

وعرض موليه الخطة الجديدة على ايدن وناقشاها ، وفى النهاية وافق ايدن على اشتراك اسرائيل ، وذهب مبعوث بريطانى — برسالة من الحكومة البريطانية الى بن جوريون بخطة اخرى وجاء فى الرسالة .

يجب الا تهاجم اسرائيل الأردن بأية حال ، وحينما تذهب بريطانيا الى الحرب فى السويس فعلى اسرائيل ان تهاجم مصر فى نفس الوقت وهو ما يناسب كل الأطراف المشتركة ، وسوف تستنكر بريطانيا بأقسى لغة ممكنة هذا العدوان الاسرائيلى ، ولكن

لمجرد الشكل ، وفى مفاوضات الصلح بعدئذ سوف تساعد بريطانيا اسرائيل حتى تحصل على افضل الشروط الممكنة .

وادرك بن جوريون بالطبع ان ايدن يريد ان يستعمله مخلب قط .. وقرر ان يعامله بالمثل .

وطلب بن جوريون ان يعقد اجتماع ثلاثى سرى بين الاطراف الثلاثة يتفق فيه على كل الخطط والتفاصيل حتى يتحدد لكل طرف دوره ونصيبه .

وتم فى ضاحية بعيدة فى باريس (سيفر) الاجتماع الذى احيط بسرية تامة وكتمان شديد ، وظل الجميع بعدئذ ينكرونه ، واستمر ثلاثة ايام من ١٠/٢٢ الى ٢٤ منه سنة ١٩٥٦ بين بن جوريون وديان وسلوين لويد وجى موليه وكريستيان بينو .

وعرضت كل الخطط ، وعرض ديان خطته واستراتيجيته ضد مصر ، وهى مفاجأة المصريين وتحطيم سلاح الطيران المصرى اولا ، وعلى الارض وفى حرب قصيرة خاطفة لا تسمح ولا تترك وقتا للتدخل .

وعرضت خطة شال الفرنسية ، وعرضت خطة موسكتير البريطانية التى وضعها ستوكويل ..

وانتهى الاجتماع الى اتفاق على خطة اطلق عليها « موسكتير الجديدة » وتقضى بما يأتى :

١ مفاجأة وتحطيم سلاح الطيران المصرى على الارض ، وسوف يقوم بالمهمة سلاح الطيران البريطانى ، وبذلك يستطيع سلاح الطيران الاسرائيلى حماية مدن وسماء اسرائيل .

٢ هجوم جوى محكم يحطم المراكز الرئيسية للاقتصاد المصرى ووسائل النقل والمواصلات ، ويقضى على القوات المسلحة المصرية تماما مع حرب نفسية شاملة تحطم معنوية المصريين ..

٣ احتلال منطقة القناة بكل القوات البرية والبحرية والجوية اللازمة .

٤ الزحف نحو الدلتا وصوب القاهرة لاسقاط ناصر ، واقامة نظام جديد فى مصر .

واقرت من خطة الجنرال شال أن تبدأ اسرائيل بالهجوم .. ثم تتقدم الدولتان بانذار لكل من اسرائيل ومصر بوقف الحرب والانسحاب عشرة كيلومترات بعيدا عن ضفتى القناة .

واحكاما للخطة واستيفاء لكل التفاصيل طلب سلوين لويد ان يسمح لسلاح الطيران البريطانى أن يلقى بعض قنابل على القوات الاسرائيلية تمويها فى حالة رفض الانسحاب ، وتاكيدا لموضوعية وعدالة بريطانيا ، وتحدد للغزو ٢٩ من اكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وقد تمت اجتماعات « سيفر » فى الوقت الذى كان مجلس الأمن مستغرقا فى بحث المشكلة ، وقد توصل الى حل ، واستقر على ستة مبادىء ، وافقت عليها مصر واقرها مجلس الأمن ، وتقرر أن تناقش تفاصيلها فى جنيف فى ٢٩ من أكتوبر نفسه .

وكانت المبادىء الستة هى :

١ حرية الملاحة فى القناة بلا تحيز
٢ أحترام سيادة مصر
٣ حماية الملاحة من التقلبات السياسية
٤ تحديد الرسوم بالاتفاق مع الدول المنتفعة
٥ تخصيص نسبة من الرسوم لتحسين الملاحة فى القناة
٦ حل الخلافات عن طريق التحكيم .

وقد انكرت الولايات المتحدة ، بعدئذ انها كانت على علم بهذا التواطؤ ، وثار الجدل والنقاش طويلا : هل تمت اجتماعات (سيفر) وراء ظهر الولايات المتحدة الأمريكية وبدون علمها ؟

كانت فرنسا هى قاعدة المخابرات الامريكية فى اوربا ، وكانت تملك اقوى شبكة فيها وتمتد كالاخطبوط الى كل ركن فى فرنسا وفى اوروبا ولم يكن طبيعيا للمخابرات الامريكية التى كانت بلا شك تتابع كل احداث ازمة السويس وتطوراتها ان تجهل اجتماعا حضرته كل هذه الشخصيات واستمر ثلاثة ايام فى ضـــاحية من باريس .

ولم يكن بن جوريون او ديان بصلاتهما الامريكية ليقوما بخطوة مثل هذه لا تعرف عنها المخابرات الامريكية او البنتاجون (أى وزارة الدفاع الامريكية) او دالاس شخصيا .

وعلى اية حال ذهب وزير فرنسى فى حكومة جى موليه هو « جاك » شابان دالماس رئيس وزراء فرنسا الحالى الى السفير الامريكى فى باريس دوجلاس ديلون ، واخبره ان بريطانيا وفرنسا واسرائيل قد اعدت عملية غزو مشتركة ضد ناصر ، وانها على وشك الوقوع ، وروى له كل ما وصل الى علمه .

وكان كل ما قاله له السفير الامريكى هو : الا يمكن تاجيـل العملية حتى ما بعد الانتخابات الامريكية ؟ وارسل السفير تفاصيل المقابلة الى واشنجطن ، وقال : الان دالاس رئيس المخـابرات المركزية الامريكية فى ذلك الحين وشقيق جون فوستر دالاس الذى حرص على ان يكون له هذا المنصب ليعتمد عليه فى انقلاباته ومؤامراته الخفية .

قال : حصلت المخابرات المركزية على المعلـــومات من عدة مصـادر ، وتوافرت لها حقائق وتكهنات دقيقة عن التواطؤ الثلاثى ، وخاصة من تقارير جاءت من قبرص ، وقد كان امرا شائعـــا ومعروفا فى المخابرات الامريكية أن اعلان اسرائيل للتعبئة يوم ٢٧ من اكتوبر هو علامة الهجوم !

وقال كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا بعدئذ :

احسسنا فى تلك الايام أن الولايات المتحدة لا تريد أن تعرف ، وانها لا تطلب معلومات عما يحدث ، وكنا مطمئنين الى ان اجهزة المخابرات على اتصال وثيق بعضها ببعض وخاصة البريطانية والأمريكية ، وعلى اية الأحوال كانت هناك اتصالات معروفة بقيادة الأسطول السادس طلبنا اليهم فيها ان يبتعدوا بالأسطول عن تحركات اساطيلنا .

ولكن الدليل الآخر والأكثر قطعا هو طلب الولايات المتحدة من كل رعاياها الذين لا تحتم وجودهم فى المنطقة أن يغادروها على الفور وقبل الغزو بيومين فقط ... !

العـــدوان

صدر بلاغ عسكرى ، اسرائيلى مساء يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ يقول : تقدمت وحدات من جيش الدفاع الاسرائيلى ، وهاجمت قواعد الفدائيين فى الكونتيلا ورأس النقب ، واتخذت مواقع للغرب فى الطريق ، الى نخل والى مشارف قناة السويس ، وقد تمت هذه العملية ردا على الهجمـــات المصرية المتوالية على المدنيين الاسرائيليين ، وعلى الاراضى الاسرائيلية وبلا هدف سوى التدمير وحرمان شعب اسرائيل من أى امكان للتعايش السلمى ! .

وفى صباح اليوم التالى اذاعت وزارة الخارجية ، الاسرائيلية بيانا مطولا جاء فيه :

(اتخذت اسرائيل أمس اجراءات أمن للقضاء على قواعد الفدائيين فى شبه جزيرة ســيناء لأن الكولونيل (ناصر) وجـد بعـد نهاية مناقشات مجلس الأمن أن فى امكانه أن يدفـع الفدائيين ليجددوا غاراتهم داخل اسرائيل وخلال الأسبـوع الأخير فقـدت اسرائيل ٢٤ قتيـلا وجريحـا نتيجة الألغـام التى يزرعها هؤلاء الفدائيون فى النقب الجنوبى ، ان مصر تعمل لكى تحيط اسرائيل بحزام حصار حديدى هدفه الصريح الذى لايخفى هو القضاء تماما

على اسرائيل ، وهى تفاخر دائما بهذا ، وقد توجت جهودها اخيرا بعقد المحالفة السورية المصرية الاردنية لهذا السبب ، وقد حاولت اسرائيل وقامت بكل مافى وسعها لتحقيق السلام مع مصر ، ولكن اليد الممدودة بالسلام كانت ترفضها مصر دائما بشدة وقسوة) .

وفى نفس ذلك الصباح أدلى المتحدث الرسمى باسم الحكومة البريطانية فى لندن . بتصريح مختلف قال فيه :

ان القتال نشب بين مصر واسرائيل فى سيناء ، ولكن لن تحاول بريطانيا أن تستغل هذا القتال .

وفى المســـاء استدعى السفير المصرى الى وزارة الخارجيـة البريطانية ، ليتسلم انذارا بطلب انسحاب القوات المصرية مسافة عشرة كيلو مترات الى ضفة القناة والا تدخلت القوات البريطانية والفرنسية على الفور لاحتلال القناة ضمانا للملاحة ، وتنتهى مدة الانذار فجر اليوم التالى ٣١ من أكتوبر .

وقال ايدن ببراءة الأطفال فى يوم ٢٥ اكتوبر : جاءت اخبار الى لندن بأن اسرائيل على وشك التعبئة ، وفى يوم ٢٧ أعلنت التعبئة بالفعل وفى مساء يوم ٢٩ قامت اسرائيل بالهجوم ، واعتقد ومازلت اعتقد أنها على حق !

وفى يوم ٢٩ اكتوبر بحث مجلس الوزراء البريطانى مسئوليتنا المحددة وقرر أن على فرنسا وبريطانيا أن تطلبا الى كلا الطرفين ايقاف القتال وانسحاب قواتهما مســافة على ضفتى القناة ، واذا ما رفض أحد الطرفين أو كلاهما الانسحاب خلال المدة المحددة ، فان على القوات البريطانية والفرنسية أن تتدخل مباشرة كاجراء وقتى ، ولفصل المتحاربين ، ولكى يكون تدخلهما فعالا فسوف يتحتم احتلال مواقع استراتيجية رئيسية ، هى بور سعيد والسويس والاسماعيلية وذلك لضمان حرية الملاحة فى القناة ، ولتأمين المنطقة ، من أن تغدو ميدان قتال .. !

اما فى باريس فقد استدعى كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا السفير الأمريكى ديللون واعترف له بكل شىء ، وروى له قصة التواطؤ الثلاثى كاملة وما تم بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل وخطة الغزو المتفق عليها وخطوتها واهدافها وأبرق (ديللون) بكل شىء على الفور الى حكومته .

وفى واشنطن بدا الجميع كأنهم فوجئوا بل صدموا ، واذاع أيزنهاور من التليفزيون الى الشعب .

ان الولايات المتحدة لم تستشر ولم تحط علما من حلفائها بعزمهم على استخدام القوة ولهذا فان للولايات المتحدة كل الحق ان تستنكر هذا التصرف الخاطىء ، وان تسلك سبيلا آخر ، وان كانت تصمم فى نفس الوقت على أن تحافظ على صداقة حلفائها ، وان هدف الولايات المتحدة المباشر هو حصر النزاع ، وذلك كمقدمة لانهائه وسوف تستعمل الولايات المتحدة كل امكانات الامم المتحدة كاقوى أداة وامل للسلام !

وارسل ايزنهاور الى بن جوريون رسالة اخرى قال فيها :

مادامت اسرائيل قد حققت هدفها من الهجوم وهو تدمير قواعد الفدائيين ، فان عليها أن تنسحب ، واذا ما فعلت هذا فاننى سوف أعلن تقديرى العميق لها .

ولكن فى اليوم التالى خرجت «النيويورك تايمس» ذات الصلات الوثيقة بالحكومة الامريكية ووزارة الخارجية خاصة تقول بلا مواربة !

يصبح الأمر مهزلة ، اذا ما سمحنا للكولونيل ناصر أن يمثل أمام الأمم المتحدة وأمام العالم دور الضحية البريئة للعدوان ، وعلى العكس تماما اذا كان هناك رجل واحد مذنب ومسئول عن هذا العدوان فهو الرئيس المصرى ، وهو الذى أعلن الحرب على اسرائيل وعلى بريطانيا وفرنسا بدعاته وبغاراته ، وبتسلل عصابات القتلة الذين يرسلهم، وباثارة القلاقل والفتن فى شمالى أفريقيا الفرنسية،

وباستيلائه على قناة السويس بالقوة ، وبطرحه للاتفاقيات بنفس الطريقة التى سار بها هتلر الى الراين وبسد القناة امام الملاحة الاسرائيلية متحديا قرارات الامم المتحدة ، واخيرا بدعايته الصارخة ضد اسرائيل وبرنامجه لالقائها فى البحر هو والدول العربية التى تتبعه • ثم بخطته لاقامة امبراطورية عربية تحت هيمنته ، ولتمد نفوذها فى دوائر حددها الى كل افريقيا ثم الى العالم الاسلامى ».

وهى افتتاحية : كانت تصلح اعلان اشتراك فى الغزو من جانب الولايات المتحدة ، وقد تشجع بها ايدن ومولية كثيرا)

وفى مصر حيث كان يتقرر كل شىء هب الشعب لمقاومة العدوان وتصدت القوات المصرية لصد الغزو•

وفى الاشتباك الأول ومنذ انطلقت النيران تأكد لقادة الغزو الاسرائيلى انها ليست نزهة عسكرية ممتعة حتى قناة السويس وربما القاهرة ، ودار قتال وصفه ديان فيما بعد •

هذا قتال لم تألفه من قبل ، ولا تتوقعه حتى فرق وقوات متمرسة مثل قواتنا •

ووصفه التقرير الرسمى الاسرائيلى عن الحرب قال : قاتل المصريون بشجاعة ومن أجل كل شبر أرض •

وقال ديان عن معركة ممر متلا : « انها أكثر معركة دموية واجهتها اسرائيل »

وقد رفضت مصر الانذار البريطانى ، ولكن كان على القوات المصرية فى سيناء أن تسارع بالانسحاب •

كان « أبرع وأشجع عمل تستطيعه هو الانسحاب » *

وقد ادركت القيادة فى مصر بعد الانذار خطوط المؤامرة واهدافها وتيقنت أن هدف الهجوم الاسرائيلى كان استدراج القوات المسلحة المصرية الى سيناء ثم حصارها بعد نزول قوات الغزو الانجلو

فرنسى واحتلال القناة وابادتها هناك ، وكانت الخطة بهذا تحقق هدفين اساسيين .

١ القضاء على القوات المسلحة المصرية .

٢ احتلال مصر بعدئذ بغير مقاومة منظمة .

وكانت ليلة ٣١ اكتوبر هى أخطر ليلة فى تاريخنا » كما قال عبد الناصر ، واجتمعت القيادة المصرية واتخذت قرارين حاسمين :

١ سحب الجيش من سيناء لمواجهة الغزو الفرنسى البريطانى فى الدلتا

٢ تسليح الشعب والاستعداد لحرب شعبية طويلة المدى اذا ما اقتضى الأمر .

وقال جمال عبد الناصر بعدئذ :

ان اسرائيل لم تستطع ان تتقدم امام قواتنا الا عندما كانت الأوامر قد صدرت اليها بالانسحاب بعد تدخل بريطانيا وفرنسا ، وقد تمت عملية الانسحاب ، واقول ، وانا واثق ، انها تعتبر معجزة فى التحركات فى الظروف التى تمت فيها .

وقد كانت أشد المعارك فى حرب سيناء ـ معارك المواجهة ، هى معركة ابو عجيلة ، وقد وصفها معقب أمريكى - انها يمكن أن تكون اسطورة بالنسبة للمصريين .. !

وقد كانت هناك خطة جاهزة معدة بالفعل للمقاومة الداخلية ـ وقد أعدت لكل الاحتمالات ، وزعت الأسلحة والذخيرة واجهزة الاتصال وخزنت جميعها فى مناطق وأماكن متفرقة ، وقسمت البلاد الى مناطق ، وعين مسئول لكل منها ، بل خصص أحد المنازل فى القاهرة ليقود منه القائد حرب المقاومة السرية ، اذا ما احتلت العاصمة .

ووزع نصف مليون قطعة من السلاح على الرجال والنساء وكل من طالب بالدفاع عن وطنه .

وحينما انتهت مدة الانذار البريطاني الفرنسي كانت مصر تستطيع المواجهة ، وقد تأخر سلاح الطيران البريطاني بضع ساعات في بدء الغارات ، وهو قد فاجأ بعض المطارات والطائرات ، ولكن سلاح الطيران المصري كان قد استطاع أن ينجو بمعظم طائراته الى مطارات بعيدة آمنة ، وفشل فصل هام من خطة الغزو

وحينما بدأت الغارات دورها عززتها الاذاعة البريطانية العربية من قبرص ببيان للمصريين قالت فيه :

ان طائراتنا وقاذفاتنا في هذه اللحظة تسيطر على سمائكم ، وهذه هي الضربة الأولى التي تنزل بكم ، ولماذا تنزل بكم هذه المصائب ، لأن عبد الناصر رئيسكم فقد صوابه واستولى على قناة السويس التي تهم العالم كله ، وفقد الرشد ، ورفض كل محاولات التوصل الى حل على أساس السلام ، وبهذا عرضكم عبد الناصر لهجمات اسرائيل ، بل واصل عبد الناصر تهديده ضد اسرائيل ، وهو يعرف انه لا يستطيع المقاومة في سيناء والدفاع عنها ، وهو بهذا يتحمل النتائج ، وسوف تنزل الدبابات والمدافع من بوارجنا على أرض مصر ، وثبت لكم أن عبدالناصر لم يحافظ على وعوده لكم ، وجلب لكم الحرب ، وهو قد وعدكم بالحرية والعدالة ، ولكن فرض عليكم الاستبداد ! فيا أيها المصريون اقبلوا شروط الحلفاء التي ستأتي لكم بالسلام والرخاء والا فسوف تتحملون جميعا مسئولية أعمال عبد الناصر ، وسوف يتحملها الأبرياء والمذنبون منكم على السواء !

وكانت هذه هي الحرب النفسية التي تقررت في الخطة غير أن الغارات والحرب النفسية جمعت الناس حول ناصر تماما تماما ، كما جمعت الغارات الألمانية النازية البريطانيين حول تشرشل ، وكما جمعت الغارات الأمريكية الفيتناميين حول هوتشي منه !

ويبدو أن مارشلات الجو لم يستطيعوا أن يدركوا قط أن الغارات الجوية تحقق دائما عكس اهدافهـــا ، وفى مصر اذابت الغارات البريطانية والحرب النفسية كل ما بقى من معارضة ضد الثورة ، من اقطاعيين نزعت أراضيهم ورجال أعمال اممت ممتلكاتهم وضباط سرحوا من الجيش ، كلهم تحولوا من ساخطين الى وطنيين متحمسين ! وبلا أى خوف من شعب مسلح فى محنة عصيبةســار ناصر فى الشوارع فى سيارة مفتوحة والملايين حـــوله تهتف (حنحارب حنحارب) وقد وقف عبد الناصر يوم بدات الغارات وأعلن :

« لمصر دائما سنقاتل دفاعا من سيادتها ومن حريتها ومن كرامتها ، سنقاتل ايها المواطنـــون قوى الظلم التى تريد انتهاك حريتنا ، سنقاتل ايها الاخوة فى سبيل حرية مصر وفى سبيل حرية الشعب المصرى ، سنقاتل كما كنا دائما فى حرب شاملة ، جنودها الشعب الشعب المصرى .. جنبا الى جنب مع قواته المسلحة .

ان كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى ، لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح ، وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل فى معـركة مريرة ، سنقاتل فى كل معركة من قرية الى قرية ٠٠ ومن مكان الى مكان ، ليكن كل فرد منكم أيها المواطنون جنديا فى القوات المسلحـة حتى ندافع عن شرفنا ٠٠ وحتى ندافع عن كرامتنا ٠٠ وحتى ندافع عن حريتنا .. وليكن شعارنا اننا سنقاتل ولن نسـلم ، سنقاتل سنقاتل ــ ولن نسـلم .. اننا اليوم ايها الاخـوة نكتب صـفحة جديدة من تاريخنا .. اننا الآن نريد الصبر والايمان حتى ننتصر ».

وفى اليوم التالى وقف عبد الناصر فى الأزهر الذى شـهد كفاح مصر الحديث كله وألقى خطابا طويلا ، وشرح الموقف كاملا للجماهير ، وأعلن وأكد مرة ثانية :

« نحن اليوم نقرر مستقبل وطننا ، وسأقاتل معكم ضد اى غزو وسنقاتل الى آخر نقطة ، ولن نسلم ابدا ، وسنبنى بلدنا وتاريخنا مستقبلا ، وليكن هذا شعار كل مصرى » .

وحرج عبد النـــاصر وسط الملايين التى احاطت به تهتف (حنحارب) ولم يخرج على هذا الاجماع سوى فلول السياسيين القدامى الذين الفوا وفدا ليذهب الى عبد الناصر ويطلب اليه قبول الانذار والتسليم انقاذا لمصر ، واختلفوا فيما بينهم طويلا عمن يرأس الوفد حتى استقروا أخيرا على (سليمان حافظ) .

وعرفت المخابرات الأمر وارســلت من أخطرهم فى الوقت المناسب على لسان ناصر ، بأنهم لو جاءوا فسوف اضربهم جميعا بالرصاص فى ساحة مجلس قيادة الثورة ، ولم يحضر احد ! كما روى عبد الناصر .

ولم يرتفع صوت خيانة .

وكان عبد الناصر قد انتقل الى مجلس قيادة الثورة ليقـود المعركة من هناك ، وظل هناك بملابس الميدان حتى يوم ١٥ من نوفمبر ثم عاد الى منزله لأول مرة .

اتحد الشعب المصرى كله وانصهر فى معركة تقرير مصيره وبقيادة بطله التاريخى الذى لم يعد بطلا للمصريين ، فحسب ، ولكن أصبح بطلا قوميا لكل العرب ، وبطلا آســيويا ــ افريقيا لكل العالم الجديد الثالث الذى تتبع المعــركة كمعركته ، واصبح عبد الناصر بطلا من أبطال العصر .. وانقسم العالم كله حوله الى مؤيدين ومعتدين ! ..

وكان هذا بداية فشل الغزو كله ، لم يسقط عبد الناصر ، ولم تقم الثورة ضده فى مصر ، وكانت كل التقارير لدى ايدن تقول : ان السخط يعم مصر ، وان أول ضربة تأتى من الخارج سوف تشجع كل القوى المتأهبة وسوف يسقط النظام كله .

وكان موظفو السفارة البريطانية المحتجزون داخل السفارة قبل ترحيلهم يتسقطون من وراء الأسوار أنباء الثورة فى القاهرة

التى أكدت تقاريرهم الى ايدن أنها سوف تنشب على الفور ولكن على العكس تماما كانت صلابة الجبهة الداخلية صدمة لبريطانيا كما قالت مجلة تايم الأمريكية •

وتضامنت الجماهير العربية ، والجماهير المصرية ، وأوقفت سورية ضخ البترول الى موانى البحر الأبيض ، وتهددت المصالح البترولية الغربية كلها فى المنطقة واندفعت المظاهرات عنيفة متحمسة فى كل مكان من العالم العربى ، وحتى فى العراق محط آمال وأحلام ايدن ، ووجد نورى السعيد نفسه فى أحرج مواقف حياته وفى كل مكان فى آسيا وأفريقيا سرى الفزع والغضب من ان الاستعمار القديم يعود وبكل أساليبه القديمة ، واذا ما انتصر فى مصر ٠٠ فسوف يمد انتصاراته الى كل مكان !

وانقسم الكومنولث البريطانى انقساما هدد بانهياره ، وكان الكومنولث هو مابقى من العظمة البريطانية التى يتشبث بها ايدن ويبنى عليها كل مجده •

وخرجت على ايدن أكبر وأهم دولة فيه وهى الهند ، وأعلن نهرو أن هذا هو أقبح وأشرس عدوان يمكن أن يحدث وكل عواطفنا مع مصر ، ولم تقف كندا الدولة الكبيرة الثانية فى الكومنولث مع ايدن ، بل لم يؤيده سوى استراليا ونيوزلندة ، وأثاره هذا القلق حتى بين كثير من المحافظين •

ولكن خيبة الأمل الكبرى كانت فى بريطانيا نفسها ، فقد انقسم الشعب البريطانى انقساما كان الاول من نوعه فى تاريخه الحديث ، وسارت المظاهرات جارفة عنيفة ضد الغزو وتعددت الاجتماعات فى كل مكان ، وواجه ايدن منذ اليوم الأول جلسات عاصفة لم تسبق من قبل فى البرلمان البريطانى وتبودلت ألفاظ وصفات لم تتداولها القاعة من قبل ، واضطر رئيس المجلس فى الجلسة الثانية بعد العدوان أن يرفع الجلسة حتى تهدأ ثورة الأعضاء وحتى لايقع تشابك بالأيدى •

قال جيتسكيل ، ان ايدن يسوق بريطانيا الى الكارثة ولابد من تلافيها مهما يكن الثمن ، وقال أنورين بيفان : لم تعد بريطانيا أقوى وحوش الغاب ، وتصوروا لو هوجمنا نحن بنفس الطريقة !

وفي الضفة الأخرى من الأطلنطي وجد دالاس فرصته النادرة ليوجه الضربة الأخيرة والقاضية الى خصمه اللدود ايدن ، ولبس مسوح القديس ، وتنصل من أية صلة بالغزو أو علم به ، وأعلن في هيئة الأمم المتحدة . أن التجاء ثلاث من اعضاء هذه المنظمة الى العنف والهجوم المسلح ضد عضو رابع ، لايمكن الا ان يعد خطأ كبيرا ، وواحدا من الأخطاء التى اذا ما أصر عليها مرتكبوها فانها يمكن أن تؤدى الى انهيار ميثاق الامم المتحدة وكل المنظمة ، وانني لأخشى اذا لم نتصرف فورا وباجماع كاف لتجعل توصياتنا ملزمة أخشى ان يتطور ما بدأ وما سمى عملا بوليسيا الى شيء آخر اكبر !

ولكن الفشل الحقيقى كان فى ميدان المعركة ، فقد تعثر الغزو نفسه وتلكأ ، وقاومت القوات المصرية المسلحة مقاومة باسلة ، فلم تكتسح القوات الاسرائيلية سيناء كالاعصار ، ولم يقض سلاح الطيران البريطانى على الطيران المصرى بضربة واحدة على الأرض ثم اختلف موعد ارسال قوات الغزو فلم يبدأ الا فى ٥ نوفمبر ، واختلف القائد بوفر مع القائد البريطانى ستوكويل ، واختلف الاثنان مع القائد العام ، كيتلى ، وتغيرت الخطط الموضوعة للنزول والاحتلال والتقدم عدة مرات ، واخيرا هبطت القوات الى بور سعيد يوم ٥ نوفمبر ، وفوجئت بعنف المقاومة وشدتها.

كانت المقاومة عنيدة تماما ، وكانت المدافع تعمل بأكبر قسط من البراعة ، وقد سببت لنا متاعب كثيرة ، كان القتال صعبا ، كما قال تقرير الجنرال كيتلى ، وتطورت المقاومة بعدئذ الى مقاومة شعبية عامة فى كل بور سعيد ، لم تتوقعها ولم تستعد لها قوات الاحتلال ولم تفد وحشية القوات الفرنسية ولا معرفة الضباط والقوات البريطانية لبور سعيد ومعظمها كانت فى القناة منذ شهور

قبل يونيو عام ١٩٥٦ ، كما قال التقرير أيضا ، ولم تستطع القوات على أية حال احتلال الاسماعيلية وفق الخطة ثم الزحف حتى القاهرة !

ومنذ يوم ٢ نوفمبر كان ايدن فى لندن مرهقا ومشتتا ، يبحث عن مخرج من العملية كلها ، وبدأ يتحقق انه لا يستطيع ان يواجه كل المعارضة الداخلية والخارجية ، وشكا همومه الى حليفه جى موليه ، وسارع الى لندن بلينو وبورجيس مونورى وزير الدفاع الفرنسى ليشددا من عزيمته وليقنعاه بمواصلة الغزو وبأن فرص نجاحه مازالت قائمة وكبيرة .

وكان فشل الغزو يعنى سقوطهم جميعا ، ولم يمنع تطور الأحداث وتفاقمها فى شرقى أوروبا الاتحاد السوفيتى من متابعة الأحداث فى الشرق الأوسط ، ولم يستطع ايدن ان يقوم بعمل سريع حاسم يضع الاتحاد السوفيتى ـ كما كان يقول ـ امام الأمر الواقع ويجعل قدرته على التدخل بأية مساعدة مستحيلة .

وفى يوم ٤ نوفمبر استطاعت القوات السوفيتية أن تقضى على الثورة المضادة فى بودابست ، وان تسيطر على الموقف تماما .

وبعد منتصف الليل فى يوم ٥ من نوفمبر استدعى السفير البريطانى فى موسكو الى وزارة الخارجية السوفيتية ليتسلم انذارا عاجلا يقول :

ان قناة السويس كانت مجرد ذريعة لحرب عدوانية مدبرة ضد الشعوب العربية ، وتهدف الى القضاء على استقلال هذه البلاد ، ولتتصور بريطانيا نفسها فى أى موقف لو هاجمتها دول أخرى أقوى تملك كل الأسلحة الحديثة والقادرة على التدمير ، ويمكن ان تستعمل وسائل أخرى بدلا من أن ترسل قواتها البحرية أو الجوية بأن تستعمل مثلا الصواريخ ! لا شك اذا ما استعملت الصواريخ ضد بريطانيا أو فرنسا فانك سوف تسمى هذا عملا بربريا ، ولكن أى فرق ؟ وأعلن الانذار :

ان الحكومة السوفيتية مصممة تماما على ان تستخدم القوة لتقضى على هذا العدوان وتعيد السلام فى الشرق !

واستدعى الى الوزارة فى نفس الوقت السفيران الفرنسى والاسرائيلى ، وتسلم كل منهما نسخة من الانذار ٠

وهزأ الانذار الى فرنسا باشتراكية موليه وقدرتها على التوفيق بينها وبين الحروب الاستعمارية وقال : ان اشتراكية هذه ٠٠ ؟

وكان الانذار الى اسرائيل اقسى الثلاثة ٠٠ قال :

أوضحت تصرفات اسرائيل قيمة كل التاكيدات الزائفة عن حب اسرائيل للسلام ورغبتها فى التعايش السلمى مع جيرانها العرب ، واسرائيل وهى تعمل لحساب الغير ووفق التعليمات التى تصدر اليها من سادتها وتلعب لعبا اجراميا وغير مسئول بمصير السلام وبمصير شعبها ٠

وكتب ديان فى مذكراته بعدئذ ، غضب بن جوريون كثيرا لاختلاف لهجة الخطاب السوفييتى اليه ولمدى الاحتقار والازدراء والسخرية القاسية الذى احتواه ٠

وأثار الانذار السوفيتى فزعا فى الغرب كله ٠

وفى الساعة الواحدة والنصف اى بعد ساعتين من تسلم الانذار بتوقيت باريس أيقظ موليه السفير الأمريكى ديللون واستدعاه ٠

وكما قال ديللون : كان شديد القلق وطلب تاكيدات أمريكية على أعلى‌مستوى اذا ما هاجمت‌روسيا القوات الفرنسية‌والبريطانية فى الشرق الاوسط وقال : انه يحتاج الى هذه التاكيدات ليواجه بها رغبة ايدن الملحة فى ايقاف اطلاق النار ٠

وكان ايدن قد اتصل به تليفونيا مباشرة بعد تلقيه الرسالة السوفيتية ، واتصل ايدن مرة ثانية بالتليفون خلال وجودى مع موليه وخلال الحديث وضع موليه سماعة التليفون ، واخبرنى أن البريطانيين بالتاكيد سوف يوقفون اطلاق النار ، وأنه أى موليه

يجد نفسه مضطرا الى مجاراتهم ، وان كان لايريد هذا ، وأشار الى خريطة وقال ، ان القوات المتقدمة وصلت الاسماعيلية وقد تصل الى السويس فى ١٢ ساعة . واختلفت رواية ايدن وقال اعتبرت مذكرة بولجانين وتهديداتهم ينبغى الا تؤخذ مأخذ الجد ، وقد ارسلت له ردا بالمثل ، وقلت له : اننا قد حققنا الهدف من الغزو وهو فصل المتحاربين ، ونحن نرحب بقوات الأمم المتحدة لتأخذ عنا المسئولية .

وقد كان العامل الرئيسى لدى ولدى كل زملائى أعضاء مجلس الوزراء هو اننا تدخلنا لكى نفصل المتحاربين بعضهما عن بعض ، ولنحصر النزاع فى الشرق الأوسط ، أما وقد تحقق هذا وانتهت الحرب وانحصر النزاع فلم يعد هناك مبرر لاستمرار الحرب ، وقد قبل حلفاؤنا هذا القرار باخلاص وفهم وان كانوا قد أرادوا الاستمرار فى الحرب قليلا .

وصدر الأمر الى القوات فى بور سعيد بايقاف القتال ، وروى قائد الغزو ستوكويل .

وكان يوما مرهقا حافلا بالمغامرة والدراما ، ولكن الصدمة الحقيقية كانت فى انتظارى ، كان كل ما اريده فى تلك اللحظة كاسا من الويسكى بالصودا ، ولكن دخل على رئيس الاركان يحمل اشارة عاجلة وحينما قرأت وظللت اقرأ .. أوقف اطلاقَ النار عند منتصف الليل ، وحينما جلت القوات البريطانية عن مصر فى يونيه عام ١٩٥٦ كان ستوكويل بين ضباطها ، وفى ذلك اليوم التفت أحد الضباط الى زميله وقال سنخرج ـ بلا مجد ولا اعترافَ بالجميلَ !

وقال الآخر :

وهل تنتظر اعترافا بالجميل من هؤلاء المصريين ؟

كان عجبا ألا يتشبث المصريون ببقائهم أو أن يقدموا وداعا حارا بالورود على الاقل ، وبعد أشهر قليلة عاد ستوكويل على رأس

حملة ضخمة ليعيد المجد ، وليعلم المصريين العرفان ، ولكنه يخـرج بعد أيام فقط بالرغم عنه مهزوما جبانا !

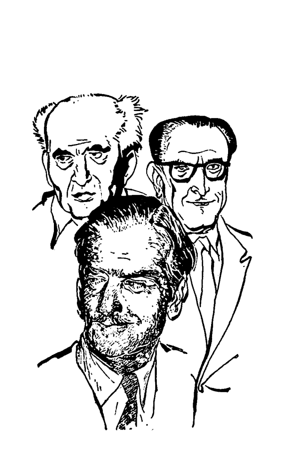
منذ ٧٤ عاما دخلت بريطانيا من نفس الأرض وبقيت كل هذه السنين ، وهي تخرج الآن بهزيمة مدحورة !

في تلك اللحظة كانت الامبراطورية البريطانية قد انتهت قبل أن ينعم الجـنرال بكاسه ، كان ايدن آخر القراصنة الكبـار : فرنسيس دريك ، والتر لاي ، ونلسون ، وتشرشل .. وأخيرا ايدن .. وقد خلع هؤلاء القراصنة بعد الغنيمة الأغطية الحمراء ، رداء القراصنة وارتدوا القبعات العالية ـ واصبحوا جنتلمـانات ، ولوردات ، وحملة القاب ، ولكن ظل القرصان ـ حيا في كل منهم وطريقته للحياة والبقاء ، يكفي أن يتطلعوا الى أرض تلزمـهم أو تعجبهم ليذهب الأسطول وليخضعها ، ودانت الأراضي والبحار وحتى الأمواج !

فاذا نزلت قوات بريطانيا فلابد أن تحكم ، والبريطانيون قد ولدوا ليحكموا ، وقدر العالم وصلاحه في أن يحكموا ، أن يحكموا حتى أمواج البحار ، وفق نشيد بريطاني مشهور وفي تلك السـاعة انتهت الأسطورة ، وغاص التاريخ الطويل في مياه ضيقة في خليج السويس وزادها مرارة انها في مصر على يد فلاح .

لقد فشل الغزو وكانت أسباب الفشل ووفق الأهمية هي :

- المقاومة المصرية ، سواء للمقاومة العسكرية أو الشعبية وفي ظل قيادة بطولية وتاريخية
- الانذار السوفيتي ، والموقف الحاسم للاتحاد السوفييتي من الغـزو
- التناقض في صفوف الحلف الغربي ، ووقوف الولايات المتحدة لاسباب استراتيجية ضد الغزو .
- معارضة الرأي العام البريطاني ، استنكار الرأي العام العالمي .
- هيئة الأمم المتحدة ، وموقف مجلس الأمن والجمعية العامة .



الفشل الكبير

بدا الاسبوع الاخير من اكتوبر سنة ١٩٥٦ ملائما تماما .. كانسب الأوقات وافضلها للمستر دالاس والاستراتيجية الكوبية ـ الأمريكية .

كان يحلم بأن تكون نهاية ذلك العام ذروة مجده السياسى ، وهو سوف يوجه ضربة قاضية الى « الشيوعية » تبدأ منها نهايتها تماما وسوف يوجه ضربة أخرى فى نفس الوقت للعدو الآخر . الحياد . تزعزع وتقوض أركانه ، وهو لا يزال فى بدايته ، وسوف يصبح العالم كله آمنا أمام السيادة الأمريكية .

وبدت بشائر النجاح ودلائله متلاحقة ، وفى شرقى أوربا بلغت الاحداث فى المجر ذروتها ، وسقط النظام القائم ، وقامت حكومة جديدة ، وطالبت بانسحاب القوات السوفيتية من المجر ، وكانت فيها بمقتضى اتفاقيات حلف وارسو وانسحبت القوات بالفعل ، وهلل الان دالاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية .. وقال : اننا نشهد معجزة أن الثورة الشعبية يمكن أن تقوم وتنجح بالرغم من كل القوات وكل الأسلحة الكبيرة والحديثة !

واضاف : اننا على حافة نصر عظيم عملنا له وانتظرناه طويلا .

وفى الشرق الاوسط استطاع دالاس أن يؤجل الهجوم حتى نهاية اكتوبر ، ولم يفم به ايدن ولم ينفرد به ليقطف فيما بعد كل ثماره ، وربما لم يتم الغزو كما أراد دالاس منذ البداية ، اى باسرائيل وحدها ، ولكن اسرائيل كانت هناك ، وكانت طليعة الغزو ، وطالما كانت موجودة فان الوجود الأمريكى مكفول تماما ، ولكن لم يستمر التفاؤل طويلا ذلك انه قد خرجت كل قوى الثورة المضادة المحلية فى المجر بعد انسحاب القوات السوفيتية ، وتدفقت من الحدود كل القوى التى أعدتها وجهزتها المخابرات الامريكية ، ونشبت حرب أهلية صغيرة اتسع مداها حتى أصبحت مذبحة عامة ٠ بشعة ٠٠ وأعلنت القوى المضادة نيتـها فى تصفية النظـام الاشتراكى وكل آثاره واعادت النظام القديم الملاك والراسمالية والكنيسة والعـودة الى أوربا اى الغرب .

وذهب الكاردنيال مندزنتى رئيس الأساقفة والذى أصبح الزعيم الدولى للحركة الى الاذاعة وطالب بالغاء الاصلاح الزراعى كاجـراء أساسى ٠٠

وتهددت الحركة التى بدأت شرعية لتصحيح التطبيق الاشتراكى بقيادة اشتراكيين وحزبيين بأن تصبح نكسة تعيد الاستغـلال والاستبداد القديم !

وساد التردد ثم العجز فى الحكومة المجرية القائمة ، ولكن ازاء تلاحق الأحداث وتفاقمها ــ انشق منها جناح يتزعمه أحد أقطاب الاصلاح « كادار » ــ وكونوا على عجل حكومة ثورية طالبت القوات الـسوفيتية بالعودة سريعا وبالتدخل لانقاذ المجـر الاشتراكية ؟ ولانقاذ أوربا الاشتراكية عامة .

وعادت القوات السوفيتية وفى ساعات قليلة وعصيبة أيضـا كانت قد قضت على المؤامرة تماما ٠٠ وكان الثمن غاليا بالطبـع ، وبالنسبة لكل الأطراف ، وكانت المهمة حرجة وثقيلة ، ولكن لم تترك السياسة الأمريكية ولا وحشية القوى المعادية بديلا لهذا الطريق

وكانت أجهزة الدعاية الأمريكية فى أوربا قد الهبت حماس القوى القديمة فى المجر وفى كل أوربا ، وهللت وبشرت بالتحرير وسيبيدا من المجر ، ولا يقف حتى تتحرر أوربا كلها ٠

كانت الاشتراكية بالنسبة لدالاس حدثا عارضا وشاذا ، كانت نزوة وانحرافا من التاريخ ، ولابد أن يصححه ، ولابد أن يزول على يديه ٠

ولكن فى اللحظة الحاسمة اكتشف بخيبة أمل وغضبة مريرة أن الطريقة الوحيدة لمساعدة المجر ، انما هى حرب نووية شاملة ، وليس هناك رجل فى وعيه يريد أن يبدأ حربا نووية من أجل المجر ولن يفيد فى شيء أن ترسل قوات امريكية هناك ، لان القوات السوفيتية المتفوقة سوف تبيدها وسوف تسحقها ٠٠ ان الجغرافيا ضدنا ولامناص أن تنزل كل المصائب على المجريين ٠٠ ٠

كان اعلاناواعترافا ذاتيا بسقوطه ونهايةحلم حقبة منالسياسة الأمريكية عرفت باسمه (الدالاسية) ، وقد قضت القوات السوفيتية على الخطة فى شرقى أوربا فى ٤ نوفمبر قضاء مبرما وفى مساء اليوم التالى تقدم الاتحاد السوفييتي بانذار الى دول الغزو الثلاث حول الشرق الأوسط ٠

وقد أثارت لهجة الانذار وطريقة تقديمه الرعب والفزع فى أوربا كلها ، وأثارت أشد القلق فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كان حدثا لايمكن تجاهله ، ولابد من حساب كل احتمالاته الخطرة ٠

ولقد اختلف سير الأمور بعض الشيء فى الشرق الأوسط ٠٠ ولكن انتهى الى نفس النتيجة ٠٠ وقد عارض دالاس الغزو منذ البداية ولكن لم تكن معارضة لأنه غزو أو عدوان ، فقد عمل دالاس منذ ١٩٥٤ بحماس لم يفتر لاسقاط النظام فى مصر ، وكان دالاس وراء عودة بن جوريون الى الحكم فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، فقد عاد بخطة كاملة لاسقاط النظام فى مصر !

وفى مايو سنة ١٩٥٦ قبل دالاس أن يشترك هو وعدوه اللدود

ايدن فى خطة مشتركة لتنظيم انقلاب فى مصر على نمط الانقلاب فى ايران لم يتم تنفيذها

وفى يوليو سنة ١٩٥٦ رفض دالاس المساهمة فى السد العالى لأنه كان يتصور انه يعد نعش النظام فى مصر « كما قال يوجين بلاك » .

وحينما اشتدت ازمة السويس وذهب دالاس الى لندن كان أول تصريح له هو ان نبحث عن طريق يجعل عبد الناصر يتقيأ ما التهمه ! وكان اللفظ النابى تعبيرا عن مدى حقده وكرهه .. !

وكانت الاقتراحات التى قدمها دالاس هى الادارة الدولية لقناة السويس فى مؤتمر لندن ، وكانت محور مناقشات المؤتمر ، ثم اقترح جمعية المنتفعين التى تقدم بها فى الأمم المتحدة ، وكلا الاقتراحين كان يعنى تجريد مصر من حقها الذى استردته بالتأميم ، وكان دالاس يعلم كل استعدادات دول الغزو ولم يعارضها ، ولهذا لم يكن طبيعيا ولا منطقيا ان ينقلب بين يوم وليلة وبعد الغزو الى مدافع عن النظام فى مصر ومعارض لأى عدوان عليه وأن تتحول السياسة الأمريكية الى سياسة معادية للاستعمار ومؤيدة لحقوق الشعوب ولهيئة الامم المتحدة ، بل وان تدعى بعدئذ ويصدقها البعض انها اوقفت العدوان وانقذت مصر وحدها ..

ولقد كان هدف دالاس منذ ذهب الى لندن أن يثنى ايدن عن تصميمه على الهجوم السريع المباشر الذى تحدد له يوم ١٥ سبتمبر

وكان يريد ألا ينفرد ايدن بالغزو واسقاط النظام فى مصر ، وكان يريد أيضا الا يسبق الغزو البريطانى الفرنسى الغزو الاكبر الاسرائيلى الذى أعدت خطط منذ ديسمبر سنة ١٩٥٥

كان كل هم دالاس ان يؤجل خطط ايدن حتى الأسبوع الأول من نوفمبر ، وأن تسبق اسرائيل ، وأن تسقط النظام فى مصر ،

وأن تتدخل الولايات المتحدة لتعيد رسم خريطة للشرق الأوسط كما تريد ، ولكن بدا واضحا منذ سبتمبر سنة ١٩٥٦ انه ليس من الممكن ان تنفرد اسرائيل بغزو او ان تفاجىء به البريطانيين والفرنسيين ، ولهذا انضمت اسرائيل لتكون موجودة ، وتكرر فى الغزو ما حدث خلال حلف بغداد من ان يعد دالاس خطة ، ثم يختطفها ايدن ليصبح بطلها ٠٠ !

كان افضل طريق ان ينفض يديه ، وأن ينتظر النتائج ، وأن يحصل منها على كل ما يستطيع ٠

وقد أكد موقفه ان الغزو تعثر منذ البداية حتى النهاية ، فلم تكتسح الجيوش الاسرائيلية سيناء فى ساعات لتصل الى قناة السويس ، ولم يدمر سلاح الطيران البريطانى السلاح الجوى المصرى على الارض ويقضى عليه عن آخره ، ولم تتم ترتيبات الانزال فى بور سعيد فى المواعيد وبالدقة المطلوبة ، ليتم احتلال القناة بأكملها ، ويبدأ الزحف الى القاهرة ، ولكن تعقدت كل المواقف ، وكان احكم المواقف أن يعارض ما حدث ، وأن يقف ضده وأن يعلن براءته منه ، وأن ينتظر ليرى وليتدخل فى الوقت المناسب لتقسيم الغنائم ٠٠ !

وقد كان فى استطاعة دالاس وفى امكان الولايات المتحدة الأمريكية لو كانت تعارض الغزو حقيقة أن تمنع وقوعه منذ البداية

وقد كتب دبان فى مذكراته عن حملة سنة ١٩٥٦ ٠

وربما لو كانت المذكرة السوفيتية قد وصلت قبل يوم ٢٩ من اكتوبر الى اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ما تمت حملة سيناء ٠

واذا كان انذار سوفيتى قبل يوم ٢٩ من اكتوبر ربما كان يستطيع ان يوقف الغزو ـ فان انذارا أمريكيا كان ، لاشك ، يستطيع أن يمنع وقوعه ٠

وقد كان لدى الولايات المتحدة الوقت ، وكان لديها المعلومات ، فقد أكد الان دالاس رئيس المخابرات المركزية انه كان امرا شائعا ومعروفا لديهم يوم ٢٧ اكتوبر ان اسرائيل على وشك الهجوم ، ولم تقدم الولايات المتحدة انذارا حاسما ، ولكن أمرت رعاياها بالرحيل عن الشرق الأوسط ، وأذا كان قد تعذر على الولايات المتحدة أن توقف الهجوم الاسرائيلي أو الغارات البريطانية فقد كان في استطاعتها على لاأقل أن توقف غزو بورسعيد الذي حدث يوم ٥ نوفمبر وخاصة بعد أحاديث ايزنهاور في التليفزيون وخطب دالاس في الأمم المتحدة ضد العدوان : قال الجنرال كيتلي البريطاني والقائد العام للغزو .

كان أشد ما يقلقها منذ ٣١ اكتوبر هو نشـــاط الأسطول السادس الأمريكي ، وقد كان يمكن أن تواجهنا كل المصـــاعب والمتاعب بسببه ، ولكن حسن تصرف قادة الأسطول قد مكننا من القيام بمهمتنا كاملة وعلى أحسن وجه وبلا أى مشاكل أو متاعب - وصرح قائد الأسطول السادس براون بفخر :

ان الأسطول السادس لم يقم باية مناورة أو أى تحركات يمكن أن تسبب حرجـا لأية من الوحدات البحـرية البريطانيـة أو الفرنسية ..

وكان يكفى أن يتحرك الأسطول السادس فى سبتمبر لكيـلا يتم اى استعداد للغزو ، وكان يكفى أن يعترض فى نوفمبر حتى لاتهاجم بور سعيد ويتعطل العـدوان ، ولكن كل ماقام به كان تسهيل اجلاء الرعايا الأمريكيين ! ».

لم يكن دالاس ضد الغزو ولا ضد النتائج التى يمكن أن يسفر عنها الغزو ، ولكنه كان فقط ضد الطريقة التى تم بها ، وحتى هذا كان على استعداد للتجاوز عنه لو تحققت النتائج التى يريدها ».

كانت الخطة المثلى أن يهجم بن جوريون ويسقط النظام ، ويتدخل دالاس ويحسم مشكلة الشرق الأوسط وحده ، ولكن أخطأت حساباته وتحركاته ، وأصبح الآن عليه أن يتنصل من الغزو ـ وان يجنى بعدئذ كل ما يمكن من نتائج وغنائم ! ..

عارض دالاس الغزو فى مصر ، لأسباب عملية ، كان دائما يقول : (ليس للولايات المتحدة أصدقاء وانما لها مصالح) ، وكانت مصالح الولايات المتحدة حاسمة .

وحينما بدأت أحداث المجر ومصر معا طالب الآن دالاس رئيس المخابرات الأمريكية بمعارضة الغزو فى الشرق الأوسط ، وقال انها لمأساة أننا فى اللحظة التى نقف فيها على حافة نصر عظيم فى شرقى أوربا ضد الاستعمار السوفيتى يصبح علينا أن نختار بين أن نسير فى ركاب الاستعمار البريطانى والفرنسى فى آسيا وافريقيا أو أن ننفصل عن حلفائنا ، ولكن هذا اختيار حاسم ويجب ان يفصل فيه اليوم .

ومن الصعب تصور آلان دالاس معاديا للاستعمار ونصيرا للثورات الشعبية ، ولكن نجاح التحرير فى شرقى أوربا كان يحتم معارضة الغزو رسميا فى الشرق الأوسط ، ومع هذا لم يكن هذا هو العامل الوحيد ، كان ضد عودة النفوذ البريطانى الى الشرق الأوسط أو استقرار النفوذ الفرنسى فى شمال افريقية ، وضد بقاء قناة السويس فى أيدى شركة فرنسية لبريطانيا فيها نفوذ كبير .

ولكن حتى هذه المعارضة للغزو انتهت حينما بدا أن بريطانيا وفرنسا أصبحتا أعجز من أن تستطيعا تحقيق هذا .. !

وقد حدث بعد أن ألقى دالاس خطبته فى هيئة الأمم المتحدة وهى الخطبة التى ندد فيها بالغزو والعدوان « وبالمشهد الذى لا يمكن السكوت عليه وهو هجوم ثلاث دول من أعضاء الأمم المتحدة

ضد عضو رابع » ـ حدث ان سقط مريضا ونقل الى المستشفى لاجراء جراحة خطيرة ، وبعد اسبوع من ايقاف القتال ذهب سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا الى المستشفى ومعه السفير البريطانى فى واشنجطن هارولد كاشيا لزيارة دالاس فكان كما يروى السفير البريطانى :

جاء دالاس وكان يسير بهدوء ومتألما ، وشد على يد سلوين لويد بحرارة وقال : لماذا بحق السماء وقفتم الغزو ؟ ورد سلوين لويد : (كنت أرجو لو سألت هذا السؤال مبكرا ! ولكن دالاس لم يبال ، واستمر ينعى على الحملة إنها وقفت قبل أن تحقق هدفها وهو اسقاط ناصر ، وقال : إنه لو كان فى الوزارة لكانت سياسة الولايات المتحدة اخف وطأة على بريطانيا ، ولكن خلال مرضه تولى معالجة الأزمة ايزنهاور وهوفر .. !

وكانت الغنيمة ، المثلى بالنسبة لدالاس ـ أن يسقط ايدن فى بريطانيا وان يسقط النظام فى مصر معاً ..

وسوف ترث الولايات المتحدة النفوذ البريطانى وتصبح الدولة الأولى فى الشرق الأوسط ، لتستطيع أن تحقق الهدف الآخر بطريقة اخرى .

وهذا ما حدث وخرجت الولايات المتحدة بعد الغزو مباشرة بدعوى جديدة هى (ملء الفراغ) لأن سقوط النفوذ البريطانى والفرنسى فى الشرق الأوسط قد ترك فراغا فى المنطقة ، وان الولايات المتحدة الأمريكية هى التى لا بد أن تملأه ، وذلك حتى لا تملاه الشيوعية الدولية .. !

وصيغت نظرية كاملة ومشروع مفصل لهذه السياسة أطلق عليهما اسم ايزنهاور ، وكانت موضع زهوه ، وتحتل فصلا هاما من مذكراته .

ولم تخف نظرية ايزنهاور ومشروعه اهدافها الأساسية ومطامعها وأولها أن تحل الولايات المتحدة محل بريطانيا وفرنسا وان تصبح الدولة العظمى الوحيدة فى المنطقة ثم أن تدعم وتعبئ القوى والنظم العربية الموالية للغرب ، وأن تنسق وتحول ولاءها كاملا للولايات المتحدة الأمريكية ..

وكان الهدف الثالث هو حصار الثورة المصرية وناصر الذى خرج من الازمة بطل العرب ، واحد ابطال العصر ، وبدأ الحصار بمنع الدواء والقمح عن مصر ، ثم بمحاولة اسقاط النظام فى سورية وكان الهدف الآخر الذى لايقل اهمية هو طرد الاتحاد السوفييتى من المنطقة ، وكان قد اكتسب عطفا واسعا بموقفه خلال الازمة وقبلها ، ولابد أن يحاصر هذا النفوذ وأن يصفى ..

ومن أجل نجاح مشروع ايزنهاور قامت الولايات المتحـدة بالضغط على بريطانيا وفرنسا واسرائيل للانسحاب من بور سعيد ثم من سيناء ! .

كان لابد للولايات المتحدة تعزيزا لدورها الجديد أن تبدو معارضة تماما (للاستعمار) ومختلفة عنه فى سياساتها .

وكانت الولايات المتحدة تريد ان تبدو أمام العرب الذين سوف تملأ (الفراغ) بينهم أنها (موضوعية) محايدة ، وليست منحازة لاسرائيل ، ولابد أن تعزز مكانة اصدقائها من العرب .

وكان بن جوريون قد أعلن فى الكنيسيت بعد ايقاف القتال أن اسرائيل لم تحتل سيناء أو تضمها ، ولكنها حررت جزء من الوطن الاسرائيلى ! وهى لن تتخلى عنه مهما كان الثمن ، ولكن بعد الخطاب بأربع وعشرين ساعة فقط كما قال مناحم بيجن غير بن جوريون رأيه تغييرا مفاجئا لم يعرف احد له سـببا ، وكانت التعليمات الأمريكية قد جاءت حاسمة .

وقد كفلت الولايات المتحدة مع هذا لاسرائيل المرور فى مضايق خليج العقبة ، وذلك بوجود القوات الدولية فى شرم الشيخ وتيران وكان هذا هدفا رئيسيا من أهداف اسرائيل ومن أهداف الحملة ، على سيناء وهو قد فتح ثغرة أكبر فى الحصار الاقتصادى والاستراتيجى الذى كانت تفرضه الدول العربية على اسرائيل والذى كان أشد مايقلقها •

لم يكن (الضغط) على اسرائيل عقابا على عدوانها أو اقرارا بحق العرب او تأكيدا لعدالة موقف مصر ، ولكن كان مجرد تمهيد لنجاح مشروع أيزنهاور ولسياسة ملء الفراغ !

وكان مشروع ايزنهاور فى جوهره يعنى بداية الحرب المباشرة بين الثورة المصرية والاستعمار الجديد (الامريكى) ، لقد فشل الاستعمار القديم البريطانى والفرنسى (الأوروبى) ويتسلم المهمة الآن كاملة ومباشرة الاستعمار الأقوى والجديد !

ولهذا بدأ مشروع أيزنهاور على الضفة الغربية بمحاولة اسقاط النظام فى سورية ، وبتصفية الحكم الوطنى الذى كان قائما فى الاردن وبتصفية الحكومة الوطنية الاردنية •

وكان اسقاط النظام فى سورية ضروريا وجوهريا لتنفيذ السياسة الجديدة فى حصار النظام فى مصر ، واشتركت دول حلف بغداد والسعودية فى اعداد هذا الانقلاب وبتوجيه (لوى هندرسون) السفير الأمريكى السابق فى ايران خلال الانقلاب الايرانى ••

بدأت المعركة المباشرة بين الثورة المصرية وبين الامبريالية الأمريكية فى داخل مصر وعلى نطاق الوطن العربى كله ، ولكن مهما يكن الأمر فقد فشل الغزو والعدوان ، وبفشله سقط دالاس ، وسقطت سياسته ، وسقط أيدن ، وسقطت سياسة بريطانيا

العظمى ، وبدأ عصر انجلترا الصغيرة واختير ماكميلان رئيسا لوزراء بريطانيا بعد ايدن ، لأنه كان ضابط اتصال لأيزنهاور خلال الحرب العالمية الثانية وسوف ينفذ سياسة التابع لا الشريك!
وفشل بن جوريون ، سقط كل الزهو والصلف الذى جاء به فى فبراير سنة ١٩٥٥ مؤكدا أنه سوف يسقط النظام فى مصر ، وربما لم تنته سياساته ، ولكنه أزيح من القيادة وسقط موليه ، وسقطت الاشتراكية الديمقراطية الفرنسية ، ثم سقطت الجمهورية الرابعة ، كلها ، واستمرت ثورة الجزائر !

وخرجت الثورة المصرية منتصرة . كانت كل الحسابات الغربية تؤكد أن ضربة قوية من الخارج ستدفع الشعب كله الى الانقضاض على النظام ، ولكن ماحدث كان العكس تماما : كان الغزو تعميدا جديدا للثورة . ولقد فشلت الرجعية الداخلية سنة ١٩٥٤ ، لأنها لم تجد سندا خارجيا ، وفشل السند الخارجي سنة ١٩٥٦ ، لأنه لم يجد رجعية داخلية ، وظل الشعب المصرى هو العامل الحاسم ، كانت ثورته وكان تاريخه ، وكان الغزو ميلادا جديدا . هذه ثورة لن تنتكس ، لن يقضى عليها أحد ، لقد ولدت لتبقى .

يصدر الجزء الثانى فى ١٥ يناير سنة ١٩٧٢

فهـــرس الكتاب

صفحة



عبد الناصر هو اشرف صـــديق للاتحاد السوفيتي ..

ليونيد بريجنيف

اذا كنا لم نشـ ارك فى صنع الانقلاب ولم نشارك فى تثبيت سلطاته ، ولم نشارك فى بناء قواعده ونظمه فذلك لان عبد الناصر ماكان ليقبل قط اى مســاعدة منا فى هذا

وكان يثيره ويستفزه ان دالاس يتصـــور ان ثورته لاتختلف فى شىء عن انقلاب فى امريكا اللاتينية ..

مايلز كوبلاند
من المخابرات المركزية الامريكية



« اشد ماكان يحيرنا ويضايقنا فيه انه كان بلا نقائص ، لانستطيع ان نشتريه او نغريه ، وكنا نكرهه كراهية التحريم ، ولكن لانستطيع شيئا ازاءه ... كان انظف مما ينبغى »

جويل جوستين
من ادارة المخابرات المركزية الامريكية



ما اكبره فى عبد النـــاصر انه لايكف عن التعلم ...

نهرو